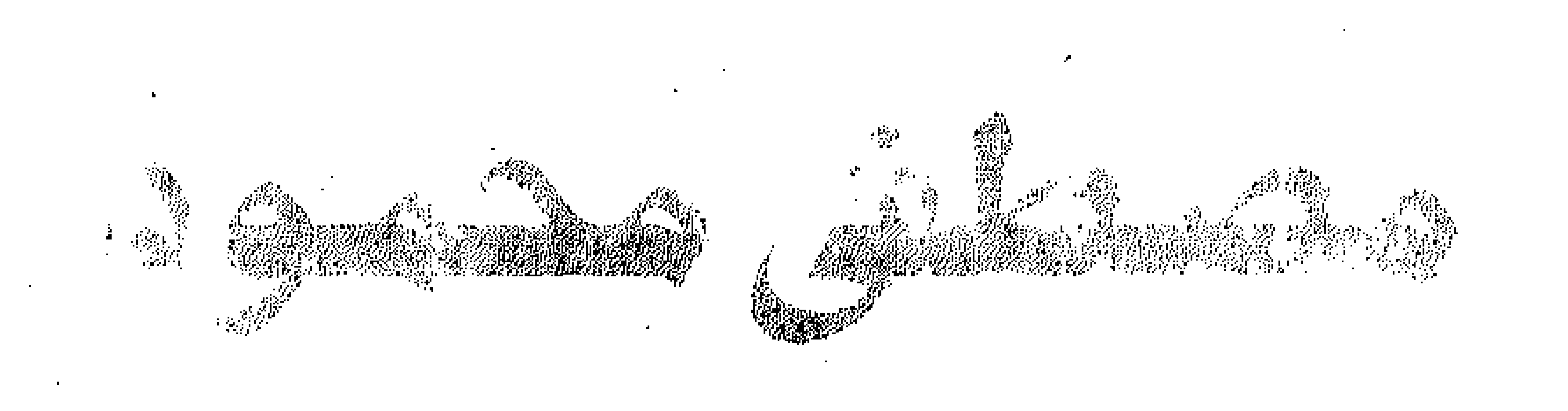


محاولة لفهم عصري





اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فهمى

الاسكندرية

مصطفى محمود



الطبعة الخامسة



دار المعارف

الغلاف :

* تصميم الفنان بهجت عثمان .
* محلى بآية الكرسى بريشة الفنان العربي مبارك المكى فى عصر الخليفة المتوكل سنة ٢٤٣ هـ .

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

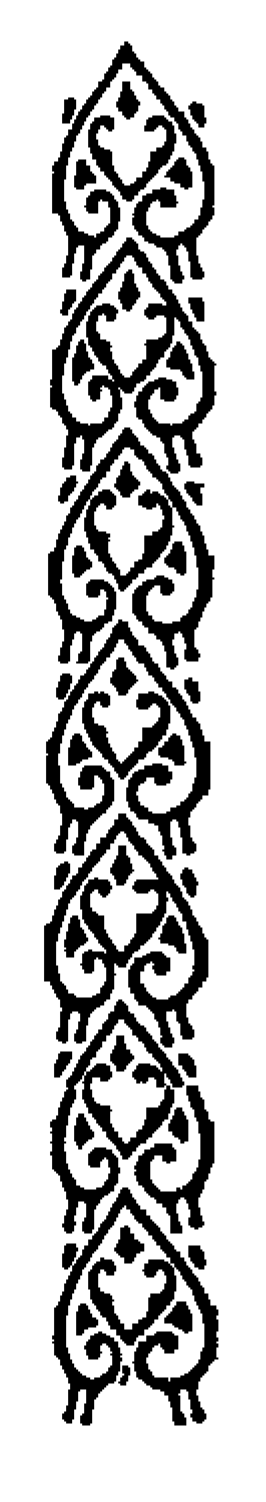
بسم الله الرحمن الرحيم

« إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ » .

« قرآن كريم »

المعمار القرآني





كان أول لقاء لى مع القرآن وأنا فى الرابعة من العمر طفلاً أجلس فى صف بين عدة صفوف فى كُتَّاب الشيخ محمود أحملق فى بلاهة إلى سبورة وإلى مؤشر يتحرك فى يد الشيخ على كلمات منقوشة بالطباشير وهو يتلو . . « وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى » . . فنردد خلفه فى آلية . . « والضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى » . . لا نفهم من الكلام حرفاً . . ولا نعلم ما الضحى ولا كيف سجى . ولكننا نردد مجرد مقاطع ومخارج حروف .

وكان عقلى آنذاك صفحة بيضاء نقية لم يكتب عليها شيء ولم تتلق تأثيراً تربوياً خاصاً ، فقد نشأت فى أسرة كل فرد فيها متروك لحاله . . يحب ما يحب ، ويكره ما يكره ، ويلعب حتى يشبع لعباً ، وأذكر أني رسبت فى السنة الأولى ثلاث سنوات دون أن أتلقى تعنيفاً . . وكان الصفر بالقلم الأحمر يزين كل صفحة من كراساتي مرة بعد مرة فلا يثير إلا الضحك . وكانوا إذا سألوني ماذا أخذت اليوم ، كنت أقول اختصاراً للمهزلة وحتى لا أعود

إلى شرح حكاية الصفر اليومى التى أصبحت بالنسبة لى مملة . . كنت أقول . . زى العادة . . وكانوا يضحكون .

هكذا كانت تجرى الأمور فى بيتنا ، لا إرغام على مذاكرة ولا قهر على تدين . . وإنما لكل حياته . . وعلى كل تبعته .

لم نعرف غسيل المخ الذى عرفه كثير من الأطفال فى أسر متزمتة تحشر العلم والدين حشراً فى عقول أطفالها بالكرباج والعصا .

كنت إذن أتلقى أول عبارة من القرآن بذهن أبيض تماماً ودون تأثير مسبق مثلما أتلقى دروس الحساب والجغرافيا والإنشاء .

وكما بهرتنى حكاية الكرة الأرضية المدورة والقارات كالجزر سابحة فيها ، وكما بهرتنى حكاية القمر يدور حول الأرض ، والأرض حول الشمس.. والكل معلق فى السماء ، كذلك فعل بي القرآن شيئاً .

وأحار فى وصف الشعور الذى تلقيت به أول عبارة فى القرآن .

ولا أجد الكلمات لتشرح هذا النوع من الاستقبال النفسى الغامض . . وكيف كانت الكلمات تعود من تلقاء نفسها فتراود سمعى وذاكرتي وأنا وحدى فأراني أردد بلا صوت . . « والضُّحَى وَاللَّيْلِ إذَا سَجَى » .

وتقتحم عليّ العبارة القرآنية سكون طفولتى فأتذكر فى ظلام الليل إلقاء الشيخ وهو يردد : « وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى » .

تسعى العبارة إلى خيالى وكأنها مخلوق حى مستقل له حياته الخاصة .

وقطعاً أنا لم أكن أعلم ما الضحى ولا كيف سجى الليل . . ولا من هو الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى .

ولعل المقاطع كانت تتردد فى سمعى أشبه بمقاطع سلم موسيقى . .

(صول لا سي دو رى مى فا) . . مجرد حروف لا معنى لها ولا وقع سوى مدلولها الموسيقى . . مجرد نغم ومازورات موسيقية وإيقاع يطرب الوجدان .

نعم . . لقد اكتشفت منذ تلك الطفولة البعيدة دون أن أدرى حكاية الموسيقى الداخلية الباطنة فى العبارة القرآنية .

وهذا سر من أعمق الأسرار فى التركيب القرآني . . إنه ليس بالشعر ولا بالنثر ولا بالكلام المسجوع . . وإنما هو معمار خاص من الألفاظ صفت بطريقة تكشف عن الموسيقى الباطنة فيها .

وفرق كبير بين الموسيقى الباطنة والموسيقى الظاهرة .

وكمثلٍ نأخذ بيتاً لشاعر مثل عمر بن أبي ربيعة اشتهر بالموسيقى فى شعره . . البيت الذى ينشد فيه :

قال لى صاحبي ليعلم ما بي   أتحب القتول أخت الرباب

أنت تسمع وتطرب وتهتز على الموسيقى . . ولكن الموسيقى هنا خارجية صنعها الشاعر بتشطير الكلام فى أشطار متساوية ثم تقفيل كل عبارة تقفيلا واحداً على الباء الممدودة .

الموسيقى تصل إلى أذنك من خارج العبارة وليس من داخلها . من التقفيلات (القافية) . . ومن البحر والوزن . أما حينما تتلو :

« وَالضُّحى وَاللَّيْلِ إذَا سَجَى » .

فأنت أمام شطرة واحدة . . وهى بالتالى تخلو من التقفية والوزن والتشطير ، ومع ذلك فالموسيقى تقطر من كل حرف فيها . . من أين ، وكيف ؟

هذه هى الموسيقى الداخلية .

الموسيقى الباطنة .

سر من أسرار المعمار القرآني لا يشاركه فيه أى تركيب أدبي . وكذلك حينما تقول :

« الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى » . (طه – ٥)

وحينما تتلو كلمات زكريا لربه :

« قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا » . (مريم – ٤)

أو كلمة الله لموسى :

« إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى » .

(طه–١٥)

أو كلمته تعالى وهو يتوعد المجرمين :

« إِنَّه مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيَا » .

(طه – ٧٤)

كل عبارة بنيان موسيقى قائم بذاته تنبع فيه الموسيقى من داخل الكلمات ومن ورائها ومن بينها بطريقة محيرة لا تدرى كيف تتم .

وحينما يروى القرآن حكاية موسى بذلك الأسلوب السيمفوني المذهل :

« وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِى الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تَخْشَى . فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ . وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى » . (طه – ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩)

كلمات فى غاية الرقة مثل « يَبَساً » أو لا تخاف « دركاً » بمعنى لا تخاف إدراكاً .

إن الكلمات لتذوب فى يد خالقها وتصطف وتتراص فى معمار ورصف موسيقى فريد هو نسيج وحده بين كل ما كتب بالعربية سابقاً ولاحقاً .

لا شبه بينه وبين الشعر الجاهلى ، ولا بينه وبين الشعر والنثر المتأخر ، ولا محاولة واحدة للتقليد حفظها لنا التاريخ برغم كثرة الأعداء الذين أرادوا الكيد للقرآن .

فى كل هذا الزحام تبرز العبارة القرآنية منفردة بخصائصها تماماً . . وكأنها ظاهرة بلا تبرير ولا تفسير سوى أن لها مصدراً آخر غير ما نعرف .

اسمع هذا الإيقاع المنغم الجميل :

« رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ » . (غافر — ١٥)

« فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَىِّ » . (الأنعام — ٩٥)

فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً » .

(الأنعام — ٩٦)

« يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » . (غافر — ١٩)

« لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ » . (الأنعام — ١٠٣)

« وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً » . (الأعراف — ٨٩)

ثم هذه العبارة الجديدة فى تكوينها وصياغتها . . العميقة فى معناها ودلالتها على العجز عن إدراك كنه الخالق :

« عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الكَبِيرُ المتَعَال » . (الرعد — ٩)

« يُجَادِلُونَ فِى اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ المِحال » (الرعد — ١٣)

ثم هذا الاستطراد فى وصف القدرة الإلهية :

« وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى البَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا

تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ » . (الأنعام – ٥٩)

ولكن الموسيقى الباطنية ليست هى كل ما انفردت به العبارة القرآنية ، وإنما مع الموسيقى صفة أخرى هى الجلال .

وفى العبارة البسيطة المقتضبة التى روى بها الله نهاية قصة الطوفان تستطيع أن تلمس ذلك الشيء « الهائل » « الجليل » فى الألفاظ : « وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ويَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ » . (هود – ٤٤)

تلك اللمسات الهائلة . . كل لفظ له ثقل الجبال ووقع الرعود . . تنزل فإذا كل شيء . صمت . . سكون ، هدوء ، وقد كفت الطبيعة عن الغضب ووصلت القصة إلى ختامها :

« وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ويَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ » .

(هود – ٤٤)

إنك لتشعر بشيء غير بشرى تماماً فى هذه الألفاظ الهائلة الجليلة المنحوتة من صخر صوان وكأن كل حرف فيها جبل الألب .

لا يمكنك أن تغير حرفاً ، أوْ تستبدل كلمة بأخرى ، أو تؤلف جملة مكان جملة ، تعطى نفس الإيقاع والنغم والحركة والثقل والدلالة . . وحاول وجرب لنفسك فى هذه العبارة البسيطة ذات الكلمات العشر أن تغير حرفاً أو تستبدل كلمة بكلمة .

ولهذا وقعت العبارة القرآنية على آذان عرب الجاهلية الذين عشقوا الفصاحة والبلاغة وقع الصاعقة .

ولم يكن مستغرباً من جاهلى مثل الوليد بن المغيرة عاش ومـات على كفره

أن يذهل ، وألا يستطيع أن يكتم إعجابه بالقرآن ، برغم كفره فيقول : وقد اعتبره من كلام محمد :

« والله إن لقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق . . وإنه ليعلو ولا يعلى عليه » .

ولما طلبوا منه أن يسبه قال :

« قولوا ساحر جاء بقول يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته » .

إنه السحر حتى على لسان العدو الذى يبحث عن كلمة يسبه بها .

وإذا كانت العبارة القرآنية لا تقع على آذاننا اليوم موقع السحر والعجب والذهول ، فالسبب هو التعود والألفة والمعايشة منذ الطفولة والبلادة والإغراق فى عامية مبتذلة أبعدتنا عن أصول لغتنا . . ثم أسلوب الأداء الرتيب الممل الذى نسمعه من مرتلين محترفين يكرون السورة من أولها إلى آخرها بنبرة واحدة لا يختلف فيها موقف الحزن من موقف الفرح من موقف الوعيد من موقف البشرى من موقف العبرة . نبرة واحدة رتيبة تموت فيها المعاني وتتسطح العبارات . . وبالمثل بعض المشايخ ممن يقرأ القرآن على سبيل اللعلعة دون أن ينبض شيء فى قلبه . . ثم المناسبات الكثيرة التى يقرأ القرآن فيها روتينياً . . ثم الحياة العصرية التى تعددت فيها المشاغل وتوزع الانتباه وتحجر القلب وتعقدت النفوس وصدئت الأرواح .

وبرغم هذا كله فإن لحظة صفاء ينتزع الواحد فيها نفسه من هذه البيئه اللزجة ويرتد فيها طفلا بكراً وترتد له نفسه على شفافيتها ، كفيلة بأن تعيد إليه ذلك الطعم الفريد والنكهة المذهلة والإيقاع المطرب الجميل فى القرآن . .

وكفيلة بأن توقفه مذهولا من جديد بعد قرابة ألف وأربعمائة سنة من نزول هذه الآيات وكأنها تنزل عليه لساعتها وتوها .

اسمع القرآن يصف العلاقة الجنسية بين رجل وامرأة بأسلوب رفيع وبكلمة رقيقة مهذبة فريدة لا تجد لها مثيلا ولا بديلا فى أية لغة :

« فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً » . (الأعراف – ١٨٩)

هذه الكلمة « تغشاها » .. تغشاها رجلها .

أن يمتزج الذكر والأنثى كما يمتزج ظلان وكما يغشى الليل النهار وكما تذوب الألوان بعضها فى بعض ، هذا اللفظ العجيب الذى يعبر به القرآن عن التداخل الكامل بين اثنين هو ذروة فى التعبير .

وألفاظ أخرى تقرؤها فى القرآن فتترك فى السمع رنيناً وأصداء وصوراً حينما يقسم الله بالليل والنهار فيقول :

« وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إذا تَنَفَّسَ » .

(التكوير – ١٧ ، ١٨)

« عسعس » . . هذه الحروف الأربعة هى الليل مصوراً بكل ما فيه .

« والصبح إذا تنفس » إن ضوء الفجر هنا مرئى ومسموع . . إنك تكاد تسمع زقزقة العصفور وصيحة الديك .

فإذا كانت الآيات نذير الغضب وإعلان العقاب فإنك تسمع الألفاظ تنفجر . . وترى المعمار القرآنى كله له جلجلة . اسمع ما يقول الله عن قوم عاد :

« وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ » .

(الحاقة – ٦ ، ٧)

إن الآيات كلها تصرفيها الرياح وتسمع فيها اصطفاق الخيام وأعجاز النخل الخاوى وصورة الأرض الخراب .

والصور القرآنية كلها تجدها مرسومة بهذه اللمسات السريعة والظلال المحكمة والألفاظ التى لها جرس وصوت وصورة .

ولهذه الأسباب مجتمعة كان القرآن كتاباً لا يترجم .

إنه قرآن فى لغته . أما فى اللغات الأخرى فهو شيء آخر غير القرآن . . « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً » وفى هذا تحديد فاصل .

وكيف يمكن أن تترجم آية مثل :

« الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى » . (طه — ٥)

إننا لسنا أمام معنى فقط . وإنما نحن بالدرجة الأولى أمام معمار . . أمام تكوين وبناء تنبع فيه الموسيقى من داخل الكلمات ، من قلبها لا من حواشيها ، من خصائص اللغة العربية وأسرارها وظلالها وخوافيها .

ولهذا انفردت الآية القرآنية بخاصية عجيبة . . إنها تحدث الخشوع فى النفس بمجرد أن تلامس الأذن وقبل أن يتأمل العقل معانيها . . لأنها تركيب موسيقى يؤثر فى الوجدان والقلب لتوه ومن قبل أن يبدأ العقل فى العمل .

فإذا بدأ العقل يحلل ويتأمل فإنه سوف يكتشف أشياء جديدة،وسوف يزداد خشوعاً . . ولكنها مرحلة ثانية . . قد تحدث وقد لا تحدث . . وقد تكشف لك الآية عن سرها وقد لا تكشفه . . وقد تُؤتَى البصيرة التى تفسر بها معاني القرآن وقد لا تُؤتَى هذه البصيرة . . ولكنك دائماً خاشع لأن القرآن يخاطبك أولاً كمعمار فريد من الكلام . . بنيان . . فورم . . طراز من

الرصف يبهر القلب . . ألقاه عليك الذى خلق اللغة ويعرف سرها ، وليس أبداً محمد النبي الأمى الذى كان يرتجف كما ترتجف أنت والوحى يلقى عليه بالآيه : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَق » فيرتجف ويتصبب عرقاً ولا يعرف من أى سماوات يلم به هذا الصوت الآمر . . وهو يلوذ بزوجته خديجة وهو ما يزال يرتجف فرقاً لما سمع وقد بات يخشى على نفسه الجنون فتطمئنه خديجة بصوتها الحاني هامسة :

« والله ما يخزيك الله أبداً . . إنك لتصل الرحم . . وتحمل الكَل . وتكسب المعدوم . . وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » .

وينقطع عنه الوحى سنتين بعد هذه الكلمات القليلة الأولى ، ويتركه فى حيرة . . يذرع دروب الصحراء الملتهبة يكاد يجن من أمر هذا الصوت الذى نزل عليه ثم انقطع عنه .

ولو كان محمد مؤلفاً لألف فى هاتين السنتين كتاباً كاملا .

ولكنه لم يكن أكثر من مستمع أمين سمع كما تسمع أنت تلك الكلمات ذات الموسيقى العلوية فى لحظة صفاء وجلاء فذهل كما تذهل وصعقت حواسه أمام هذا التركيب الفريد المضىء .

وبعد سنتين من الصمت عاد الصوت ليهتف فى أذنه :

« يَـاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَـأَنْذِرْ » . (المدثر – ١ ، ٢)

ثم بدأت آيات القرآن تنزل متوالية .

ولم يكن محمد من أدعياء المعجزات .

ويوم دفن ولده الوحيد إبراهيم حدث كسوف كلي للشمس فسَّره الناس على أنه معجزة ومشاركة من الطبيعة لحزن محمد فقال محمد كلمته المشهورة :

« إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته » .

ولو كان فى طبعه الادعاء لالتمس فيما حدث سبباً للدعاية لنفسه ، ولكنه كان الصادق الأمين من أول يوم فى حياته إلى آخر يوم .

والوحى يلقى إلى محمد بما لا يعلم محمد .

« ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ » .

(آل عمران — ٤٤)

« تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِين » . (هود — ٤٩)

وهو يلقى إليه بأسرار فى التوراة والإنجيل . . ولم تكن هذه الكتب قد ترجمت إلى العربية فى ذلك العصر البعيد (وأول نص مسيحى ترجم إلى العربية هو مخطوط بمكتبة القديس بطرسبرج كتب حوالى عام ١٠٦٠ ميلادية) . كانت هذه الكتب أسراراً عبرية لا يعرفها إلا أصحابها .

وهو يتحدى اليهود بأن يخرجوا مخطوطاتهم ويقرأوها :

« قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فاتْلُوها إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين » .

(آل عمران — ٩٣)

ثم هو يصحح بعض تفاصيل التوراة .

فنى رواية التوراة لقصة يوسف يقول النص إن إخوة يوسف استخدموا فى سفرهم « الحمير » والقرآن يروى أنهم استخدموا « العير » وهى الإبل . .

والحمار حيوان حضرى عاجز عن أن يجتاز مسافات صحراوية شاسعة

لكي يجيء من فلسطين إلى مصر . . وحكاية العير هي حكاية أدق وأصدق :
ألم يلعن أرميا : « أقلام النساخ الكاذبة » .

إن الوحي يلقى على محمد ما لا يعلمه محمد لا هو ولا أصحابه ولا قومه ولا نساخ التوراة وحفاظها . . ثم هو يلقى عليه من فواتح السور ما هو أشبه بالشفرة والألغاز مثل . . كهيعص . . طسم . . حم . . عسق ، مما لم يقل لنا النبي إنه يعلم له تفسيراً .

ولو أن محمداً هو الذى وضع القرآن لبث فيه أشجانه وحالاته النفسية وأزماته وأحزانه . . والقرآن غير هذا تماماً فهو يبدو من البدء إلى النهاية معزولاً عن النفس المحمدية بما فيها من مشاغل وهموم . . بل إن الآية لتنزل مناقضة للإرادة المحمدية :

« وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ » .

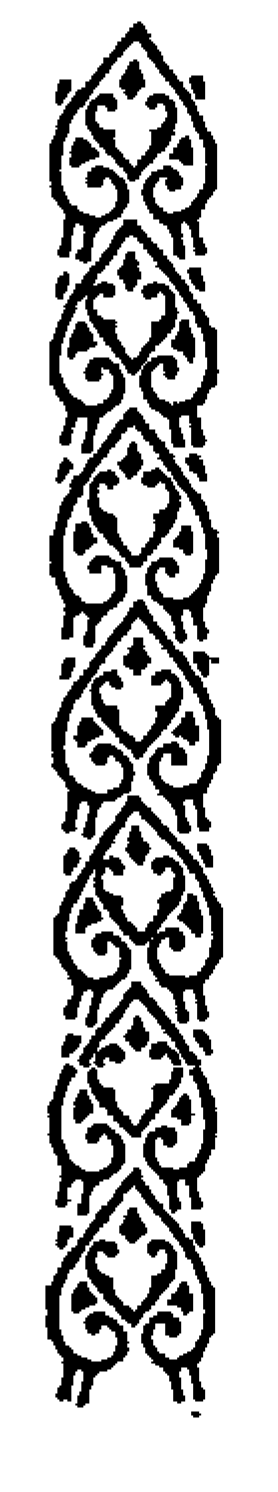
(طه – ١١٤)

كل هذا يضع أمامنا القرآن كظاهرة متعالية معزولة عن النفس التى أخبرتنا بها . . فهى لا أكثر من واسطة سمعت فأخبرت .

أما القرآن ذاته فهو – لفظاً ومعنى – من الله الذى أحاط بكل شيء علماً .

مخيَّر أم مسيَّر





القرآن معمار فريد . . نسيج وحده . . فى الطريقة التى تصفّ بها الألفاظ فى رصف خاص يفجّر ما بداخلها من نغم ، وهو نغم لا ينبع من حواشى الكلمات وأوزانها وقوافيها وإنما من باطنها بطريقة محيرة مجهولة تماماً . . وبطريقة تؤدى إلى خشوع المستمع وإدراكه الغامض للمصدر الجليل الذى جاءت منه .

فنحن نصبح أسرى للقرآن بمجرد الاستماع إليه . . وقبل أن نتعقل كلماته ، فإذا بدأنا نتأمل ونتعقل ونحلل ونعكف على الكلمات فسوف تنفتح لنا كنوز من المعاني والمعارف والأفكار تحتاج إلى مجلدات لشرحها ، ولذلك سوف أكتفي بوقفات قليلة أمام بعض المشكلات الأزلية . . كيف تناولها القرآن وماذا قال فيها ؟

وأولاها مشكلة الحرية .

والحرية ثغرة كبيرة يدخل منها الشك ويتسلل منها هواة الجدل من

الملحدين . . فأول ما يقوله الواحد منهم ليقيم الحجة على الدين كله أن يهتف محتجًّا :

« إذا كان الله قدّر عليّ أفعالى . فلماذا يحاسبنى » ؟

« وإذا كان كل شيء يجرى فى الدنيا بمشيئة الله فما ذنبي » ؟

والسؤال يطرح معضلة بالفعل .

وقد أوصى النبي أصحابه بعدم الدخول فى جدل .

وقال لهم : إذا جاء ذكر القدر فأمسكوا .

لأنه علم أن المعضلة من المعضلات الفلسفية العالية التى لا يتيسر الرد عليها بعلوم عصره . . وأن الجدل سوف ينزلق بهم إلى متاهة يضيعون فيها . . ولذا فضل الإيمان بالقلب على الثرثرة العقلية العقيمة .

وهي وصية لا تنسحب تماماً على عصرنا ، الذى دخلت فيه الفلسفة الجامعات درساً ميسراً يتلقاه ابن العشرين كل يوم .

وبذلك أصبح السؤالُ مطروحاً بشدة . . وفى حاجة إلى جواب ورد شاف من الفلسفة ومن الدين ومن صميم القرآن ذاته .

ومن النظرة المبدئية للعالم بما فيه من أرض وسماوات ونجوم وكواكب نرى أنه يقوم على سلسلة محكمة من الأسباب والمسببات،وأن كل شيء فيه يجرى بنظام محكم . . وإن كان لديك ورقة وقلم فإنك تستطيع أن تحسب بالضبط متى تشرق الشمس ومتى تغرب ، لأنها تتحرك حسب قانون . . وكل شيء فى الدنيا يتحرك حسب قانون .

إلا الإنسان . . فإنه يشعر أنه يمشى على كيفه .

الإنسان وحده هو الحر المتمرد الثائر على طبيعته وظروفه ، ولهذا يصطدم بالعالم ويصارعه . . ويستحيل فى أى لحظة أن يتنبأ أحد بمصيره .

وحكاية الحتمية الداخلية التى تصورها فرويد فاعتبر الإرادة بسببها حرة فى الظاهر لكن مقيدة فى الباطن وأسيرة لجبرية الغرائز وآلية الحوافز الباطنة . . عاد هو ذاته فنقضها وقال إن الغريزة هى خام غفل تتصرف فيه الإرادة بالكبت أو بالإطلاق أو بالتسامى .

وهكذا عادت الغريزة لتصبح مجرد ظرف تتحكم فيه الإرادة كما تتصرف الإرادة فى الظروف الخارجية وتتحكم فيها . . وأصبحت الإرادة بهذا المعنى حقيقة متعالية متجاوزة للغرائز .

وبالمثل حكاية الحتمية الطبقية التى أثارها الماركسيون . . فاعتبروا كل إنسان ابن طبقته . . تحدد له طبقته حوافزه النفسية وعواطفه ورغباته وشخصيته السلوكية . . فهو يتصرف كنبيل أو كإقطاعى أو كبروليتارى لا كفلان الفلاني . بل هو لا يكاد يملك نفساً فما يتخيل أنه نفس مستقلة بداخله ، ما هى فى الحقيقة إلا مجموعة من الأنماط السلوكية التى استعارها من طبقته . . إنها الحتمية الطبقية تعمل من خلاله . وما هو إلا وسيط تظهر من خلاله القوى الاجتماعية اللامعقولة فى تصارعها .

وهى نظرة أوقعت الفكر الماركسي وعلم النفس الطبقى فى أشد التناقض.. فكيف نفسر سلوك رجل مثل تولستوى وهو من النبلاء الإقطاعيين بحكم الوراثة وهو مع ذلك لم يتصرف أبداً كنبيل ولا كإقطاعى بل تصرف كطليعة الفقراء والفلاحين محطماً بذلك تلك الحتمية التى اسمها « علم النفس الطبقى » . وبالمثل باكونين وكروبتكين طليعة الفوضوية وكانا من كبار

الأعيان . وماركس ذاته ابن الطبقة البورجوازية الذى انقلب على الطبقة البورجوازية .

وماذا نقول عن الفلاح الذى يهمل تنقية الدودة فى مزرعة تعاونية . . والعامل الذى يهمل صيانة الأتوبيسات فى قطاع عام .

إن هذه الحتمية التى تصورها علم النفس الطبقى هى كلام غير دقيق وغير علمى .

والحقيقة أن النفس الإنسانية انفردت دون صنوف الوجود المادى ، بأنها تملك قدرة داخلية على التملص من الـ . . لا بد واللازم . . والضرورى . . والمحتوم . . وإن الإرادة الإنسانية لها حريتها فى أن تخل بأى تعاقد . . ويستحيل التنبؤ بما يجرى فى منطقة الضمير . . لأنها منطقة حرة بالفعل .

لا شىء يحول بين الإنسان وبين أن يضمر شيئاً فى نفسه . إنه المخلوق الوحيد الذى يملك ناصية أحلامه .

ولكن هذه الحرية البكر الطليقة فى الداخل ما تلبث أن تصطدم بالعالم حينما تحتك به لأول مرة فى لحظة الفعل .

إن رغبتنا تظل حرة ما دامت كامنة فى الضمير والنية . . فإذا بدأنا التنفيذ اصطدمنا بالقيود . . وأول قيد نصطدم به هو جسدنا نفسه الذى يحيط بنا مثل الجاكتة الجبس ويحاصرنا بالضرورات والحاجات ويطالبنا بالطعام والشراب ليعيش ويستمر ولا نجد مهرباً من تلبية هذه المطالب . فنجرى خلف اللقمة ونلهث خلف الوظيفة ونضيع فى صراع التكسب ونفقد بعض حريتنا . . بعضها وليس كلها . . وهو ثمن ضرورى ، فرغباتنا لا تستطيع أن تعلن عن نفسها بدون جسد ، وجسدنا هو أداة حريتنا كما أنه القيد

عليها . وليس جسدنا وحده بل أجساد الآخرين أيضاً أدواتنا ، فنحن ننتفع بما يصنعه العامل وما يزرعه الفلاح وما يخترعه المخترع وما يكتبه الكاتب وكل هذه ثمار أجساد الآخرين وحرياتهم .

إن المجتمع أداة هائلة موضوعة فى خدمتنا بما فيه من بريد ومواصلات ونور ومياه وصناعات وعلوم ومعارف .

وحينما يركب أحدنا قطاراً فإنه يركب فى الوقت نفسه على حرية مجهزة أعدها له آلاف العمال والمهندسين والمخترعين وهو يدفع فى مقابل هذا الكسب ضريبة من حريته .

وليس المجتمع وحده هو الذى يتقاضاه ضرائب ولكن الكون كله . . جاذبية الأرض وضغط الهواء ومياه المحيطات والسماء بكواكبها . . كلها تحاصره وتحاصر حريته وتطالبه بنوع من الوفاق معها .

وهو بالوفاق يربح حريته دائماً .

بالوفاق مع العالم يمتطيه كما يمتطى الجواد .

فهو حينما يفطن إلى اتجاه الريح ويضع شراعه فى مواجهتها يمتطى الريح ويسخرها لخدمته . . وحينما يفطن إلى أن الخشب أخف من الماء ، ويصنع مركباً من الخشب يمتطى الماء . . وبالمثل حينما يفطن إلى نفع الناس ويسير فى اتجاههم يكسب الناس ويكسب معونتهم .

إن الإنسان يعيش مضطرباً بين عالمين . . عالم إرادته الحرة بداخله . . وعالم المادة حوله الراسف المغلول فى القوانين .

وسبيله الوحيد إلى فعل حر هو معرفة هذه القوانين والفطنة إلى استغلالها بالوفاق معها . . وهو دائماً أمر ممكن .

ولهذا فالحرية حقيقة لا تنفيها المقاومات والظروف الخارجية بل إن هذه المقاومات تؤكد الحرية فلا يمكن أن تكشف حريتنا عن مدلولها فى الخارج إلا بوجود عقبات تزحزحها وتتغلب عليها . . إنها تكشف عن مدلولها من خلال صراع وبدون هذا الصراع لا يقوم لها معنى .

والضوابط الخلقية والقوانين الاجتماعية لا تنفى الحرية وإنما هى أشبه بعلامات المرور . . وضعت لتنظم المرور وتفسح أكبر حرية للكل .

وأنت حينما تقيم الضوابط على شهوتك تكسب حريتك لأنك تصبح سيد نفسك لا عبداً لغريزتك .

أما حرية القمار والسكر والعربدة والمخدرات والتبذل الجنسى فهى ليست حريات وإنما درجات من الانتحار وإهدار الحياة وبالتالى إهدار الحرية .

وكل اختيار ضد الحياة لا يكون اختياراً .

وكل اختيار ضد القانون الطبيعى ليس اختياراً وإنما إهدار للاختيار ، وكلنا نعلم أننا إذا أردنا أن نزداد حرية ونحن نسبح اخترنا السباحة مع التيار وليس ضده .

نخلص من هذا إلى أن حرية الإنسان حقيقة برغم ما يقوم حولها من حدود ومقاومات . . وأن الإنسان حر حرية مطلقة فى منطقة ضميره، فهو يستطيع أن يضمر ما يشاء . . وحر حرية نسبية فى التنفيذ ، فى منطقة الفعل والعمل . . بحسب ما يقوم حوله من حدود ومقاومات .

ويبقى بعد ذلك اللغز الأزلى فى علاقة الإنسان بالله . وعلاقة حرية الإنسان بالإرادة الإلهية المطلقة .

وهنا يجىء دور القرآن ليلقى كلمات كالومض الخاطف يعطى بها

مفاتيح هذا الإشكال الأزلي .

ولأن القرآن كتاب دين وليس كتاب فلسفة فإنه يكتفي بالومض والرمز والإشارة واللمحة .

فيقرر أولاً أن حرية الإنسان كانت بمشيئة الله ورغبته ومراده . . وأن ما يجري من حرية الإنسان لا يجري إكراهاً للخالق ولا إكراهاً للمخلوق ، وإنما بهذا قضت المشيئة .

ويقول القرآن في وضوح :

« وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » . (يونس — ٩٩)

لقد رفض الله أن يكره الناس على الإيمان وكان هذا في إمكانه،ولكنه أراد للإنسان أن يكون حراً مختاراً ، يختار الإيمان أو الكفر كما يشاء :

« وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ » .

(الكهف — ٢٩)

« لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ » .

(البقرة — ٢٥٦)

« وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ». (السجدة — ١٣)

وأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الهُدَى » .

(فصلت — ١٧)

إن الله يتركنا ولو اخترنا العمى على الهدى . . وقد سبقت بهذا مشيئته . بل فعل بنا أكثر من هذا ، فخيرنا حتى في أن نختار . . عرض علينا هذه

الأمانة (وهى الحرية والمسئولية) عرضها لنقبلها أو نرفضها كما نشاء وهى الأمانة التى رفضتها الجبال فحمل الإنسان الأمانة التى رفضتها الجبال . وكان بنفسه جهولاً ظلوماً :

« إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَالْجبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولا » . (الأحزاب-٧٢)

لقد جهل الإنسان تبعة هذه الأمانة وأهوالها ومهالك الغرور التى سوف يتعرض لها بحملها . . وكيف أنه سيظلم بها نفسه وغيره . . ولكن الله كان يعلم بهذه المحنة الهائلة . . وكان يعلم أن هذه المحنة سوف تزكى الإنسان وتطهره وتربيه :

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ » . (البقرة - ٣٠)

ولا نعرف كيف تم هذا العرض على الإنسان بأن يكون حراً أولا يكون . ولا متى تم هذا العرض . . هل حدث فى مبدإ الخلق مع آدم . . أم مع الأرواح قبل نزولها إلى الأرحام . . فهذا غيب مطلق .

والقرآن يكتفى بأن يعطى ومضة ، ولمحة . .

وبهذه الحرية التى قبلها الإنسان مختاراً حقت عليه المسئولية والمحاسبة ، وأشار القرآن لهذا فى آيات حاسمة قاطعة :

« كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ » . (المدثر - ٣٨)

« كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ » . (الطور - ٢١)

« وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ » . (الإسراء - ١٣)

« قُلْ لاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ » . (سبأ — ٢٥)

« وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ». (الإسراء — ١٥)

لا يستطيع أحد أن يفتدى آخر أو يحمل عنه ذنبه وإنما لكل عمله وعلى كل وزره .

وبمقتضى هذه الحرية جعل الله من « ضمير الإنسان ونيته وسريرته » منطقة محرمة وقدس أقداس . . لا يدخلها قهر أو جبر . . وقطع على نفسه عهداً بأن تكون هذه المنطقة حراماً لا يدخلها جنده .

فالمبادرة بالنية حرة تماماً .

وكل منا له أن يضمر وينوى ويسر فى سريرته ما يشاء ، وإنما يبدأ التدخل الإلهى لحظة خروج النية إلى حيز الفعل . فيعطى الله لكل إنسان تيسيرات من جنس نيته ومن جنس ضميره وقلبه . . وهو عين العدل . . ليكون الفعل بعد هذا معبراً عن دخيلة فاعله :

« فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى.فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى.وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى.فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى » .

(الليل من ٥ إلى ١٠)

ها هنا وعد آخر من الله بأن يجعل تيسيرات الأفعال مطابقة لدخائل القلوب فيجد الشرير تيسيرات الشر ، ويجد الخيّر تيسيرات الخير . . ومن يعلم الله فيه الهدى يهديه ، ومن يعلم فيه الضلال يتركه للشياطين تضله :

« فَعَلِمَ مَا فى قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً » .

(الفتح — ١٨)

وفى آيات أخرى نراه يقول :

« وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ » . (الأنفال – ٢٣)

« فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ » . (الصف – ٥)

ولأن الله علم بكل شىء مسبقاً . . وأحاط بكل شىء علماً . . نراه يتكلم فى القرآن عمّن :

« حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ » . (فصلت – ٢٥)

« إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى » . (الأنبياء – ١٠١)

« وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ » . (النحل – ٣٦)

« حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » .

(السجدة – ١٣)

فقد علم مسبقاً وسلفاً بأن الإنسان سيفسد فى الأرض وسيسفك الدم ويظلم نفسه ويظلم الآخرين . . ويستحق بذلك درجات متفاوتة من العقوبة .

كل هذا كان فى سابق علمه .

وليس هذا بالجبر ولا بالحتم . . ولكن . . كما يحدث أن تتوسم فى أحد أبنائك حب العلم والتحصيل فتمده بالتسهيلات والتيسيرات وتبعثه إلى الخارج فى بعثة . . وترى فى الآخر العكوف على الفساد وصحبة السوء فتكتفى بما له من حظ محدود من التعلم فى بلده . . ولو فعلت عكس ذلك لكنت ظالماً . . ولأكرهت أبناءك على غير طبائعهم .

كما أن هذا التوسم المسبق ليس فيه عنصر إكراه ولا جبر . . إنما هو مجرد سبق علم . . فأنت تعلم مسبقاً من أخلاق ولدك بأنه سوف ينصرف إلى اللعب ويهمل كتبه . . فإذا انصرف إلى اللعب بالفعل وأهمل كتبه فإن ذلك

لا يكون إكراهاً منك ولا جبراً ولا عنوة وإنما لأن هذه طبيعته التى سبق علمك إليها . . وإنما تأتي التجربة فتكشف له نفسه . . وبذلك يحق عليه العقاب صدقاً وعدلاً . . فقد علم من نفسه ما لم يكن يعلم :

« عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ » . (الانفطار – ٥)

ولهذا جاءت الدنيا لتكون حقل تجربة واختباراً لمعادن النفوس : –

« خَلَقَ الْمَوْتَ والْحَيَاةَ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً » . (الملك – ٢)

وحتى لا تكون لأحد أعذار فى أفعاله فيقول لحظة الحساب فعلت كذا وكذا تحت تأثير العرف والتقاليد والبيئة والمجتمع والتربية . .إلخ . . إلخ . . حسم الله الموضوع فقال فى القرآن :

« لاَ يُؤاخِذُكُمُ اللهُ باللَّغْوِ فى أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ » . (البقرة – ٢٢٥)

وفى آية ثانية :

« وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ به وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ » .

(الأحزاب – ٥)

وفى آية ثالثة يحدثنا عن الذين ارتدوا إلى الكفر بعد إيمانهم ويهددهم بأشد العذاب ثم يستثنى قائلاً :

« إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإيمَان » . (النحل – ١٠٦)

أى من كفر بلسانه تحت تأثير التعذيب وظل قلبه مؤمناً .

إن ما يدور فى القلب هو موضوع المحاسبة بالدرجة الأولى وليس ما يجرى على مسرح الفعل .

« يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِر » . (الطارق – ٩)

إن السريرة هى محل الابتلاء ومحل المحاسبة .

والسريرة هى السر المتجاوز للظروف والمجتمع والبيئة والتربية كما أسلفنا فى شرحنا المسهب . . فهى المبادرة المطلقة . . والابتداء المطلق الذى أعتقه الله من كل القيود .

إنها روحك ذاتها وهى الكاشفة عن حقيقتك بمثل ما تكشف بصمة إصبعك عن فرديتك .

وروحك فيها من حرية الله لأنها نفحة منه :

« فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِين » .

(الحجر – ٢٩)

ولأن فيك ذلك القبس من الله ولأنه كرمك بحرية الإرادة فأنت محاسب على هذه الحرية ، وهذا منتهى العطاء الإلهى ومنتهى العدل أيضاً .

ومن هنا يأتي المزج بين الروح وبين الله فى آيات عميقة الدلالة :

« وَمَا رَمَيْتَ إذ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى » . (الأنفال – ١٧)

يأتيك النصر بيدك وبيد الله فى ذات الوقت فتكون يدك لحظة الانتصار هى يد الله ورميتك رميته ومشيئتك مشيئته .

ومن هنا قد يعترض معترض فيقول :

فلماذا لا تكون النية هى الأخرى مقدرة ؟

والجواب على ذلك يأتي من صميم القرآن :

« فى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً » . (البقرة – ١٠)

« كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَاب » . (غافر – ٣٤)

« والَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى » . (محمد – ١٧)

« فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ » . (الصف — ٥)

« سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ » .

(الأعراف — ١٤٦)

ومن هذا يتبين أن الله يترك المبادرة بالنية دائماً لك ثم بعد ذلك يأتي قضاؤه فيزيدك مرضاً إذا أضمرت المرض فى قلبك ويهديك إذا بادرت فى سريرتك بميل إلى هدى . . ويصرفك عن الهدى إذا أضمرت الكبر .

إن منطقة الضمير متروكة دائماً لك لتبادر بما تشاء . . وبعد ذلك ينزل عليك القضاء ويحق عليك القول .

والله لا يمكن أن يفرض عليك نية بالسوء أو بالظلم :

« إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ، أَتَقُولُون عَلَى اللهِ ما لاَ تَعْلَمُون » .

(الأعراف — ٢٨)

وهذا يدل على أن قانون الخلق الأول هو أن تكون الروح محراباً وقدس أقداس لا يدخلها قهر . . ولا يكرهها الله على شيء لا هو ولا جنده ولا أنبياؤه ولا أولياؤه .

إنها « السر الأعظم » الذى لا يعلم به إلا الله يوم تبلى السرائر .

وفى هذا يقول حديث نبوى شريف عن أبي بكر :

« لا يفضلكم أبو بكر بصلاة ولا بصيام ولكن بسر وقر فى قلبه » .

ويقول الله فى قرآنه :

« وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُم كفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ » . (البقرة — ١٠٩)

لم يخلق الله الحسد فى قلوبهم ولم يودعه ضمائرهم ، ولكنهم يحسدونكم

اختياراً من عند أنفسهم . . والعبارة هنا صريحة (من عند أنفسهم) . . وهى تنفى التدخل الإلهى وتقطع بوجود هذه المنطقة الداخلية التى تركها الله حرة .

ويقول الله تعالى مخاطباً الشيطان :

« إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِين » .

(الحجر - ٤٢)

إن الشيطان لا يستطيع أن يدخل قلبك إلا إذا فتحت له الباب اختياراً وكنت من الغاوين ، ولكنه لا يستطيع أن يقتحم عليك قلبك جبراً وقسراً .

إن الله قد كفل لهذا القلب الحماية ولم يجعل لأحد من جند الشر أو الخير سلطاناً قاهراً عليه إلا إذا أراد صاحب هذا القلب اختياراً أن يستضيف ويدعو ويحتضن دواعى الشر أو دواعى الخير فحينئذ يكون له ما أراد .

نحن أمام قدس أقداس بالفعل . . وحرم محرم تقوم عليه الأسوار ولا يدخله حتم ولا جبر ولا إكراه .

وما يحدث لنا من إكراه بالفعل فى عالم الواقع لا يمكن أن يصل إلى داخل ضمائرنا .

يمكنك أن تجبرنى بالقوة على أن أرفع يدى أوأقف مرغماً أو أهتف باسمك ، ولكن لا يمكنك أبداً أن تجبرنى على أن أحبك .

ولهذا لا تعطينا الأديان رخصة لنقول يوم الحساب إن فلاناً أغرانى أو فلاناً أجبرنى ، أو فلاناً أكرهنى أملاً فى أن يلقى الواحد ذنبه على الآخر ، فقد جعل الله من أعماق الضمير والسريرة منطقة حراماً لا يستطيع أن يدخلها جبار بجبروته .

يمكنك أن تكره خادمك على فعل . ولكنك لا تستطيع أن تكرهه على أن يضمر شيئاً فى سريرة قلبه .

والقرآن يعتبرك حرًّا مسئولاً مهما أحاطت بك ظروف الاستبداد فيقول إشارة إلى أمثال هذه الظروف :

« أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا » . (النساء — ٩٧)

لا أعذار .

حينما تقضى اللحظة أن تختار فأنت تختار نفسك بالفعل .

« إِنَّا هَدَيْـنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً » . (الإنسان — ٣)

وفى لفظ « إمَّا » يبدو عنصر الاختبار واضحاً محدداً .

« وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَـأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا » .

أى فتح أمامها سبيل الخير والشر وتركها أمام الطريقين لتختار . . ولهذا قال فجورها وتقواها ، ولم يقل أو تقواها لأنه فتح الطريقين معاً ليجعل للنفس الاختيار ولم يجبرها على أحد الطريقين . . ولذلك أردف موضحاً : « قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا » ، فرد الفلاح والخيبة للنفس المخيرة ، وفى آية أخرى يوضح الأمر أكثر فيقول :

« وَهَدَيْـنَاهُ النَّجْدَيْن » . (البلد — ١٠)

أى هديناه مفترق طريقين يختار أيهما .

إن النية حرة .

والسريرة حرة فى إضمارها لما تشاء .

أما الفعل فهو حر ومقدور فى ذات الوقت .

وكل واحد منا له نصيبه من حرية الفعل . . والذى يقول بالجبرية سوف

يقع فى مأزق حينما نسأله كيف يميز بين يده يحركها فى حرية ويكتب بها ما يشاء . . وبين يده وهى أسيرة ترتعش قهراً فى رجفة الحمى . . هنا أمامنا حالتان واضحتان ، حرية فى حالة الصحة ، وجبرية فى حالة المرض ، ولو كانت الجبرية التى يقول بها صحيحة لما أمكن أن يميز بداهة بين الحالين . . ولما أمكن أن تقوم الحالتان أصلا .

إن حرية الفعل إذن حقيقة . . والقدر أيضاً حقيقة .

والمشكلة هى أن نحاول أن نفهم هذا الازدواج وكيف لا يلغى الواحد منه الآخر . . كيف لا يلغى القدر الحرية . . وكيف لا تلغى الحرية القدر .

وهذا أمر نستشفه من الآيات استشفافاً . . فهى تلمح ولا تصرح حتى لا تلقى بالناس فى بلبلة .

يقول الله فى كتابه :

« إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ » .

(الشعراء — ٤)

لو شاء لفعل ولكنه لم يفعل . . لأنه لم يشأ أن يقهرنا على إيمان فتنتفى بذلك حرية الاختيار التى جعل منها جوهر وجودنا . . فقد أراد لنا أن نكون أحراراً نؤمن أو نكفر .

ولم يجعل الله إبليس إبليساً .

وإنما إبليس اختار لنفسه الكبرياء والجبروت والتعاظم حينما رفض أن يكون فى خدمة آدم مثل بقية الملائكة وقال :

« أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » . (ص — ٧٦)

اختار إبليس لنفسه الغرور بغير علم ولا حق . فاختاره الله ليغرر بالناس

وقضى عليه قضاء من جنس ضميره .

وبالمثل أبصر النقاء والطهر فى قلب محمد فاختاره نبياً للهداية :

« وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » . (العنكبوت — ٦٩)

ولهذا السبب أيضاً . لعدم القهر والجبر . أخفى الله نفسه فى الإنجيل ، وأخفى نفسه فى القرآن لأنه لم يرد أن يلجمنا بالتجلى القاطع الفاصل فيقهرنا على الإيمان قهراً . فجعل من التوراة والإنجيل والقرآن كتباً يمكن أن نؤمن بها ويمكن أن نشك فيها . وقال عن قرآنه :

« يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً » . (البقرة — ٢٦)

. وضمَّن آياته البراهين ولكنه لم يجعلها أبداً براهين ملزمة تأخذ بالخناق وتقهر العقل . . وإنما تركك دائماً لترجح شيئاً على شىء حرصاً منه على حريتك . . ولتقول ما تريد دون مؤثرات كابحة . . فتفصح عن دخيلتك وسريرتك ويحق عليك القول .

لقد أرادك أن تكون من أحد الأوجه خليفة صغيراً له على الأرض تحكم وتقضى فى شئونك وشئون الآخرين . . ليمتحنك ويختبرك .

وفى آية نموذجية يشرح القرآن ما بين القدر الإلهى والحرية الفردية من تلاق ، ويرفع ما بينهما من تناقض . . حينما يروى ما حدث من تكاسل المنافقين عن نصرة الرسول وعدم الخروج معه فى غزواته :

« وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ . لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ » . . .

(التوبة — ٤٦ ، ٤٧)

ها هنا منافقون بالقلب لا يريدون بالنية أن ينصروا نبيهم فيقضى عليهم الله بمثل نيتهم فلا يريد لهم كما لم يريدوا لأنفسهم ويثبطهم ويكره لهم الخروج كما كرهوه لأنفسهم .

ويبدو هذا التماثل بين قدر الله وسريرة الإنسان فى آية أخرى أكثر صراحة الآية ٧٠ من الأنفال التى تخاطب النبى « يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِى أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مما أُخِذَ مِنْكُمْ . . » هنا يبدو الفعل الإلهى (القدر) دائماً من جنس النية التى هى عين الاختيار .

ويبدو كيف تماثل أمر الله واختيار الإنسان وانتفى التناقض . . فلم يكن التناقض إلا فى وهمنا نتيجة عدم الفهم .

وأصبح من السهل علينا أن نفهم آيتين متناقضتين فى الظاهر مثل :

« فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ » . (الكهف – ٢٩)

« وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ » (الإنسان – ٣٠)

ففى الآية الأولى يصف الله إرادة الإنسان الحرة .

وفى الآية الثانية يتكلم عن إرادته الإلهية وهى القدر .

وما بين الاثنين من تناقض هو تناقض فى الظاهر فقط . . فقد فهمنا أن الله لا يريد للإنسان إلاَّ ما يريد الإنسان لنفسه :

« ومن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَه الهُدَى ويَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى ونُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً » .

من يختار طريق السوء ويرى الله فى نيته الإصرار فإنه لا يكرهه على الخير وإنما يختار له ما اختار لنفسه ويمد له فى غيه ويمهد له أسباب الشر تمهيداً

حتى يخرج ما يكتمه ويتلبس بفعله ويحق عليه العذاب :

« نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى ونُصْلِهِ جَهَنَّمَ وساءَتْ مَصِيراً » هنا الجبر هو عين الاختيار ولا تناقض لأن إرادة الله هي إرادة العبد .

انتفت الثنائية

« إنَّ اللهَ لا يُغيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ » .

(الرعد — ١١)

الله لا يغير ما يريده بإنسان حتى يغير ما يريده بنفسه . . التطابق هنا واضح .

الاثنين . . الحرية والقدر . . ينفذ القضاء ويتم الفعل بإرادة الله ومشيئته وفي الوقت نفسه باختيار الإنسان وحريته بلا تناقض « قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ الله » .

فأنت تشاء ولكن قدرتك على أن تشاء وتختار هي منحة من الله ومشيئة عليا . . حريتك ذاتها منحة وعطية ومشيئة إلهية . . ومن هنا كانت الآية . .

« وما تشاءون إلا أن يشاء الله » . . هي تقرير للحقيقة . . وليست كلاماً متناقضاً . .

فهي تقرر أنك حر ولكن حريتك منحة وعطية وهبة ومشيئة من المعطى .

« وَاللهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ » (٧٢ — البقرة)

الله يخرج ما فى النية ويفضح مكتوم السرائر ليسجل على كل واحد نيته كما هي دون جبر أو إكراه . . إنه يفضحها فقط ويخرجها على حالها ليكون كل واحد (طائره فى عنقه) .

ثم تأتي الآية القرآنية الحاسمة فتختم الموضوع :

« وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُون »

(الأنفال — ٢٤)

ومعنى هذا أن الله يدع القلب حرًّا فتكون لكل إنسان سريرة هو حر فيها . ولكنه يقيم سلطانه بين المرء وقلبه .

فهو يحول بين المرء وقلبه بالتمكين أو الإحباط لطفاً منه ورحمة ليقى أحباءه السيئات . . وليقدم التيسيرات لكل حسب ضميره ونيته ومبادراته . . إما لليسرى وإما للعسرى .

« إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِى الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدور . . وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمورُ » .

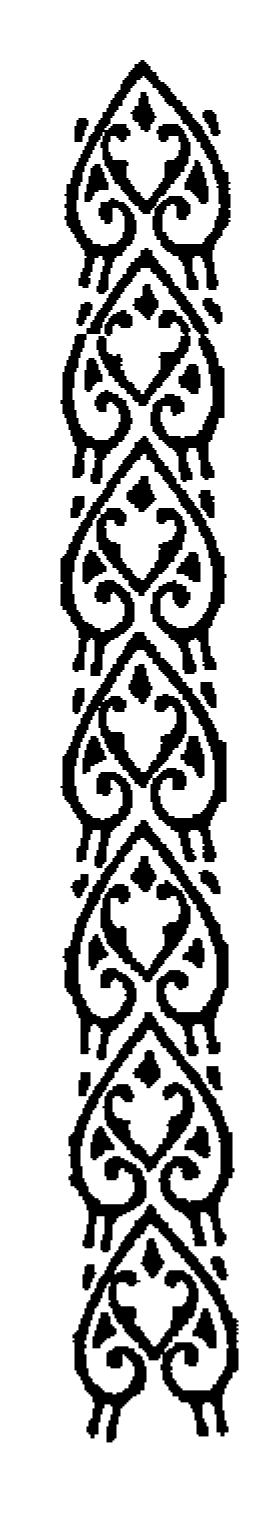
هنا مثل آخر بليغ للتدخل الإلهى اللطيف الخفى بين المرء وبين قلبه . . فالله يريد أن يحث المسلمين على القتال فى بدر وهم قلة (ثلثمائة يواجهون ألفاً مدججين بالسلاح والدروع) يريد أن يدفع المسلمين إلى المعركة دون جبر ودون إكراه حتى يكون الاختيار اختيارهم . . فيسوق إلى الرسول فى منامه رؤيا يظهر فيها الأعداء قلة قليلة لا يؤبه لها . . وساعة المعركة يجعل كثرة المشركين تبدو للمسلمين قلة ليهون من شأنهم . . كما يهون من شأن المسلمين فى أعينهم . . وبذلك يستدرج الكل إلى معركة ليقضى أمراً كان فى علمه مفعولاً .

وهذا هو التيسير الذى يسوق به الأسباب دون أن يخل بناموس الحرية الذى قضى به لكل إنسان فى سريرته . . فالله خلق كلا منا حرًّا فى قلبه وسريرته وهو عن هذه الحرية مسئول .

بهذه الكلمات التى تضىء كالومض الخفى يعطى القرآن المفتاح لأكبر المشكلات استعصاء فى الفلسفة . . مشكلة الجبر والاختيار .

قصّـة الخَـلق





مبدأ الخليقة وكيف كان . . وميلاد الأرض والقمر والشمس والنجوم ، وكيف حدث . . وكيف خطا على الأرض أول إنسان ومن أين جاء . .

كل هذه أمور خاضت فيها العلوم وكانت لها فى شأنها نظريات وشواهد وبراهين .

علوم البيولوجيا والإنثروبولوجيا والفلك والكيمياء العضوية والجيولوجيا والتطور الذى أصبح الآن علماً قائماً بذاته . . وعلم الأجنة . . وعلم التشريح. مجلدات ومجلدات . .

وكلام كثير لا يمكن أن نكون بمعزل عنه ونحن نقرأ ما يقوله القرآن عن قصة الخلق . . فما قام الدين أبداً منعزلاً عن الحياة ولا قام ليعادى العلم بل إنه قام ليقدم لنا منتهى العلم . . وليقودنا إلى اليقين فى مقابل الشك والاحتمال والترجيح . . جاء ليقول كلمة أخيرة . . فلا يمكن أن نخوض فيه دون أن

نخوض فى كل شيء . . ودون أن نثير القضية كاملة برمتها علماً وديناً وفلسفة وسياسة .

وهذا يردني إلى كتابين كتبتهما وقدمت فيهما الإشكال جملة وتفصيلاً هما . . لغز الموت . . ولغز الحياة ، ولا يمكن أن أعود فأكرر ما قلته فيهما . . ولذا سأكتفى بسطور أعود فأثيرها حتى لا يضيع منا السياق وحتى أربط معى القارئ فى الفكرة الكلية .

أعود إلى الحياة . . وإلى مبدئها وألتقط داروين . . أبا التطور ليروى لنا رؤيته عن مسيرة الحياة ، وهى الرؤية التى غيرت فكر الدنيا .

* * *

فى رحلة حول العالم فى الباخرة « بيجل » مضى داروين يجمع العينات من البر والبحر ومن تحت الماء ومن فوق الماء ويدرس ويتأمل ويدون ويجمع ملاحظاته عن الأحياء فى كافة أرجاء الأرض .

ولاحظ داروين عدة ملاحظات :

– إن الحياة تتلون وتتكيف وتغير من تكوينها لتتلاءم مع بيئتها على الدوام .

– الإنسان فى المناطق القطبية ، سمين مكتنز بالدهن تماماً مثل الحوت ليقى نفسه غائلة البرد . . والدببة مغطاة بالمثل بمعاطف من الفراء . بينما هو فى المناطق الاستوائية الحارة نحيل هزيل أسود ، وكأنما اخترع لجلده مظلة لتقيه الشمس .

– سحالى الكهوف التى تعيش فى الظلام لا وظيفة عندها للبصر ،

ولا للألوان . . ولهذا فهى عمياء وبلا لون . . أما سحالى البرارى فحادة البصر وملونة .

— أفواه الحيوانات اختلفت وتباينت حسب وظائفها : فم مزود بأسنان خنجرية تقطع وتمزق مثل النمر ، وفم مزود بمنقار يلتقط مثل الطير ، وفم مزود بخطاف يتشبث كما فى دودة الأنكلستوما التى تمسك بجدار الأمعاء . . وفم مزود بخرطوم يمص كما فى الذبابة . . وفم مزود بإبرة تحقن كما فى البعوضة . . وفم مزود بمناشير وطواحين تطحن وتقرض كما فى الحشرات القارضة .

هل الحكاية أن الحيوانات أصلها واحد . . ثم تطور هذا الأصل وتباين واختلف إلى هذه الفصائل المتباينة بسبب تباين الظروف والبيئات . . الحيوانات التى دبت على الأرض طورت لنفسها أرجلاً . . والتى نزلت إلى البحر تحورت فيها الأرجل إلى زعانف ، والتى طارت فى الجو تحورت فيها الأطراف إلى أجنحة .

إذا كان هذا الاستنتاج صحيحاً ، فلا بد أن يكشف لنا تشابهاً فى بنية الجميع .

وهذا هو ما قاله المشرط بالفعل .

فى الثعبان الذى بلا أرجل يكشف التشريح عن أرجل ضامرة مختفية فى هيكله العظمى .

والطيور التى تبدو وكأن لها زوجاً واحداً من الأطراف يكشف التشريح أن أجنحتها هى الزوج الثانى من الأطراف تحور ليلائم وظيفته الجديدة .

الأسماك التى تدب على الأرض وتتنفس برئات يكشف التشريح عن أن

رئاتها هى نفس كيس العوم تحور ليلائم وظيفة التنفس الجديدة .

زعانف السمك الأربع هى نفس الأطراف الأربعة متحورة إلى ما يشبه المجاذيف .

عدد أصابع اليد والقدم فينا خمس وفى القرود خمس وفى الفئران خمس وفى السحالى خمس ، حتى الوطاويط لها خمس أصابع ضامرة .

القلب والدورة الدموية تسير على خطة واحدة فى الحوت كما فى الفأر ، كما فى القرد ، كما فى الإنسان ، كما فى الوطواط . نفس الشرايين لها نظائرها فى كل نوع ، والقلب هو دائماً نفس القلب بغرفه الأربع .

والجهاز العصبي الذى يتألف من مخ وحبل شوكى وأعصاب حس ، وأعصاب حركة ، هو نفس الجهاز العصبي فى الكل .

والجهاز العضلى بعضلاته والهيكل العظمى بعظامه عظمة عظمة . . كل عظمة لها نظيرها مع اختلافات طفيفة فى الشكل لتلائم الوظيفة فى كل حيوان .

والجهاز التناسلى نفس الخصية والمبيض وقنوات الخصية والمبيض والرحم فى كل حيوان .

وفترة الحمل عندنا تسعة أشهر ، وفى القرود العليا تسعة أشهر وفى الحيتان تسعة أشهر . . حتى فترة الرضاعة فى الجميع سنتان .

ثم خبطة أخرى : يكشف التشريح فى الهيكل العظمى للإنسان نفس فقرات الذيل التى فى القرود ، وقد تدامجت والتحمت لانعدام وظائفها . . حتى عضلات الذيل قد تحورت إلى قاع متين للحوض .

وفقرات الرقبة فى الإنسان عددها سبع وفى الزرافة برغم طول رقبتها أيضاً سبع وفى القنفذ سبع .

وخبطة ثالثة : يمر الجنين فى رحم أمه وهو يتخلق على مراحل . . فى مرحلة يكون أشبه بسمكة وتكون له خياشيم . . وفى مرحلة أخرى ينمو له ذيل ثم يضمر . . وفى مرحلة ثالثة يتغطى بالشعر تماماً كالقرود ثم يبدأ الشعر ينحسر عن جسمه تاركاً مساحة صغيرة عند الرأس .

لقد فضح الجنين القصة . . وكشف لنا مبدأ الخليقة ومراحل تطورها .

والمشرط وهو يعبث خلف الأذن البشرية يكتشف شيئاً آخر . فها هى ذى نفس عضلات الأذن التى كانت تحرك آذان الحمير وقد تليفت وضمرت حينما لم تعد لها وظيفة وحينما اتخذت آذاننا أشكالاً تغنيها عن الحركة .

ثم ها هى ذى الحفريات تكشف عن جماجم بشرية ذات شكل قردى فى الترنسفال وبكين وجاوة ونياندرتال ، وبعض هذه الجماجم وجدت فى كهوف عثر بها على بقايا خشب متفحم فى مواقد تدل على أن أصحاب هذه الجماجم قد اكتشفوا النار واستخدموها منذ ملايين السنين .

لم يبق إلا أن يكتب داروين نظريته فى أصل الأنواع .

بل إن النظرية لتكتب نفسها فتقول إن الأنواع انحدرت كلها من أصل واحد تباين واختلف إلى شجرة من الفصائل والأنواع نتيجة تباين الظروف والبيئات .

ولم يقل داروين إن الإنسان انحدر من القرد ولم يقل إن الجنس البشرى من سلالة شمبانزى أو نسناس وإنما هى نكتة روجتها الصحف وانتشرت كنوع من الكاريكاتير الخفيف الدم للداروينية .

ولكن النظرية فى أصلها المكتوب لا تقول بان أيًّا من الأجناس الموجودة خرج من الآخر . . وإنما كل جنس هو بذاته نهاية فرع مستقل من الشجرة . . لم يخرج فرع من فرع (لم يخرج فرع الإنسان من فرع القرد) وإنما خرج كل منهما على حدة من الشجرة الأم وهما يرتدان فى الأصول إلى منبع واحد هو الخلية الأولى التى تنوعت بها البيئات فتفرعت شجرتها إلى ما نرى حولنا من تصانيف . . ولكن لم يخرج صنف من صنف . . فكل صنف هو ذروة نوعه وهو مستقل بتكوينه لا يلد إلا مثله .

ووقف داروين أمام ظاهرة الترقى مفكراً متأملاً .

إن كلامه عن التكيف والتلاؤم بين المخلوق وبيئته لا يفسر إلا التباين الخلقى والوظيفى بين المخلوقات ولكنه لا يفسر ارتقاءها من الأدنى إلى الأعلى .

وابتكر داروين لنفسه تفسيراً . . فقال إن الترقى حدث بحوافز داخلية مادية بحتة وبدون يد هادية من خارج .

مجرد صراع البقاء كان الغربال .

كان التزاوج يلقى بتصانيف وتواليف . التواليف التى خرجت إلى الحياة بأرجل مبططة كانت أصلح للعوم واستطاعت أن تستمر فى الحياة المائية ، والحيوانات المائية الأخرى التى حافظت على التصنيف القديم للأرجل البرية ماتت .

وهكذا عاش الأصلح ومات الأقل صلاحية . . وحدث الترقى الذى نراه تلقائيًّا بمجرد الحوافز الحياتية المادية .

وقامت الزوبعة على داروين .

ومضت سنون وسنون من التمحيص وإعادة النظر . . وعاش من نظرية

داروين بعضها ومات بعضها .

حكاية أن الأنواع انحدرت من أصل واحد وأنها تباينت إلى شجرة من الفصائل والأنواع نتيجة تباين الظروف والبيئات كانت احتمالاً مرجحاً أقرب إلى الصحة تقوم عليه الشواهد . فالوشيجة العائلية تربط كل الخلائق بالفعل . . والتشريح يقول إنها ترتبط بعضها ببعض بصلة رحم وقربى .

أما حكاية أن الترقى حدث بالحوافز الحياتية وحدها وبدون يد هادية فلم تعد مقنعة . . وسقطت من غربال الفكر المدقق المحقق .

فلماذا يخرج من شجرة الحمار شيء كالحصان مع أن الحمار أكثر جلداً واحتمالاً . . وبأى حوافز يتطور من عائلة الوعل شيء كالغزال وهو أرهف وأضعف وأقل جلداً من الوعل . . وبالمثل الفراش الملون الرقيق أبطأ وأضعف وأقل قدرة من الزنبور الطنان الغليظ الشكل . . والحمام واليمام والطواويس والعصافير الملونة أكثر رهافة وتهافتاً من الصقور والحدادى والنسور .

ونشوء هذه الأنواع لا يمكن أن يفسره قانون بقاء الأصلح وإنما قانون آخر هو بقاء الأجمل .

أجمل فى عين من ؟

يقول المعلق الخبيث . . أجمل فى عين بعضها بعضاً . . الذكر فيها يختار الأنثى الأجمل . . إنه انتقاء جنسى . إننا ما زلنا أمام الحوافز الحياتية المادية .

وهو قول مردود عليه .

فلماذا يختار الذكر الأنثى الأجمل ؟ إن القضية ما زالت تطرح

نفسها . . إن الجناح المنقوش ليس أصلح للطيران من الجناح الساده . . لا توجد مصلحة حياتية هنا . . وإنما هنا قيمة جمالية عليا تفرض نفسها على جميع الحوافز . . هنا عقل الفنان المبدع الذى يجمل مخلوقاته . . نلمس آثاره فى ورق الشجر وألوان الزهر وأجنحة الفراش وريش الطواويس .

كما نقف مذهولين أمام بعض الأشجار الصحراوية إذ نجد أن الطبيعة خصتها ببذور مجنحة لتطير محلقة تقطع أميال الصحارى الجرد لتجد فرصها القليلة فى الماء . . أو نتأمل بيض البعوض فنكتشف أنه يملك أكياساً هوائية للطفو ، ليعوم فى الماء ولا يغرق . كل هذا لا يفسره إلا عقل كلى يفكر ويهندس لمخلوقاته فلا أشجار الصحارى تعقل لتزود بذورها بأجنحة ولا البعوض يعرف قوانين أرشميدس فى الطفو ليزود بيضه بوسيلة للعوم .

هذه أمور تعجز أمامها نظرية داروين تماماً ولا يفسرها إلا عقل كلى شامل يهندس الوجود ويصممه وينشئه إنشاء .

ولنشرح هذا الكلام أكثر سوف نتصور حكاية خيالية افتراضية . . سوف نتصور أننا نعاني نقصاً خاصاً فى حاسة البصر . وهو نقص يجعلنا نرى الآلات المختلفة دون أن نرى صانعها . . وهكذا سوف نرى عربة اليد وعربة الكارو والعربة الحنطور والسيارة والقطار والديزل دون أن نرى الإنسان . . وسوف نقول إن هذه أشياء تطورت بعضها من بعض على سلسلة من المراحل . وسوف ندلل على ذلك بما بينها من تشابه تشريحى . فكل هذه الكائنات تتشابه فى أنها من مادة الحديد والخشب والجلد وتتركب من جسم وعجلات . . وبين السيارة والديزل والقطار سوف نرى أن هناك موتوراً يتألف من سلندر وبستم ، مرة يشتغل بالبنزين ومرة بالبخار ومرة بزيت البترول .

ولأننا لا نرى الصانع الذى صنعها جميعاً فسنقول إنها تطورت بعوامل داخلية فيها . . نتيجة صراعها مع البيئة وبقاء الأصلح بعد معارك البقاء الطويلة .

وسوف ننكر العامل الخارجى لأننا لا نراه .

فنحن نرى أنها تتحرك بمحرك داخلى فيها .

وهذا هو الخطأ الذى وقع فيه داروين فى نظريته عن النشوء والارتقاء حينما قال إن عوامل التطور هى عوامل داخلية وإن الحياة تتقدم بحوافز باطنية دون يد هادية ترشدها . . تتقدم بفعل الآليات المادية داخلها . . لمجرد أنه لا يرى يد الصانع الخالق المبدع وهى تبدع وتخلق .

نحن إذن أمام نظرية اكتشفت الوشائج العائلية بين أسرة الأحياء من نبات وحيوان وإنسان ، ولكنها لم تستطع أن تفسر لنا كيف حدث الترقى بينها .

فإذا انتقلنا إلى كلام العلم عن مبدإ الحياة . . فنحن أمام إجماع بأن الحياة بدأت من الماء . . من ماء المستنقعات الذى تختمر فيه المادة وتتحلل وتتركب بقوة غير معروفة إلى الشكل الأول للحياة . . البروتوبلازم . . لا أحد يعرف كيف نشأ من الماء والتراب .

فإذا جئنا إلى مبدأ الكون كله . . بنجومه وشموسه وكواكبه فنحن أمام إجماع من علماء الفلك بأن كل شىء نشأ من الهواء من سحب الغاز والتراب الأولية .

تكاثفت هذه السحب من الغاز والتراب بفعل الجاذبية بين ذراتها إلى أنوية فى الوسط هى الشموس وإلى تكثفات أصغر حولها هى الكواكب .

هذا مبلغنا من العلم فى قضية الخلق فى عرض سريع موجز .

فماذا قال القرآن حينما تعرض لهذه القضية منذ ١٤ قرناً من الزمان ؟ . وماذا جاء على لسان ذلك النبي الأمي الذى لم يكن يعرف لا هو ولا قومه ولا عصره معنى كلمة بيولوجيا وجيولوجيا وكيمياء عضوية وعلم أجنة وتشريح وأنثر و بولوجيا ؟

* * *

القرآن له أسلوبه المختلف عن كل الأساليب . . وهو حينما يشير إلى مسألة علمية لا يعرضها كما يعرضها أينشتين بالمعادلات . ولا كما يعرضها عالم بيولوجى برواية التفاصيل التشريحية . . وإنما يقدمها بالإشارة والرمز والمجاز والاستعارة واللمحة الخاطفة والعبارة التى تومض فى العقل كبرق خاطف ، إنه يلقى بكلمة قد يفوت فهمها وتفسيرها على معاصريها . . ولكنه يعلم أن التاريخ والمستقبل سوف يشرح هذه الكلمة ويثبتها تفصيلاً .

« سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فى الآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » .

(فصلت — ٥٣)

والله يقول عن كلامه :

« وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ » . (آل عمران — ٧)

ويقول عن القرآن :

« ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَه » . (القيامة — ١٩)

أى إنه سوف يشرحه ويبينه فى مستقبل الأعصر والدهور .

فماذا قال القرآن عن قصة الخلق ؟

إنه يقول عن الله فى البدء الأول :

« ثُمَّ اسْتَوَى إِلى السَّماءِ وَهِى دُخَان » . (فصلت — ١١)

فى البدء كان شيء كالدخان جاء منه الكون بنجومه وشموسه :

« يُكَوِّرُ اللَّيْلَ على النَّهارِ ويُكَوِّرُ النَّهارَ عَلى اللَّيْلِ » .

(الزمر — ٥)

وهى آية لا يمكن تفسيرها إلا أن نتصور أن الأرض كروية والليل والنهار كنصفى الكرة ينزلق الواحد منهما على الآخر بفعل دوران هذه الكرة المستمر .. بل إن استعمال لفظ « يكور » هو استعمال غريب تماماً . . ويفرض علينا هذا التفسير فرضاً :

« وَالْقَمَرَ قَدَّرنَاهُ مَنَازِلَ حتى عَادَ كالْعُرْجُونِ الْقَديم » . (يس — ٣٩)

والعرجون هو فرع النخل القديم اليابس لا خضرة فيه ولا ساء ولا حياة وهو تشبيه حرفى للقمر الذى لا خضرة فيه ولا ماء ولا حياة .

« لا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لها أنْ تُدْرِكَ القَمَرَ ولا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وكُلٌّ فى فَلكٍ يَسْبَحُونَ » . (يس — ٤٠)

بل إنه يصف الفضاء بأن فيه طرقاً ومجارى ومسارات .

« وَالسَّماءِ ذَاتِ الْحُبُك » والحبك هى المسارات . (الذاريات — ٧)

ويصف الأرض بأنها كالبيضة :

« والأرْضَ بعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا » . (النازعات — ٣٠)

ودحاها أى جعلها كالدحية (البيضة) وهو ما يوافق أحدث الآراء الفلكية عن شكل الأرض .

ويقدم فكرة الحركة الخفية من وراء السكون الظاهر :

« وَتَرَى الجِبالَ تَحْسَبُها جَامِدَةً وَهِى تَمُرُّ مَرَّ السَّحَاب » .

(النمل — ٨٨)

وتشبيه الجبل بسحابة هو تشبيه يقترح على الذهن تكويناً ذريًا فضفاضاً مخلخلاً ، وهو ما عليه الجبل بالفعل ، فما الأشكال الجامدة إلا وهم ، وكل شيء يتألف من ذرات فى حالة حركة . . والأرض كلها بجبالها فى حالة حركة .

وما يقوله المفسرون القدامى من أن هذه الآية تصف ما يحدث يوم القيامة . . هو تفسير غير صحيح لأن يوم القيامة هو يوم اليقين والعيان القاطع ولا يقال فى مثل هذا اليوم « تَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا » . . فلا موجب لشك فى ذلك اليوم . . . :

« وَيَسْألُونَكَ عَنِ الجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً » . (طه – ١٠٥)

هذه هى القيامة بحق ، لا مجال هنا لأن تنظر العين فتحسب الشيء قائماً وهو ينسف . . فالآية إذن وصف لحال الجبال فى الدنيا ولا يمكن أن تكون غير ذلك .

ثم يروى لنا القرآن بعد ذلك ما يحدث لمياه الأمطار :

« أَلَمْ تَرَ أنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابيعَ فى الأَرْض » .

(الزمر – ٢١)

وهو بذلك يشرح دورة المياه الجوفية من السماء إلى سطح الأرض إلى جوفها إلى خزانات جوفية ثم إلى نافورات وينابيع تعود إلى سطح الأرض من جديد .

ثم يأتي ذكر الحياة .

« وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيءٍ حَيٍّ » . (الأنبياء – ٣٠)

« وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دابَّةٍ مِنْ مَاء » . (النور – ٤٥)

« أَكَفَرْتَ بالّذى خَلَقَكَ مِنْ تُراب » . (الكهف – ٣٧)

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حمإٍ مَسْنُونٍ » .
(الحجر – ٢٨)

والحمأ المسنون هو الطين المنتن المختمر .

فهو مرة يذكر أن الحياة خلقت من الماء ومرة يذكر أنها خلقت من تراب ثم يعود فيخصص ويقول من الطين أو على وجه الدقة الماء المنتن المختمر المختلط بالتراب . . وهو اتفاق غريب ودقيق مع اكتشافات العلم بعد ألف وأربعمائة سنة .

وفى سورة الأعراف يروى بتفصيل أكثر :

« وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ » . (الأعراف – ١١)

وفى هذه الآية يحدد أن خلق الإنسان تم على مراحل زمنية « خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدم » والزمن بالمعنى الإلهى طويل جداً . « وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سنَةٍ مِمَّا تَعُدُّون » . (الحج – ٤٧)

وفى مكان آخر : « تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوح إِلَيْهِ فى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » . (المعارج – ٤)

هذه إذن أيام الله . . وهى شىء كالآباد والأحقاب بالنسبة لنا ، فإذا قال الله خلقناكم ثم صورناكم . . ثم اكتملت الصورة بتخليق آدم فقلنا للملائكة اسجدوا لآدم . . معنى هذا أن آدم جاء عبر مراحل من التخليق والتصوير والتسوية استغرقت ملايين السنين بزماننا وأياماً بزمن الله الأبدى . .

« وقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً » . . ومعناها أنه كانت هناك قبل آدم صور وصنوف من الخلائق جاء هو ذروة لها .

« هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً » .
(الإنسان – ١)

إشارة إلى مرحلة بائدة من الدهر لم يكن الإنسان يساوى فيها شيئاً يذكر .

ويقول القرآن عن الله إنه هو « الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » ى إنه هدى مسيرة التطور حتى بلغت ذروتها فى آدم .

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم » .
(الأنعام – ٣٨)

« وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً » . (نوح – ١٧)

ربط وثيق بين أمة الإنسان وبين أمم الدواب والطير ثم ربط بين الإنسان والحيوان والنبات .

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ » .

وهى إشارة صريحة بأن الإنسان لم يخلق من الطين ابتداء . . . وإنما خلق من سلالات جاءت من الطين . . . هناك مرحلة متوسطة بين الإنسان والطين . . هى سلالات عديدة متلاحقة كانت تمهيداً لظهور نوع الإنسان المتفوق . . ثم يحدثنا القرآن عن تخلق الجنين فيحكى لنا أن خلق العظام سابق على خلق العضلات « فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً » .
(المؤمنون – ١٤)

ومعلوم فى علم الأجنة أن نشأة العمود الفقرى سابقة على نشأة العضلات وعن هذه النشأة يقول :

« يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُماتٍ ثَلاثٍ »
(الزمر – ٦)

يكشف لنا الخلق داخل الرحم ، فيصفه بأنه يتم على أطوار . . خلقاً من بعد خلق . . وأنه يجرى داخل ظلمات ثلاث . . والظلمات الثلاث ، هى ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة الغلاف الأمنيوسى . . كل غرفة منها داخل الأخرى . . والجنين فى قلبها ، وهى حقائق تشريحية . . أو هى ظلمات الأغشية الثلاثة التى يتألف منها الجنين ذاته وهى حقيقة أخرى .

« وأنّه خَلَقَ الزَّوْجينِ الذَّكَرَ والأُنْثَى . مِنْ نُطْفَةٍ إذا تُمْنَى » .

(النجم — ٤٥ ، ٤٦)

ونعرف الآن أن الحيوان المنوى الذى يمنى هو الذى يحدد جنس المولود إن كان ذكراً أو أنثى وليس البويضة فهو وحده الذى يحتوى على عوامل تحديد الجنس sex determination factor

كيف جاء القرآن بهذه الموافقات التى اتفقت مع نتائج العلوم والبحوث والجهود المضنية عبر مئات السنين ! . مصادفة ؟ !

وإذا سلمنا بمصادفة واحدة فكيف نسلم بالباقى ؟

وكيف يخطر على ذهن نبى أمى مشكلات وقضايا وحقائق لا يعرفها عصره . . ولا تظهر إلا بعد موته بأكثر من ألف وثلثمائة سنة ؟

وإذا أخذنا بالتفسير الغربي الملحد الذى يرى فى ذلك الكلام الذى يجىء على لسان محمد صورة من نشاط عقل باطن انفتح تماماً على الحقيقة المطلقة . . إذا قلنا هذا فقد اعترفنا اعترافاً مهذباً جداً وعلمياً بالوحى . . فما الحق المطلق سوى الله وما الانفتاح على الله والاتصال به إلا الوحى بعينه .

ولكن القصة لم تنته .

إن القرآن يزوّدنا بما هو أكثر من كل ما قاله العلم . . فيطلعنا على بعض

الغيب . . على ما حدث فى الملكوت فى الملأ الأعلى عند خلق آدم وكيف أسكنه جنته يأكل منها رغداً كيف يشاء إلا من شجرة واحدة عينها له . . . وكيف أسجد له الملائكة .

ويروى لنا القرآن كيف أن الملائكة سجدوا لآدم :

« إلاَّ إبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أمْرِ رَبِّهِ » .

(الكهف – ٥٠)

ويقول إبليس فى كبرياء وغرور مبرّراً عصيانه للأمر الإلهى بالسجود لآدم :

« أنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » .

(ص – ٧٦)

إنه لم يدرك حكمة الله فى تشريف ابن الطين . . ولكن الله وحده كان يعلم أن آدم سوف يتعذب نتيجة خلقته المتصارعة من التراب ومن الروح وأنه سوف يعاني عناء هائلاً ويتمزق بين رغبات جسده الهابطة وسبحات روحه وضميره المتعالية .

« لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسانَ فى كَبَد » . (البلد – ٤)

أى فى مكابدة مستمرة وصراع وعناء .

وإنه سيبلغ بهذه المكابدة إلى مرتبة أعلى من مرتبة الجن والملائكة، ويفوز بمواهب ولياقات أعلى من الاثنين .

ولهذا أسجد الله له الملائكة وسخّرهم لخدمته ومعونته .

ولكن إبليس فى كبريائه وغروره وتجبره فاتته هذه الحقيقة ولم يذكر

إلا أنه خلق من نار وأن آدم خلق من طين وأنه خلق قبل آدم .

« وَالجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ » . (الحجر – ٢٧)

ونار السموم هى النار الصافية بلا دخان أو من الطاقة الخالصة ذاتها . . وهكذا رفض إبليس السجود لآدم وخرج من الحضرة الربانية رجيماً مطروداً وبدلاً من أن يرجع إلى الله تائباً آملاً فى رحمته ومغفرته . . فإنه يئس تماماً من هذه الرحمة . . وهذه هى الخطيئة الثانية . . ثم أضمر الحقد والعداء والانتقام من آدم الذى تصوّر فيه سبباً لطرده وهذه هى الخطيئة الثالثة . . إنه الشيطان بعينه الذى يحاول أن يخرج من خطيئة بخطيئة وينحدر من هاوية إلى هاوية .

وهكذا راح يغرى آدم بالأكل من الشجرة ويزينها له ويصورها بأنها شجرة الخلود وهو يعلم أنها شجرة الموت .

« وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى » . (طه – ١٢١)

لقد منح الله آدم الحرية (إذ نفخ فيه من روحه) وخيّره فى أن يختار الدخول فى طاعته فيكون شأنه شأن النجوم فى أفلاكها تجرى على نواميس الله الموضوعة وتسلم نفسها لسننه أو يكون حرًّا مسئولاً فيحمل الأمانة .

« إنَّا عَرَضْنَا الأمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَهَا وَأشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنْسَانُ إنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً » .

(الأحزاب – ٧٢)

والإنسان لم يدرك مخاطر هذه الأمانة لجهله فظلم نفسه بحملها ، ولأن الله كان يعلم مخاطر حمل هذه الأمانة . . وكان يعلم أنها سوف تلقى الإنسان فى مهالك الغرور . . فإنه لطفاً منه ورحمة . . أمره بالطاعة وبالإسلام لكلمة

الله بألا يأكل من الشجرة لتدوم له الجنة (جنة الطاعة والإسلام للناموس الإلهى) .

ولكن الإنسان اختار أن يكون حرًّا مسئولاً وأن يخرج على الأمر الإلهى (بإغراء إبليس) فيأكل من الشجرة . . وهكذا وقع عليه التكليف وأصبح محاسباً منذ تلك اللحظة . . وحق عليه العقاب .

وكان العقاب هو الطرد والإهباط من الجنة إلى عالم الكدح والعرق .

وكان الفرق بين خطيئة آدم وخطيئة الشيطان . . أن آدم رجع إلى الله تائباً طامعاً فى رحمته وأصر الشيطان على العصيان يائساً من رحمة الله .

« فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْه » . (البقرة — ٣٧)

وأسبغ الله عليه رحمته ووعده بهداية نسله . . وأقامه خليفة على الأرض يحكم فيها بإرادته وعقله .

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فيها وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ » .

(البقرة — ٣٠)

يقول الملائكة ذلك الكلام لأنهم رأوا هذا الآدم وشاهدوا نشأته ومراحل تخليقه من أسلاف تسفك الدم وتتصارع بالمخلب والناب ولكن الله يقول لهم :

« إِنِّى أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ » . (البقرة — ٣٠)

وهو يعلم أن ذلك الإنسان قد استحق بهذه النشأة وهذه الجبلّة المتصارعة من الطين والروح درجة أرفع من درجة الملائكة . وأنه قد اكتسب لياقات تؤهله للخلافة . . وهو يكشف هذه الحقيقة للملائكة :

« وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بأَسْمَاء

هَؤُلاءِ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِين . قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الحَكِيم . قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَال أَلَمْ أَقُل لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ » . (البقرة – ٣١، ٣٢، ٣٣)

هاهو ذا آدم الأرضى وقد امتلك لياقات أكبر من لياقات الملائكة،ونفهم من هذا أن الله قد جعل من هذا الآدم أول أنبيائه على الأرض . . فكلمة « علّم آدم الأسماء كلها » هى بداية الوحى والتنزيل والتعليم الإلهى .

ومن حكاية تعليم الله الأسماء لآدم نتعرف على صفة أخرى فى العقل البشرى أنه معد ومؤهل لتعلم أسماء الأشياء فقط وليس ماهياتها وأن العلم البشرى هو علم بالحدود والمقادير والعلاقات الخارجية فقط ، وأنه لا يستطيع أن يدرك كنه شىء . . وهو أمر ثابت فى الفلسفة .

والله فى القرآن « رب » بمعنى مرب وزاع ومعلم وهاد رؤوف رحيم ودود يعنى بمخلوقاته ويخلق لها الحيل والأسباب ويوفر لها الأرزاق .

وقد وعد الله آدم بإرسال الأنبياء لهداية نسله وأولاده .

« فَإمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُون » . (البقرة – ٣٨)

ويشرح لنا القرآن معنى اتباع الإنسان لهدى الله . . وذلك بأن يفطن الإنسان إلى خطئه ويعود إلى الجنة التى ضيعها أبوه . . جنة الطاعة والإسلام للنواميس الإلهية . . وهذه هى الإنابة والرجعة التى تتكرر فى كل صفحة فى القرآن . . أن يفطن الإنسان إلى أنه لا يملك إلا ضميره (قدس الأقداس الذى تركه الله حرًّا بالفعل) فيسلمه خالصاً لله ويتجه به مختاراً طائعاً . . وقد وكل أمر نفسه إلى خالقه وخضع لنواميسه . . وبذلك يكون أفضل من

الجمادات ومن النجوم فى مداراتها التى تسلم نفسها لسنن الله وقوانينه قهراً وبلا اختيار . . على حين يسلم هو نفسه لربه محبة واختياراً وطواعية .

يفعل هذا وقد أدرك أن مشيئة الله واقعة إن طوعاً وإن كرهاً . . وأن الله هو الخالق المهيمن على جميع الأسباب وأنه هو الوحيد الذى يملك الهداية والعلم والقدرة .

وتعود فتطالعنا آيات أخرى غامضة فى القرآن نفهم منها أننا نحن : ذرية آدم كانت لنا حياة سابقة قبل حياتنا الأرضية .

« وإذْ أخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلى شَهِدْنَا أنْ تَقُولُوا يَوْم القِيَامَةِ إنَّا كُنَّا عَنْ هَذا غَافِلِينَ . أوْ تَقُولُوا إنَّمَا أشْرَكَ آبَاؤُنا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أفَتُهْلِكُنَا بما فَعَلَ المُبْطِلُونَ .وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » .

(الأعراف – ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤)

إن الله يفصل لنا فى هذه الآيات واقعة غريبة . . يفهم منها أننا كنا فى حضرة الله قبل النزول إلى الأرحام (فى عالم المثال والملكوت) ربما كأرواح لا أحد يدرى . . وأن الله أشهدنا على ربوبيته وأخذ منا ميثاقاً بهذا الشهود حتى لا نعود فنكفر ونبرر كفرنا بأننا كنا ضحية الآباء .

ونعود فنقرأ عن هذا الميثاق فى آيات أكثر غموضاً فى سورة آل عمران :

« وَإذْ أخَذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أأقْرَرْتُمْ وأخَذْتُمْ عَلى ذَلِكُمْ إصْرِى (عهدى) قَالُوا أقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِين » .

(آل عمران – ٨١)

ها هم أولاء الأنبياء مجموعون ليأخذ الله عليهم ميثاقاً غليظاً بأن يؤيد بعضهم بعضاً . . كيف كان ذلك . . وأين . . ومتى . .

هى آيات كواشف تشير إلى مرحلة روحية عشناها فى الملكوت قبل النزول إلى الأرحام . . وإلى أنه كان لنا ثمة وجود قبل الميلاد . . كما أن لنا وجوداً بعد الموت . .

وفى أسماء الله أنه « الخالق البارئ المصور » . . الخالق الذى خلقنا أرواحاً والبارئ الذى أعطانا رخصة الوجود كما يعطى الملك براءة الوسام لحامله . . والمصور الذى صور لنا القوالب المادية التى نزلنا بها فى الأرحام .

وفى حديث شريف يشير نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى هذا الوجود الروحى السابق للميلاد حينما يقول : « كنت نبياً وآدم يجدل فى طينته » .

ويقول الله فى القرآن لمحمد :

« قُلْ إنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَماتِي لِلهِ ربِّ العَالَمِينَ . لا شَرِيكَ لَهُ وبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِين » . (الأنعام – ١٦٢ ، ١٦٣)

وهى كلمات تعنى سبق الوجود المحمدى على جميع الأنبياء إذ يعتبر القرآن جميع الأنبياء مسلمين ومحمد أولهم .

وهى إشارات تدل على وجود روحى سابق على الميلاد كنا فيه فى عالم ملكوتى قبل أن ننزل إلى الأرحام .

* * *

فإذا عدنا إلى الشجرة . . لنسأل ما هى . . هل هى رمز . . أم حقيقة ؟ . . وجدنا أمامنا اختلافاً كثيراً .

يقول بعض المفسرين إنها شجرة المعرفة وإنها رمز . . وهو تفسير غير

مقبول . . فالله لم ينه الإنسان عن طلب المعرفة بل هو على العكس كان يحضه على طلب العلم .

« وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً » . (طه – ١١٤)

« قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ بَدأَ الخَلْق » .

(العنكبوت – ٢٠)

وبعضهم أخذها بحروفها بدون تأويل على أنها شجرة لها ثمر أشبه بما نرى حولنا من فواكه الدنيا . وبعضهم قال هى شجرة الحنطة أكل منها آدم فجرى عليه ما يجرى علينا من رغبة فى التبرز وقضاء الحاجة لطرد الفضلات ، وهكذا انكشفت له عورته وطفق يخصف على عورته من ورق الجنة كما جاء فى ظاهر الآية .

وأنا أرى أنها رمز للجنس والموت اللذين تلازما فى قصة البيولوجيا . حينما أخذت الكائنات الحية بطريقة التلاقح الجنسى لتتكاثر فكتبت على نفسها طارئ الموت . . ولم تكن الكائنات قبل ذلك تموت بل تتجدد وتعود إلى الشباب بالانقسام الذاتى .

كان التلاقح الجنسى هو الشجرة المحرمة التى أكلت منها الحياة فهوت من الخلود إلى العدم . . وبالمثل كان زواج آدم وحواء هو زواج اثنين من الخالدين فى الجنة . . وفى مثل هذا الزواج لم تكن توجد وظيفة للنكاح والتلاقح الجنسى فالخلود حقيقة قائمة ولا حاجة للنسل لاستمرار الحياة .

وكان الشيطان يعلم أن شجرة النسل هى إيذان ببدء الموت والطرد من جنة الخالدين فكذب على آدم وسوّل له أنها شجرة الخلود بعينها وأغراه بأن يخالط زوجه بالجسد .

ومما يدل على أن الشجرة رمز للجنس ما يروى القرآن عن آدم وحواء بعد تذوق الشجرة وكيف بدت لهما سوءاتهما (والسوءة هي العورة) وكيف طفقا يغطيانها بأوراق الشجر خجلا . . والخجل من الأعضاء التناسلية لا يأتى إلا بعد تذوق اللذة منها ولهذا لا يخجل الطفل من أعضائه التناسلية ولا يغطيها على حين يخجل البالغ حتى من ذكر اسمها . . ثم نرى القرآن يخاطبهما بعد تذوق الشجرة على أنهما جمع فيقول :

« اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ » . (الأعراف – ٢٤)

على حين كان الخطاب فى الآيات نفسها قبل الخطيئة إلى مثنى :

« فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هـٰذِهِ الشَّجَرَةَ » .

(الأعراف – ١٩)

ومعنى هذا أن الأكل من الشجرة أدى إلى التكاثر .

وما زالت اللذة الجنسية إلى الآن رمزاً للتهابط الدنيوى والبهيمية . . وما زالت مناط الإغراء والسقوط . . وليس الأكل .

ويقال إن شريعة الطهارة وقطع الغلفة الزائدة من العضو التناسلى كانت الكفارة التى قضى بها آدم على نفسه بعد الخطيئة كمحاولة للخصاء تقززاً مما فعل . . ثم أصبحت تقليداً دينياً من يومها .

ولا يوجد مانع من أن تكون الشجرة هى شجرة تؤكل بالفعل فتؤدى إلى إطلاق الهرمونات واشتعال الرغبة الجنسية ومن ثم تلقى بآدم إلى المخالطة الجنسية وتكون الآية مفسرة حرفياً ومجازياً .

ولا يمكن القطع فى هذه المسائل فالعلم لله وحده . . وقصة الخلق ما زالت

من أمور الغيب وهى محل نظر واجتهاد لا أكثر . . ونحن مأمورون بهذا الاجتهاد أمراً .

« قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ » . (العنكبوت – ٢٠)

« أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ » . (الغاشية – ١٧)

(أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » . (محمد – ٢٣)

هو واجب وتكليف . . أن ننظر إلى القرآن ونستخدم كل معارف العصر وعلومه المتاحة . . ونحاول أن نعرف كيف بدأ الخلق .

والذين لا يوافقوننا على القول بالتطور يسألون . . ماذا يكون معنى الإهباط من الجنة فى النظرة التفسيرية الجديدة . . ومعنى مشهد إسجاد الملائكة .

ونرد بأن الإهباط ورد فى القرآن بمعنى الانتقال من مكان إلى مكان دون مغادرة الأرض . . . فى مخاطبة الله لقوم إسرائيل « اهْبِطُوا مِصْراً فإِنَّ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ » .

وكذلك وردت الجنة بمعنى البستان والحديقة على الأرض :

« لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وشِمَال » .

(سبأ – ١٥)

« وفِى الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ » .

(الرعد – ٤)

ويكون المعنى المقصود من الإهباط إذن هو الإهباط المعنوى من مقام الرضا إلى مقام المعصية وأنه قد تحقق بانتقال آدم عن حياة سهلة فى بساتين يانعة وافرة الخصب والرزق إلى مكان جديب وهو على الأرض ما يزال ودونما إهباط من سماوات .

أما مشهد إسجاد الملائكة فقد حدث هو الآخر على الأرض من قبيل التسخير كما سخر الله الجن لسليمان على الأرض . . . أو من قبيل الكشف والاطلاع على الملكوت كما أطلع نبيه محمداً على الملكوت والمعراج . . وهى معجزات يختص بها الله أنبياءه . . وكلها دلالات كاشفة على مقام آدم العالى عنـد ربه . . وقد كشف له هذه الأمور كشفاً وهو على الأرض لم يزايلها .

إنها الأرض لم يبرحها آدم منذ اختاره الله من أزكى فرع فى شجرة الحياة التى أنبتها نباتاً من طين الأرض وهداها فى انتقالها من سلالة إلى سلالة إلى أن بلغ الذروة المختارة .

وتؤيدنا فى ذلك آيات كثيرة عن الأرض .

« فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تموتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ » . (الأعراف – ٢٥)

« والله أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً . ثمَّ يُعيدكُمْ فِيها ويُخْرِجُكُمْ إخْراجاً » .

(نوح – ١٧ ، ١٨)

« مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعيدكمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكمْ تَارةً أُخْرَى » .

(طه – ٥٥)

إنها الأرض لم نبرحها .

والإهباط هو إهباط من الأرض إلى الأرض

وفى سورة السجدة نستشف حكاية التطور من استطراد الآيات ٧ و ٨ و ٩ .

وفى هذه الآيات نقرأ أن الله هو الذى « أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِن مَاءٍ مَهِينٍ . ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرونَ » .

فى البدء كان الطين . . . ثم كانت سلالة من ماء مهين « وهو السائل

المنوى » يقذف من ذكور الحيوانات إلى إناثها فيحدث به التكاثر والانتقال من سلالة إلى سلالة ثم كانت التسوية والتخليق والتطوير عبر هذه السلالات . . وأخيراً جاء النفخ . . فنفخ الله العقل أو الضمير أو الحرية فى ذروة هذه السلالات فجاء الإنسان ثم تطور هذا الإنسان ليصبح ذلك الآدمى الراقى الذى نعرفه بما له من سمع وبصر وفؤاد .

وذكر الطين فى البداية ثم التسوية ثم النفخ .

هذا الاستطراد بهذا السياق المتسلسل ينفى عن الذهن أن آدم جاء دفعة واحدة من الطين . . ويقترح تفسيراً تطورياً لنشأة الخلق .

كما أن فكرة الإهباط من السماوات تنفيها هذه الآية من سورة هود :

« هو أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ واسْتَعْمَرَكُمْ فيها » (هود – ٦١)

و « فيها » تعود على نفس هذه الأرض التى كانت منها النشأة . . ومعنى ذلك أن نشأة آدم كانت من هذه الأرض وأن الله أخلفه فيها ليقوم بعمارتها . . وكل هذا الكلام عن الأرض التى نعيش عليها الآن ونعمرها . . ولم تكن النشأة من خارج هذه الأرض ولا من مكان فى السماوات . . فلا إهباط إذن . . وإذا كان الإهباط مذكوراً فى قصة آدم فهو إهباط معنوى . . إهباط فى الدرجة . . ومجرد انتقال من مكان إلى مكان على نفس الأرض دون مبارحتها .

وقد ترددت نظريات حديثة عن أصل الإنسان بعد المغامرات الفضائية الأخيرة وما حدث من غزو الإنسان للقمر . . وتقول هذه النظريات إن الإنسان هبط الأرض بمركبة فضائية فى الأزمان البعيدة ، وأنه لا يمت بصلة إلى السلسلة التطورية الموجودة من حيوانات الأرض ، برغم ما بينه وبينها من شبه ظاهر . . وإنما هو من سكان كوكب آخر .

وهو مجرد فرض وتخمين أقرب إلى رومانتيكيات جول فيرن وهـ. ج. ولز تعلمية ولكنها بلا سند من الواقع .

والكلام فى قصة الخلق لا ينتهى ولن ينتهى .

وأسلم الآراء وأرجحها هو الذى أخذنا به فى تفسيرنا . . والعلم عند الله .

ولا يمكن الجزم حتى الآن بشىء .

ومبدأ الخلق ما زال لغزاً ولكننا جميعاً مأمورون بالاجتهاد فى تفهمه .

* * *

ويحدثنا القرآن فى قصة الخلق عن السموات السبع :

« الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ » .

(الطلاق — ١٢)

« الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سموات طِبَاقاً » . (الملك — ٣)

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِق » (المؤمنون — ١٧)

« وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً » (النبأ — ١٢)

والسموات السبع سر لا يفهمه العلم ولكن هناك أمراً مثيراً للتأمل . . أن يكشف لنا العلم مثلاً أن الضوء سبعة ألوان هى ألوان الطيف وسبع درجات من الأطوال الموجية من الأحمر إلى البنفسجى ثم يعود فيتكرر السلم فى سبع درجات أخرى من تحت الأحمر لفوق البنفسجى . . وبالمثل السلم الموسيقى سبع درجات ثم تعود الثامنة فتكون جواباً للأولى وهكذا تتكرر النغمات سبعات سبعات .

ونعرف أيضاً فى علم الأجنة . . أن الجنين لا يكتمل نموه إلا فى الشهر السابع وأنه إذا ولد قبل السابع يموت .

ومنذ أن بدأنا نعرف الأيام قسمناها سبعات سبعات ، وعرفنا الأسبوع كوحدة زمنية للحساب . . اتفق الناس من كل الأجناس والأديان والألوان على ذلك منذ الماضى السحيق والتقوا عليه دون أن يكون بينهم اتفاق مكتوب . . لماذا . . وكيف ؟ لا ندرى .

ثم نكتشف أخيراً أن درجات الطيف السبعة فى ضوء الشمس سببها نقلات سبعة للإليكترون عروجاً فى أفلاك سبعة حول نواة ذرة الإيدروجين . . كلما قفز الإليكترون فى فلك خارج النواة أطلق شحنة هى التى تعطى الطيف المناظر .

وتحدث هذه القفزات فى باطن الشمس (المكون من غاز الأيدروجين) من فرط الحرارة التى تتجاوز ملايين الدرجات . . فتنفرط الإليكترونات خارجة من ذراتها وتطلق الضوء الشمسى المعروف .

ونفهم من هذا أن الإليكترون يعرج صاعداً فى سبعة أفلاك أشبه بالسموات السبع . . ولكى ينتقل من سماء إلى سماء فوقها لا بد له أن يتخلص من غل من أغلال الطاقة يقيده إلى النواة . . فتنطلق هذه الطاقة على شكل حزمة ضوئية من طيف معين . . إلى أن يعطينا الأطياف السبعة ثم ينطلق بعدها حرًّا من ذرته .

وكأنما الذرة وهى النموذج المصغر للكون فيها سبع سموات .

هل معنى هذا أننا سوف نكتشف يوماً ما أن الوجود مرتب فى سبع درجات فى جميع حالاته . . وأن هناك سلّماً يكرر نفسه من أسفل سافلين إلى أعلى عليين . . سبع سماوات وسبع أرضين . . مثلما للضوء سبع درجات والصوت سبع نغمات والإليكترون سبعة أفلاك . . . وإن ما ورد فى القرآن حول الرقم ٧

(عن جهنم التى لها سبعة أبواب وعن الأرضين السبع والسموات السبع وعن سبع سنوات عجاف وسبع بقرات سمان وعن استواء الله على عرشه فى اليوم السابع من أيام الخلق) . . . كل هذه إشارات إلى هذا السر الخطير من أسرار الكون .

لا شك أن القرآن هنا يبدو بكل ثقله وخطورته مشيراً إلى مسألة علمية غاية فى الأهمية .

* * *

ومثال ذلك اللمحة العلمية الأخرى التى نصادفها فى القرآن حينما نقرأ عن الله عز وجل أنه :

« فَالِقُ الحبِّ والنَّوى يُخْرِجُ الحيَّ مِنَ الميتِ ومُخْرِجُ الميتِ من الحيِّ » .

وقد فهم منها المفسرون القدامى انفلاق نواةَ البلحة عند الإنبات وأنه بهذا تجدد النخلة حياتها فتخرج الساق الحى من النوى الميت .

فهل كانت مصادفة أن يكشف لنا العلم التشريحى أن الخلية أيضاً تجدد حياتها بأن تنفلق نواتها وأن هذه هى الطريقة التى تلد بها الخلية فتصبح خليتين .

وهل كانت مصادفة أن يكشف لنا العلم أن الذرة لا تخرج طاقتها المكنونة إلاَّ بانفلاق نواتها أيضاً فيخرج منها الحى من الميت (ميلاد الطاقة الذرية من المادة الموات) .

هى مجرد تأملات . . .

* * *

والشيء نفسه حينما تحكى لنا سورة ياسين عن الله :

« الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ ومِنْ أَنْفُسِهِمْ ومِمَّا لا يَعْلَمُون » .

ونعلم أن الله خلق النبات من زوجين ذكراً وأنثى كما خلقنا من زوجين والجن من زوجين .

وما لم نكن نعلمه وما كشفه لنا العلم أن هذه الزوجية هى فى الأشياء أيضاً :

« ومن كُلِّ شىء خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون » .

فالكهرباء فيها الشحنة السالبة والموجبة .

والمغنطيسية فيها الاستقطاب إلى قطبين .

وفى الذرة الإليكترون والبوزيترون .

والبروتون والنيوترون .

وفى الكيمياء العضوية . . الجزيء اليسارى والجزيء اليمينى .

ونعرف الآن المادة . . والمادة المضادة .

والثنائية والازدواجية فى تركيب الأحياء والجمادات يكشف لنا العلم أسرارها كل يوم .

وهى إشارات ولمحات وقطرات من بحر القرآن الملىء بالكنوز والأسرار

* * *

وربما كان أعمق هذه الأسرار ما جاء فى القرآن وصفاً ليوم القيامة بأن البحار تفجر وتضرم فيها النيران .

« وإذا البحار سُجِّرتْ » (التكوير – ٦)

« وسجرت » معناها أضرمت ناراً .

وفى سورة الانفطار يعود القرآن إلى هذه الإشارة .

« وإذا البحار فُجِّرتْ . وإذا القُبُورُ بُعْثِرَتْ »

(الانفطار — ٣ ، ٤)

وفى سورة الطور يقسم الله بهذا الحدث فيقول جل من قائل :

« والْبَحْرِ المَسْجُورِ . إنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ »

(الطور — ٦ و ٧)

إنه يقسم بالبحر إذ يفجر ويضرم ناراً يوم القيامة بأن العذاب واقع وأنه حق .

والقسم فيه لفت نظر لأهمية الحدث وجسامته . . . وقد ظل « البحر المسجور » فى نظرى لغزاً عجيباً حتى وقعت فى يدى خريطة لتوزيع الأحزمة البركانية والزلزالية على الأرض فى أثناء قراءة عن النشاط البركاني وأسراره . وكانت الخريطة بداية لدوامة من التأمل .

فالمؤلف وهو العالم الجيولوجى الدكتور بو يقول لنا بالرسم والإحصاءات إنه من خمسمائة بركان وهى كل ما نعرف من براكين على الأرض وجد أن معظم هذه البراكين تصطف فى حلقة حول المحيط الهادى وفى خط بطول البحر المتوسط وخط بحافة الأطلسى . . وأعجب من هذا أنه وجد أن قاع المحيط الهادى يتكون من البازلت وهو صخر بركاني . . ومعنى هذا أن جوف الأرض النارى هو أقرب ما يكون إلى السطح عند قاع المحيط الهادى والبحر المتوسط والأطلسى ، وأن هذه الأمكنة تحت الماء تمثل نقاط الضعف فى القشرة الأرضية حيث يحدث بين وقت وآخر أن تنفجر البثور البركانية

فتقذف بالحمم من جوف الأرض الملتهب إلى السطح .

ثم يمضى المؤلف فيحصى لنا عدداً من أعظم تلك البراكين التى تشكل حلقة من النيران حول الماء وتحت الماء يذكر لنا منها بركان فوجياما وبركان مايون وبركان تال وبركان كركاتوا وبركان أورزابا وبركان باريكوتين وبركان كوتوباكسي وبركان شيمبورازوا والبراكين الثلاثة مونت لاسن ومونت هود ومونت رينير . . هذا غير جزر بركانية تقوم وسط المحيط مثل جزر هاواى وهي مجموعة من الجزر شيدتها البراكين . . ومن أعجب ما يراه السائحون فيها مشهد حفرة كيلاويا النارية ويسميها أهل البلاد « هاليوما » أى بيت النار . . وفيها يمكنك أن ترى رأى العين الحمم المتوهجة وهى تغلى وتفور وتبصق نافورات النار على أعماق سحيقة داخل الفوهة .

وبين براكين البحر المتوسط أكبرها بعد فيزوف هو بركان أتنا بصقلية وإلى الشمال منه يقع بركان سترمبولى الذى يثور بصفة مستمرة ويلمع كل ليلة بالضوء الأحمر ويسميه الملاحون منارة البحر المتوسط .

وفى شرق البحر المتوسط مجموعة أخرى من البراكين من بينها جبل أرارات . . . وفى الأطلسى جزر الكنارى وآزور وكاب فرد وكلها جزر بركانية .

ثم تطالعنا الإحصاءات بحقيقة أخرى دامغة فتقول إن ٨٠٪ من النشاط الزلزالى يقع هو الآخر فى الحزام الذى يحتضن المحيط الهادى وإن معظم الهزات الزلزالية تقع فى قاع البحار .

إن ذروة الاضطراب البركانى والزلزالى واقعة إذن حول الماء وتحت الماء حيث جوف الأرض النارى المتأجج بالحرارة قريب من السطح ، لا يحفظه

من التفجر إلاّ توازن القشرة الأرضية الدقيق والجبال الهائلة التى تعمل كثقالات وأوتاد تحفظ هذه القشرة فى مكانها ، وترسيها فلا تميد فوق بحر النار المضطرب فى الداخل .

وفى ذلك يقول القرآن عن تلك الجبال الرواسى .

« وأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَواسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ » .

(لقمان — ١٠)

وفى مكان آخر يصف الجبال بأنها أوتاد . . « والجِبالَ أَوْتاداً » .

فإذا جاء وعد الآخرة ونسفت هذه الجبال تدفقت حمم النار من نقطة الضعف الكبرى وهى قيعان البحار وألقت الأرض بجوفها الملتهب .

« إذا زُلْزِلَتِ الأرضُ زلزالَهَا.وأخرَجَتِ الأَرْضُ أثقَالَهَا »

(الزلزلة — ١و ٢)

وأضرمت النيران فى مياه البحار والمحيطات وكان ذلك « البحر المسجور» الذى فجرت مياهه ناراً . والذى أقسم به الخالق . . .

وبُـرِّزَتِ الجحِيمُ لِمَنْ يَرَى .

ونعلم الآن أن الحرارة فى جوف الأرض تبلغ ألوف الدرجات ، وأن بطن الأرض هو أتون فوار من الحديد المنصهر والحجارة المنصهرة والحمم ، ولعل هذا الباطن النارى هو الجحيم التى يقول فيها خالقنا « وبُرزت الجحيمُ للغاوين »

(الشعراء — ٩١)

« وبرزت الجحيمُ لمنْ يَرى » (النازعات — ٣٦)

والإبراز كلمة دقيقة محددة تعنى إخراج شىء من حالة بطون إلى حالة ظهور . . . من الجوف إلى السطح . .

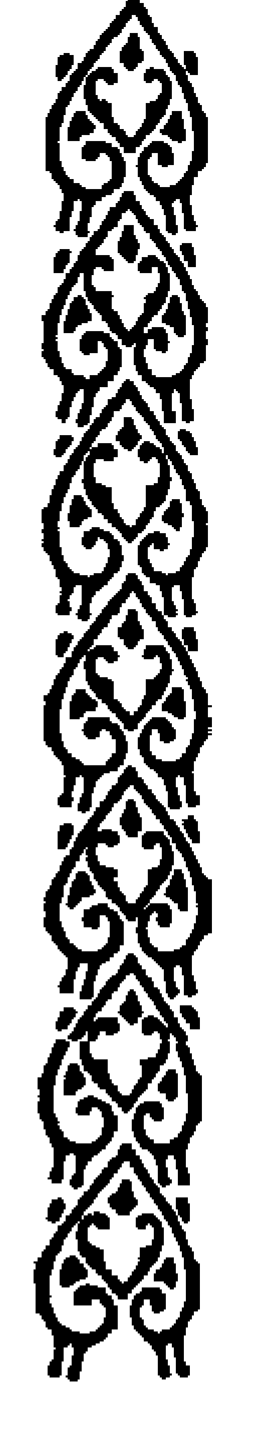
ولعل هذا الباطن الفوار هو أسفل سافلين الذى سوف تتهابط إليه الأرواح الكثيفة الظلمانية . . . وهو تلك النار التى وقودها الحجارة .

هى إشارات . . ولمحات . . وكلمات بعيدة الغور . . تلتقى فيها روعة البلاغة بدقة العلم .

ولا يمكن أن يكون هذا الالتقاء مصادفة . . وأن تكون تلك الموافقات العديدة بين أحدث علوم العصروبين كلمات القرآن الأزلية . . أموراً عشوائية اعتباطية جاءت مصادفة واتفاقاً .

الجنّة والجحيم





كان من أسباب انصرافى عن القرآن فى شبابى ما قرأته عن أنهار العسل وأنهار الخمر فى الجنة . . وأنا لا أحب العسل ولا أحب الخمر . . فاعتبرت هذه سذاجات وانسحب حكمى على القرآن ثم على الدين كله .

والساذج فى واقع الأمر . . لم يكن إلا أنا .

فأنا لم أحاول أن أتفهم النص القرآني ولا أن أعكف حتى على ظاهر عبارته فما بال باطنها . . وكنت فى عجلة من أمرى . وكان الانصراف غايتى وشهوتي . . وغطت هذه الشهوة على كل شيء فضاعت معالم الحقيقة من أمامى . . وفاتتنى أمور كانت شديدة الوضوح .

فماذا يقول القرآن فى الجنة ؟

« مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتى وُعِدَ المُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُه وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى » .

(محمد — ١٥)

والآية تبدأ بأنها ضرب مثل . « مَثَلُ الجَنَّةِ التى وُعِدالمُتَّقُون » وليست إيراداً لأوصاف حرفية . فهذا أمر مستحيل لأن الجنة والجحيم أمور غيبية بالنسبة لنا لا يمكن تصويرها فى كلمات من قاموسنا .

تماماً كما يسألك الطفل عن اللذة الجنسية . . فتحتار كيف تصفها له فهى بالنسبة له غيب خارج عن حدود خبراته تماماً . وبعد أن تعجز عن توصيل المعنى إليه تقول على سبيل ضرب المثل وعلى سبيل التقريب . . إنها شىء مثل السكر .

لقد اخترت له شيئاً من خبراته اليومية .

ومع ذلك فما أبعد المعنى .

وما أبعد الفارق بين اللذة الجنسية وبين طعم السكر العادى المبتذل .

وبالمثل كان موقف القرآن فى مخاطبة البدوى البسيط .

وكل أمنية البدوى الذى يعيش فى هجير الصحراء أن يعثر على نبع ماء عذب . . فكل ما يجد من مياه ما هو إلاَّ ينابيع مالحة آسنة .

وكذلك اللبن . . فما أسرع ما يختمر ويتغير طعمه فى حر الصحارى . . فيضرب له القرآن المثل من أعز ما يتمنى .

« إنَّ الله ، لا يسْتَحْيِى أنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا » .

(البقرة — ٢٦)

فكل الغاية هى تقريب تلك المعاني المستحيلة بقدر الإمكان .

وكل ما جاء عن الجنة والجحيم ما هو إلاَّ ألوان من ضرب المثال .

وألوان من التقريب وألوان من الرمز .

وفى العهد القديم يصف أشعيا يوم الرضوان قائلا :

« يصنع رب الجنود لجميع الشعوب فى هذا الجبل وليمة سمائن ووليمة خمر ويمسح السيد الرب الدموع من كل الوجوه » .

وفى تراتيل القديس أفرايم :

« ورأيت مساكن الصالحين . . رأيتهم تقطر منهم العطور وتزينهم ضفائر الفاكهة والريحان . . وكل من عف عن الشهوات تلقته الحسان فى صدر طهور » .

إنها صور مشتركة فى جميع الأديان .

ولكن القرآن لا يتركنا فى ضباب الأمثلة فما يلبث أن يقطع بالقول الفصل .

« فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

(السجدة — ١٧)

إنه يحيل القضية كلها إلى غيب لا يمكن التعبير عنه بلغة الأرض .

هنا كل مُنَى العين والقلب مما لا يمكن تصويره بألفاظ .

أما جهنم فهى شىء فظيع . . لا هو بالحياة ولا هو بالموت .

« ويَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ » .

(ابراهيم — ١٧)

« فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ » .

(البقرة — ٢٤)

ثم يشرح لنا أكثر :

« لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ » . (الزمر — ١٦)

هاهو ذايبين لنا حقيقة جديدة . . فيقول إنه يورد الألفاظ للتخويف . ولكنه ليس تخويفاً على غير أساس .

إنه مثل تخويفك لابنك حينما تحذره من إهمال نظافة أسنانه وتقول له . . إذا لم تنظف أسنانك بالفرشاة فإن السوس سوف يأكل أسنانك . . تقول ذلك محبة منك ورحمة لطفلك .

وبالطبع . . السوس لن يأكل أسنانه . . إنما هى ميكروبات وفيروسات غير مرئية .

ولكن التخويف كان على أساس . . لأن ما سوف يحدث له إذا أهمل نظافة أسنانه سيكون ألعن من أكل السوس .

ومن جرب الآلام الرهيبة لضرس مسوس . . يعرف أنها أسوأ من كل ما سمع من تحذيرات .

إنه تخويف العزيز الرحيم من شيء سوف يحدث بالفعل وسيكون أسوأ من جميع ما قيل وكتب . . مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

إن العذاب حق . . والثواب حق .

وهنا يعترض معترض .

ألا يتنافى مع رحمة الله ومع عظمته أن يعذب . . ويعذب من ؟ . . إنساناً مسكيناً لا يساوى ذرة أو هباءة فى مملكة الله اللانهائية .

وهو اعتراض كان يشغلنى دائماً وكان يصرفنى دائماً عن قبول فكرة العذاب وبالتالى عن القرآن وعن الدين كله .

والسؤال يحتاج منا أن نتعمق معنى كلمة عذاب .

والله بالفعل لا يعذب .

إنما هو فقط يعدل .

ولو أنه ساوى فى آخرته بين ظالم ومظلوم . . بين قتيل والقاتل الذى قتله . . لو أنه فعل ذلك بحجة الرحمة لكان أبعد ما يمكن عن الرحمة . . وعن العدل . . فالمساواة بين غير المتساوين ظلم فادح . . تعالى الله عن أن يقع فيه .

ثم هى الفوضى أن يكون الأبيض فى عين الله كالأسود ، والأعمى كالبصير ، والميت كالحى ، والذى يسمع كمن لا يسمع .

والكون ينفى الفوضى .

وتأمل كل جزئية فى الكون تكشف لك عن النظام المحكم والقانون الذى لا يفوته واحد من ألف من المليجرام .

وحركة إليكترون من مدار إلى مدار فى داخل الذرة لا تتم إلا بحساب ، فهو لا بد له أن يعطى حزمة من الطاقة ليقفز إلى الخارج قفزة مساوية ، ولا بد له أن يمتص حزمة أخرى ليقفز إلى الداخل قفزة مساوية . . إنه محاسب فى حركاته . . وهو إلكترون . . فما بال الإنسان العاقل وهو بالنسبة للإلكترون كالمجرة والفلك بالنسبة للإنسان . . وقد نفخ الله فيه من روحه فهو شيء عظيم . . وليس فى هوان الذرة ولا الإلكترون .

ثم ما معنى أن يموت مظلوماً وظالماً فيصبح تراباً بلا بعث ويذهب ما حصله من خير وشر وعلم وحكمة سدى .

إنها تكون مجرد سخافة .

« وَقَالُوا مَا هِيَ إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إلاَّ الدَّهْرُ وَمَالَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إنْ هُمْ إلاَّ يَظُنُّون » . (الجاثية – ٢٤)

وهو ظن خاطئ . . لأن الحياة تكون به مجرد لعبة عبثية وباطل فى باطل .

« أَيَحْسَبُ الإنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدى » . (القيامة – ٣٦)

والعقل المتأمل لا يقول هذا أبداً . إنه ليتفكر فى خلق الكون ونواميس الفلك المحكمة ويهتف من أعماقه :

« ربَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ » . (آل عمران – ١٩١)

مستحيل أن ينتهى كل هذا إلى باطل . . لا بد أن هناك استمراراًبطريقة ما . . ولا بد أن يتضح لنا الحكمة من كل هذا فى ميقاتها .

إنها قضية عدالة وقضية منطق وليست قضية تعذيب لهدف التعذيب والذى سوف يحدث لنا بعد البعث هو أن كل واحد ستلازمه رتبته ودرجته التى حصلها فى الدنيا لا أكثر .

« فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً » . (الفرقان – ٧٧)

فمن عاش لا يسمع ولا يعقل ولا يبصر الحق سوف يحشره الله أعمى .

« وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أعْمَى . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصيراً . قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى » .

(طه – ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦)

إنها مجرد صفتك تلازمك « سَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً » .

إن الله لا يعذبك . . ولكنك تعذب نفسك بجهلك .

« ومَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أنْفُسَهُمْ يَظْلِمُون » .

(النحل – ١١٨)

من عاش فى الدنيا حيواناً لا هم له إلا أن يأكل ويضاجع فهو فى الحياة الثانية له رتبة الحيوان أو الرتبة السفلى بالسبة لغيره ممن عاشوا يتأملون ويعقلون .

« وَمَنْ كَانَ فِى هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِى الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً » .

وفى الآخرة تتزايد الفروق وتتضاعف . . فما بين اثنين سوف يكون أكثر بمراحل من فارق الدرجة بين حيوان وإنسان .

« انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً » . (الإسراء – ٢١)

« سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللهِ » . (الأنعام – ١٢٤)

إن هذا الصغار سيعذب ويحرق . . لأنه سيكون حسرة على صاحبه حينما يرى مكانته ومكانة الآخرين ومقدار ما خسرومقدار ما كسبوا .

« رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ». (آل عمران – ١٩٢)

الله يعتبر الخزى فى هذه الآية أشد من النار إيلاماً .

وكما يصف الإنجيل هذا العالم الآخر « عالم البكاء وصرير الأسنان » . المجرم فيه يصر على أسنانه ندماً على ما يرى من هوان شأنه أمام الدرجات العالية التى أصابها الآخرون . ويصف القرآن أهل الجنة فى تلك الدرجات بأنهم المقربون . المقربون من الله . . من الحق .

« فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ » . (القمر – ٥٥)

ويروى لنا أن الله يكلمهم وينظر إليهم وأنهم على أسرة الملك متقابلون قد نزع الله ما فى قلوبهم من غل فأصبحوا إخواناً متحابين .

ويصف الجنة بأنها دار السلام . . وأنه لا حرب فيها ولا كذب ولا لغو ولا سباب .

وبعد أن يستطرد فى الآية ٧٢ من سورة التوبة فى وصف الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار والمساكن الطيبة فى جنات عدن يختم الآية قائلاً :

« ورضوان من الله أكبر » . . والمعنى واضح . . أن مقام الرضا . . رضى الله أعظم من كل تلك اللذائذ المادية .

ثم يتأكد المعنى من هذه الآية فى سورة الإسراء التى توصى بالتهجد فى الليل .

« وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ به نَافِلَةً لَكَ عَسَى أنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً » .
(الإسراء – ٧٩)

إنها إذن مسألة مقامات . كل واحد يبعث على رتبته ومقامه .

الله لا يعذب للعذاب .

وإنما يأتى العذاب واحتراق الصدر من إحساس من هم فى أسافل الدرجات بالغيرة والحسد والهوان والخسران الأبدى الذى لا مخرج منه . . وسوف يحرق هذا الإحساس الصدور كما تحرقها النار وأكثر . . وسوف يكون هو النكال والتنكيل . ينكل الواحد منا بنفسه بالدرجة التى وضع نفسه فيها والتى انحدر إليها بأعماله فى الدنيا .

ومما يدل على أن النار فى الآخرة هى غير ما نعرف من نارنا هذه الآيات من سورة الأعراف .

« وَشَهِدُوا عَلى أنْفُسِهِمْ أنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ.قَالَ ادْخُلُوا فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الجِنِّ والإِنْسِ فِى النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إذا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً (حتى إذا أدرك بعضهم بعضاً) قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأولاهُمْ

رَبَّنَا هَـؤُلاء أضَلُّونَا فآتِهِمْ عَذاباً ضِعفاً مِنَ النَّار قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ولَٰكِنْ لا تَعْلَمُون » . (الأعراف – ٣٧ ، ٣٨)

إنه حوار ومكالمة فى النار يجرى بين المعذبين . . وفى مثل نارنا لا يمكن أن يجرى حوار بين اثنين يحترقان .

والمعنى الثانى العميق فى الآية (لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـكِنْ لاَ تَعْلَمُون » .

إن أمامنا اثنين يتعذب الواحد منهما ضعف الآخر مع أنهما فى المكان نفسه ، ومعنى هذا أن العذاب فى الشخص وليس فى المكان ذاته . . وهذا لا ينفى أن يكون العذاب المذكور حسياً بل إنه من الممكن أن يكون معنوياً وحسياً فى نفس الوقت (كما يحدث أن يتعرض اثنان للحر اللافح فيصاب أحدهما بالصداع على حين يتحمل الآخر بسبب اختلاف درجات اللياقة عند الاثنين) والصداع ألم حسى ومعنوى .

ولا ينفى أن يكون ناراً ولكنها نار غير ما نعرف من نارنا .

ويروى القرآن عن أهل الجنة وكيف أنهم يتذكرون وهم يأكلون فاكهة الجنة أنهم قد رزقوا أنواع هذه الفاكهة حينما كانوا على الأرض (مع الفارق فى الجودة) .

وكيف أن لهم زوجات فى الجنة ولكنهن زوجات مطهرات (لسن كزوجات الأرض يعانين الحيض والمخاض شكسات غيورات متسلطات) .

تقول الآية عن هؤلاء الصالحين فى الجنة :

« كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذا الَّذى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُون » . (البقرة – ٢٥)

والجنة بهذه الصورة هى درجة ومقام . . فيها كل ما نعرف على الأرض

ولكن مع تفاوت هائل فى الرتبة . . تفاوت يفوق التصور . . تفاوت مثل التفاوت بين الزمن والأبد ومثل التفاوت الذى ذكرناه بين طعم قطعة سكر وطعم اللذة الجنسية الحادة بالنسبة لبالغ .

وإذا ذكر العسل فى مثل هذه الجنة فهو عسل ولكن لا كما نعرف من عسل ، واللبن هو اللبن ولكن لا كما نعرف من لبن ، والنساء لا كما نعرف من نساء .

إنها ستكون أشياء مدهشة كالغيب بالنسبة لما نعلم . . يقول الشاعر عن امرأة يحبها إن جسمها يضىء كأنها صيغت من النور . . إنها أحلام يمكن أن تكون هناك حقائق .

وبالمثل ما يروى القرآن عن النار . . فهى نار لا كما نعرف من نار . . نار تنبت فيها شجرة لها ثمر (شجرة الزقوم) . . وفيها ماء حميم يشربه أهلها . . والمعذبون فيها يتكلمون ويتحاورون فأجسادهم لا يمكن أن تكون لها نفس كيمياء الأجساد كما نعلمها وإلا لتبخرت دخاناً فى لحظات ولما استطاعوا أن يتبادلوا كلمة .

ومعنى هذا أننا سوف نبعث أجساداً ولكن لا كالأجساد . . ربما كيانات لها ذات الهيئة والصورة ولكن من مادة مختلفة هى بالنسبة لنا غيب . . إنها لن تكون الأجساد الترابية التى نتكون منها الآن فى حياتنا الأرضية .

ولهذا يمكن أن تتضاعف المتع حسياً ومعنوياً بطريقة نجهلها .

كما تتضاعف درجات العذاب حسياً ومعنوياً عما نعلم وكما يتوزع الناس مراتب ودرجات بحسب لياقاتهم . . تكون لكل مرتبة مواصفاتها الحياتية التى تكفل لمن فيها حظوظاً من السعادة أو الشقاء كل حسب قدره ، وأتصور

أن أعلى الناس قدراً فى الجنة هم الذين سيرتفعون عن متع الحواس وجنة الحواس ويختار لهم الرحمن درجة الحياة الروحية الخالصة إلى جواره فى سدرة المنتهى ، حيث لا تكون اللذة هى لذة طعام ولا لذة شراب ولا لذة حور عين وإنما لذة النظر إلى الله فى كماله ولذة تأمل الحق والجمال وصورة الخير المطلق .

إنها لذة الجالس « فى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتدر » .

(القمر — ٥٥)

وهى مرتبة المفضلين من الأنبياء ومن فى مقامهم .

وهكذا تشتمل الجنة على جميع الدرجات من المتع الحسية من مأكل ومشرب ارتفاعاً حتى المتع الروحية الخالصة ينال كل منا ما تؤهله له رتبته .

كل هذه آيات كواشف ذات دلالة تدلنا على أن النار ليست هى نارنا ولا الجنة هى سوق الخضار ولا الله هو الباطش الإرهابي .

وإنما الله سوف يبعث كل واحد على رتبته ومقامه ودرجته ، لأن هذا عين العدل وهو العادل .

وإنما سوف يتأتي العذاب من تفاوت الرتب تفاوتاً عظيماً ، ثم بالسقوط فى تقييم أبدى لا مخرج منه يلزم صاحبه كما تلزم الأصبع بصمتها .

وهو عذاب أكيد وجحيم أكيد سوف نراه عياناً ويقيناً :

« كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِين.لَتَرَوُنَّ الجَحيم.ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليَقِين » .

(التكاثر — ٥ ، ٦ ، ٧)

ولأن الله يعلم أن هذا العذاب سوف يكون رهيباً . . فقد حذرنا وخوفنا بالألفاظ المجلجلة وأرسل لنا الأنبياء مبشرين منذرين مؤيدين بالمعجزات

والخوارق والآيات والكتب . . فعل ذلك رحمة منه وحناناً وعطفاً . . وهو القائل فى حديثه القدسى : « سبقَتْ رَحْمَتى غَضَبى » .

وفى سورة الفاتحة يصف نفسه أولا بأنه الرحمن الرحيم قبل أن يقول مالك يوم الدين . . وهو يوم الحساب . . يوم الغضب . . يوم يحق القول على العالمين بلا رجعة .

ولأنه رحيم فقد فتح باب التوبة وإصلاح الخطإ على مصراعيه .

« قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً » . (الزمر — ٥٣)

ثم أقام شروط المغفرة .

« وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى » .

(طه — ٨٢)

وأمر بالصلاة . . ثم قال : « وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَر » .

أن تتذكر أن هناك قوة إلهية وأن يشخص هذا المعنى فى ذاكرتك وفى أفعالك على الدوام . . ينجيك ويحقق لك شرط المؤمن ويكون أفضل من صلاة المصلى الذى ليس فى قلبه ذكر .

وكلمة « الذكر » فى القرآن كلمة عميقة المعنى والدلالة . فالقرآن نفسه اسمه ذكر ، والتدين والإيمان هو مجرد تذكر :

« إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَاب » . (الزمر — ٩)

« وَإِذَا ذُكِّرُوا لاَ يَذْكُرُون » . (الصافات — ١٣)

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون » . (الحجر — ٩)

« وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ من مُدَّكِرٍ » . (القمر—١٧)

« فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنت مُذَكِّرٌ .لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ » .
(الغاشية – ٢١ ، ٢٢)

« وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الألْبابِ » . (ص – ٢٩)
« إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ » .
(الأعراف – ٢٠١)

وهنا ينبغى أن نقف وقفة تأمل طويلة .

فما هو هذا التذكر المطلوب .

إن أحدث النظريات النفسية تقول لنا . . إن المعارف كلها تكون مخبوءة مكنوزة داخل نفس الإنسان ولكن تحجبها عنه غرائزه وشهواته . ولهذا فالتعلم هو فى حقيقته تذكر . بارتفاع حجب النفس وشفوفها . . ولا يكون تعلماً من عدم .

فالطفل لا يتعلم أن ٢ + ٢ = ٤ وإنما هو فقط يتذكر حقيقة باطنة فى روحه ، ولد بها .

وبالمثل الإحساس بالجمال والطرب هو نوع من التذكر المبهم لعالم القدس وما فيه . . عالم الملكوت الذى كنا فيه قبل النزول إلى الأرحام .

ولهذا السبب فإن جمال المرأة مثلاً هو جمال زائر وليس جمالاً مقيماً لأنه ليس جمالها هى . . وإنما هو ظل ينعكس عليها من الملكوت . . ثم ما يلبث أن يفارقها حينما يتغلب قانون المادة والشيخوخة والتراب .

قبل ميلادنا . . كانت لنا ثمة حياة كأرواح .

وفى ذلك تقول الآية القرآنية البديعة :

« وأَشْهَدَهُمْ على أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالوا بَلَى شَهِدْنَا » .

(الأعراف – ١٧٢)

والآية تروى ما كان فى الغيب قبل الخلق الدنيوى .

وكل الخلائق مما خلق الله ويخلق وسيخلق مثل الذر فى كفه ينظر إليهم ويشهدهم على أنفسهم . . ألست بربكم . . فيقولون بلى شهدنا . . وهو بهذا يأخذ عليهم ميثاقاً غليظاً لأنه يعلم أنه بعد الهبوط فى الأرحام وانسدال حجاب اللحم الكثيف ونزول غشاوة الحواس والشهوات والغرائز والأهواء أنهم سوف ينسون تماماً . . وسوف يتخبطون فى نكران وكفر وجهالة .

وهو . . رحمة منه يرسل لهم الأنبياء يذكرونهم .

ويقول لمحمد :

« فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ » .

(الغاشية – ٢١ ، ٢٢)

ويقول عن الإيمان إنه حياة .

« يَـأَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلهِ وَلِلرَّسُولِ إذا دَعَاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ » .

(الأنفال – ٢٤)

لأن اتصال الوجود الدنيوى بالتذكر بالوجود الملكوتى الأول ثم بالوجود الأخروى . . هو فطنة الإنسان إلى حياته بكاملها . وهى الحياة كل الحياة .

والله ليس بحاجة إلى صلاتنا ولا إلى صيامنا . . ولكن نحن المحتاجون . . لعلنا فى صلاتنا العميقة نتذكر ولعلنا بالعبادة والتوجه نتصل بنبع وجودنا . . ونستمد منه حياتنا .

إن الصلاة والعبادة استمداد . نحن الذين نحتاجها لتكون لنا حياة

وليس الله . . لأن الله هو الحى بذاته المستغنى بوجوده عن كل شىء .

أما نحن فلا يمكن أن تكون لنا حياة إلا بمدد منه . . من الله . . الحى الذى به الحياة .

ونفهم من هذا أن الله فرض الفروض ووضع شرائع العبادات من أجلنا وليس من أجل أن يشعر بألوهيته . فهو فى غنى عنا . . وفى غنى عن أن يعذبنا . . وفى غنى عن أن يطلب منا طلباً أو يفرض علينا فرضاً .

« ما يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذابِكُمْ إنْ شَكَرْتُمْ وآمَنْتُمْ » .

لا مصلحة لله فى تعذيب خلقه ولا حاجة له فى ذلك .

وهو بالفعل لا يفرض علينا فرضاً ولا يطالبنا بطلب ولا يقيم علينا عذاباً ، كل هذا يبدو من ظاهر العبارات فقط . أما باطن القرآن الذى يكشف نفسه لكل من جاهد فى الفهم ، إن الله هو الرحيم مطلق الرحمة العادل مطلق العدل الذى يعطى مطلق العطاء ولا يأخذ شيئاً ولا يحتاج لشىء .

واذا كان فى الدنيا ألوان من العذاب فهى من عيون رحمته .

« وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذابِ الأَكْبرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » .

(السجدة — ٢١)

إنها محاولات لإيقاظ العقل الغافل لعله يتذكر ويرجع وينجو بنفسه من عذاب أكبر فى الطريق . عذاب لن يكون منه مخرج ولا مهرب . حينما تحق على كل واحد رتبته ودرجته .

ونفهم من القرآن أن سنة الله أن يوقظ الغافلين فى الأرض فيبتليهم بكل صنوف البؤس والمرض والعذاب لعلهم يفطنون إلى ما فى الدنيا من زوال وما وراءها من حقيقة باقية . . يفعل هذا رحمة بهم ولأنه يعلم ما ينتظرهم من

ناموس عادل لن يلطف بهم . . حتى إذا نفذت فيهم كل هذه الآلام الدنيوية ولم يتيقظوا . . فتح الله عليهم أبواب كنوزه ليتمتعوا . . وحقت عليهم كلمته بالهلاك فى الآخرة .

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّراءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ . فَلَوْلا (فلو أنهم) إذ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمِ الشَّيْطانُ مَا كانوا يَعْمَلُونَ . فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّروا بِه فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوابَ كُلِّ شَيءٍ حَتَّى إذا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإذا هُمْ مُبْلِسُون».
(يائسون تماماً) . (الأنعام – ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤)

فما يبدو لنا أنه نعمة قد يكون فى الحقيقة نقمة :

« فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ الله لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرونَ » .

(التوبة – ٥٥)

« أَيَحْسَبُونَ أَنَّ مَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ » . (المؤمنون – ٥٥ ، ٥٦)

« إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً » . (آل عمران – ١٧٨)

فليس الخير الظاهر فى الدنيا والنعمة الغامرة بعلامة رضا الله فى جميع الأحوال . . ولا عذاب الدنيا وبلاؤها بعلامة غضب الله فى كل حال . . فقد يكون الخير غضباً وقد يكون البلاء لطفاً . . ولا يكشف لك عن الحقيقة إلا صوت ضميرك . . إذا رأيت البلاء يطهرك فهو نعمة . . وإذا رأيت النعمة تفعنك فهى غضب .

ثم يتكلم القرآن عن أهل الجحيم :

« إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمِ » . (يونس – ٩٦ ، ٩٧)

وإنهم إذ ينزل بهم عذاب الجحيم ليصرخون متوسلين :

« يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ » (الأنعام – ٢٧)

« وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » .

(الأنعام–٢٨)

إن الله يعلم أنهم لو ردوا للدنيا لعادوا إلى كبريائهم .

إنه جهل وإصرار على الجهل لا وسيلة لعلاجه . . لا الأنبياء ولا المعجزات والخوارق والآيات . . ولا حتى مرورهم على الجحيم بكاف لردهم إلى معرفة .

ومن هنا يبدو البقاء فى الجحيم رحمة ، فهو بالنسبة لبعض الجبارين الوسيلة الوحيدة إلى المعرفة والتقويم .

إن الله رحيم دائماً حتى فى جحيمه . ولهذا سمى نفسه « الرحمن » . . أى الرحيم مطلق الرحمة فى جميع الأحوال لمن يستحق ومن لا يستحق . . يرحم من يستحق بالجنة ويرحم من لا يستحق بالجحيم . . فالجحيم كما رأينا هو تعريف لمن لا يعرف ولمن فشلت معه كل وسائل التعريف فهو نوع من الرحمة . ولهذا يقول فى أجمل آياته :

« عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ » .

(الأعراف – ١٥٦)

فأدخل عذابه ضمن رحمته التى وسعت كل شيء ، ويفسر لنا الحساب فيقول :

« اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً » .

والحساب هنا يبدو أنه حساب النفس للنفس وتنكيل النفس بالنفس ومواجهة النفس للنفس .

لقد لزم كل واحد عمله كظله ولا خلاص . . وحق القول . . ونفذ العدل الأزلى .

ولكن هذه المعاني تضيع فى النظرة المتعجلة والقراءة السطحية والوقوف عند الحروف وعند جلجلة الألفاظ .

والألفاظ التى وصف الله بها القيامة كلها ألفاظ رهيبة ذات جلجلة وصلصلة . . تقرع الآذان كالأجراس ، فهى : الساعة ، والواقعة ، والقارعة ، والزلزلة ، والدمدمة ، والغاشية ، والراجفة ، والرادفة ، والزجرة ، والسكرة ، والطامة ، والحاقة ، والصاخة .

هل سمعت لفظاً اسمه « الصاخة » ؟ !

إنه لفظ يكاد يخرق طبلة الأذن . لأن الله علم أن الواحد منا فى هذه الدنيا تتخطفه الشهوات وتبرق فى عينيه المطامع فهو لا يعقل . . وهو أصم لا يسمع .

فهتف فى أذنه بهذه الكلمة . . التى تكاد تخرق السمع من فرط ارتفاع ذبذبتها ليوقظه :

« فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ . يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ » .

(عبس – ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥)

فعل هذا رحمة ولطفاً وحناناً . . تعالى الله عن أن يعذبنا شهوة فى عذاب .

وما العذاب إلا لزوم ما يلزم وحلول الصفة بموصوفها وانتظام الأرواح فى سلم درجاتها الحق وانسدال الستار على هذا العالم الذى يتبارى فيه الناس على نوال مالا يستحقون .

ونعطى مثلاً لهذا التفاوت فى الرتب فيما يشعر به كل منا فى حياته الخاصة . . من تفاوت المستويات التى يمكن أن يعيش فيها . . لا نقصد مستويات الدخل . . وإنما نقصد شيئاً أعمق . . نقصد المستويات الوجودية ذاتها .

فالواحد منا يمكن أن يعيش على مستوى متطلبات جسده ، كل همه أن يأكل ويشرب ويضاجع كالبهيمة .

ويمكن أن يسكت ذلك السعار الجسدى ليستسلم لسعار آخر هو سعار النفس بين غيرة وحسد وغضب وشماتة ورغبة فى السيطرة وجوع للظهور وتعطش للشهرة واستئثار لأسباب القوة بتكديس الأموال والممتلكات وتربص لاصطياد المناصب .

وأكثر الناس لا يرتفعون عن هذه الدرجة ويموتون عليها ولا يكون العقل عندهم إلا وسيلة احتيال لبلوغ هذه الأسباب .

والحياة بالنسبة لهذه الكثرة من الناس غابة والشعور الطبيعى هو العدوان وتنازع البقاء والصراع . . والهدف هو التهام كل ما يمكن التهامه وانتهاز ما يمكن انتهازه . . والواحد منهم تجده يتأرجح كالبندول من لهيب رغبة إلى لهيب رغبة أخرى . . يسلمه مطمع إلى مطمع وهو فى ضرام من هذه الرغبات لا ينتهى .

وهناك قلة قليلة تكتشف زيف هذه الحياة وتصحو على إدراك واضح بأن هذا اللون من الحياة عبودية لا حرية . وأنها كانت حياة أشبه بالسخرة والأشغال الشاقة خضوعاً لغرائز همجية لا تشبع وأطماع لا مضمون لها ولا معنى ولا قيمة . . كلها إلى زوال .

فتبدأ هذه القلة القليلة فى إسكات هذا الصوت وفى تكبيل هذه النفس الهائجة ، وقد اكتشفت أنها حجاب على الرؤية وتشويش على الفهم .

وهكذا ترتفع هذه القلة القليلة فى الرتبة لتعيش بمنطق آخر . . هو أن تعطى لا أن تأخذ . . وتحب لا أن تكره . . وتصبح هموم هذه القلة هى إدراك الحقيقة .

وعلى هذه القلة تنزل سكينة القلب فيتذكر الواحد منهم ماضيه حينما كان عبداً لسعار نفسه وكأنه خارج من جحيم !

ومثل هؤلاء يموتون وقد انعتقوا من وهم النفس والجسد وبلغوا خلاصهم الروحى وأيقنوا حقيقة ذواتهم كأرواح كانت تبتلى فى تجربة .

وما أشبه الجسد — فى الرتبة — بالتراب . والنفس بالنار والروح بالنور . وهى مجرد ألفاظ للتقريب . ولكنها تكشف لنا أن حكاية الرتب هى حكاية حقيقية . . وأن كل من يموت على رتبة يبعث عليها وأن هذا هو عين العدل وليس تجبراً . . وقد يكون العذاب فوق الوصف إذا تجردت النفوس من أجسادها الترابية ولم يبق منها إلا سعار خالص وجوع بحت واضطرام مطلق برغبات لا ترتوى ثم عدوان بين نفوس شرسة لا هدنة بينها ولا سلام ولا مصالحة إلى الأبد . . على عكس أرواح تتعايش فى محبة وتتأمل الحق فى عالم ملكوتى .

أكاد أجزم بأن ألفاظ القرآن بما فيها من جلجلة وصلصلة حينما تصف الجحيم إنما هى نذير حقيقى بعذاب فوق التصور سوف نعذبه لأنفسنا بأنفسنا عدلا وصدقاً على رتبة استحقها كل منا بعمله . . وأكاد أضع يدى على الحقيقة . . لا ريب فيها .

تعالى الله عن أن يعذبنا شهوة فى عذاب . . وهو الحق العدل الحكم .

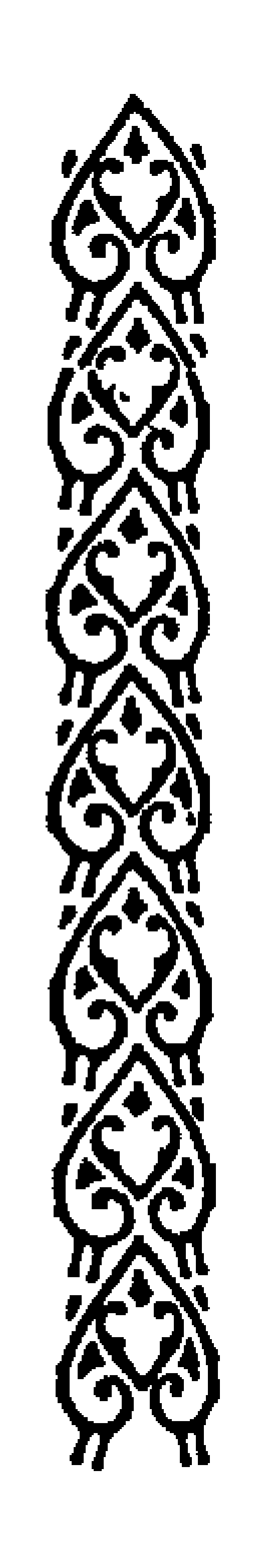
وفى أخبار داود أن الله قال له :

« يا داود أبلغ أهل أرضى أني حبيب لمن أحبنى وجليس لمن جالسنى وصاحب لمن صاحبنى ومختار لمن اختارني . ومطيع لمن أطاعنى . . من طلبنى بالحق وجدني ومن طلب غيرى لم يجدنى » .

أنعم به من رب رحيم . . وتقدس وتعالى عن الظلم والعدوان .

الحلال والحرام





التحريم فى القرآن ليس لمجرد التحريم .

ولا التحليل لمجرد التحليل .

وإنما هو تحليل لكل ما هو طيب وتحريم لكل ما هو خبيث :

« وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ » .

(الأعراف – ١٥٧)

الله حرم الضار الخبيث .

وأحل الطيب النافع .

لم يصدر الأمر تسلطاً ومعاقبة وتضييقاً على الناس .

وإنما أقام شريعته محبة ورحمة .

إذا لم نفهم هذه الحقيقة الجوهرية فسوف نتوه فى حرفيات لا آخر لها وتضيع منا روح القرآن كلية .

وعلى سبيل المثال نأخذ هذه الآية :

« قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ » . (النور - ٣٠)

« وَقُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ » . (النور - ٣١)

لو أخذنا الآية بظاهر حروفها دون أن نحاول أن نتدبر حكمتها سوف يخيل لنا أن فيها تضييقاً علينا بدون مبرر . . . كيف يخلق لنا الله العيون والنواظر ثم يقول لنا لا تنظروا . . كيف يخلق لنا الجمال ثم يقول غضوا البصر.

ولو تدبرنا الآية لاكتشفنا أن هذا الأمر هو غاية الرحمة وغاية اللطف وأنه استنقاذ للإنسان من العبودية ومن الأغلال وليس استبداداً به وتضييقاً عليه .

فالنظر هو السبيل إلى التعلق . . والتعلق حبس . . والعين إذا نظرت إلى الوجه الجميل سُجنت فيه وسجنت معها نفسها . . والله يريد لنا الحرية والانعتاق ، ولا انعتاق إلا بأن نتجاوز المحسوسات الجميلة ناظرين إلى خالقها وبهذا ترفعنا نظرتنا إلى مقام القرب والمعية مع الله وهو مقام الحرية المطلقة . .

وما خلق لنا الله الإغراء الدنيوى إلا ليختبرنا . . هل سنتصرف بالفطرة السليمة فنتجه بذوقنا السليم إلى الجمال الأعظم إلى جمال الله ووجهه أو سنقف عند الجمال الحسِّي الأصغر ونلتصق به ونسجن أنفسنا فيه مدللين بذلك على فساد ذوقنا وانحراف فطرتنا .

إن المسألة ليست مجرد نظرة إلى وجه جميل . .

إنها نظرة ما تلبث أن تعقبها رغبة ثم شهوة ثم مشروع لإشباع تلك الشهوة وامتلاك تلك المرأة أو هذا الصدر أو هذا الظهر .

وتتخطف العقل الشهوات فيفقد الإنسان هدفه وينسى وجهته ويتشتت

ويأخذ سبيله وراء هذا الصدر العريان وينسى المشوار الذى كان يسعى إليه .

مثل هذا الإنسان قد فقد حريته وهبط من ذروة إنسانية إلى حالة أشبه بحالة كلب يتشمم . . وإلى عبد أسير لا يعرف لنفسه خلاصاً من هاتين الساقين أو هذا الظهر . . وإلى عقل مغلول فى الشهوة يفكر فى اللهط ويسيل لعابه وتخرج عيناه من محجريهما جموحاً وشهوة ويفقد السيطرة على نفسه وينسى المصلحة التى جاءت به إلى المكان . . وتجرى رجلاه المرتعشتان وراء اللحم الأبيض . . لا يعرف كيف يحكمهما .

مثل هذه الحالة من الهبوط قد تنتهى بصاحبها إلى صفعة على صدغه تفيقه أو إلى محضر فى بوليس الآداب . . أو إلى قصة تبدأ بدقائق لذيذة ثم تنتهى بحادث نشل أو إلى علاقة جنسية تنتهى إلى مستشفى الحوض المرصود لعلاج مرض سرى مزمن .

وحكمة الآية القرآنية واضحة فى مثل هذا النوع من النظر . والذوق السليم ينفر بالفطرة ويعف عن مثل هذا التحديق . . لأنه ضرر . ولهذا أمر القرآن المرأة المؤمنة بأن تدني عليها جلبابها ابتعاداً عن مزالق الإثارة والاستثارة.

وهنا نصل إلى جوهر التحريم .

فالتحريم دائماً لضرر .

والله أقام شريعته محبة ورحمة لا تسلطاً وغطرسة .

ومن هنا كان لا بد من غض البصر تفادياً للضرر . . وإشفاقاً من العواقب ووقاية من ضعفنا الطبيعى المركب فى أجسادنا . .

وغض البصر ليس فقط غض البصر عما يتعرى من الجسد . وإنما هو أيضاً غض للبصر عما فى يد الناس من مال ونعمة ، وهو الحياء والترفع عن

النزول بالنفس إلى مواطن الشهوة والحسد والحقد والغيرة .

ومن أكبر الذنوب عند الله التعصب . . أن تتعصب لنفسك أو عائلتك . . وأن تميل مع الهوى . . وتأخذك حمية العنصرية وكبرياء العرق والجنس .

والمتعصب إنسان يعبد نفسه . . يعبد فهمه المحدود وليس الله فهو مشرك .

وجوهر الدين هو أن تتجاوز نفسك وتتخطاها وتنكرها وتكبح شهواتك وتلجم أهواءك وتتحرر من أطماعك وتطلعاتك وتخلص من غرورك وكبرك وعنادك . . فكل هذه أغلال والدين يحرمها ليخلصك من أسرها .

وأبغض الحرام إلى الله الشرك . . أو عبادة غير الله .

والشرك ليس فقط عبادة الأصنام فهذا لون قديم ساذج من الشرك انتهى أمره .

والأصنام الآن هى غير اللات والعزى وهبل .

وأخطر الأصنام هى الأصنام المجردة وهى ما يعبد الآن فى كل مكان .

أن تتخذ نفسك صنماً . . أن تعبد رأيك وهواك ومصلحتك فلا يشغلك إلاّ نفسك .

« أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاه » .

(الجاثية – ٢٣)

وهذا هو إله اليوم الذى يحرق له البخور وتقدم له القرابين من دم الآخرين .

وسوف نعود إلى ميزان الحرام والحلال . . ونقول : وما الضرر ؟ ما الضرر فى أن يعبد الإنسان نفسه ولا يرى غير مصلحته ؟

والضرر واضح بيّن . . فلن تكون حياة مثل هذا الإنسان حياة .

سوف يقضى حياته فى سجن من المرايا كلما تطلع إلى جدار لم ير فيه إلا صورته .

سوف يكذب ويسرق ويقتل ويستغل . . ولن تصل إلى أذنيه آلام الآخرين لأنه لا يرى إلا نفسه وما يكسب وما يربح وما يرفع من عقار وما يقتنى من أرض وما يكدس من مال .

سوف تصبح نفسه حجاباً بينه وبين الله وحجاباً بينه وبين الحقيقة ، وحجاباً بينه وبين العدل .

وعن مثل هؤلاء الناس يقول القرآن .

« وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ » . (يس – ٩)

وما السد الذى بين يديك ومن خلفك ومحيط بك لدرجة تحول بينك وبين الإبصار كأنه غشاوة . . إلا نفسك .

ويقول فى سورة أخرى .

« فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ، فَكُّ رَقَبَةٍ » .

(البلد – ١١ ، ١٢ ، ١٣)

يقول لك . . « وما أدراك ما العقبة » ليحضك على التساؤل والتفكير فى تلك العقبة فأمرها يغمض عليك . . لأنها هى نفسك ذاتها . . ولا عقبة أمامك سوى نفسك وعليك أن تقتحمها لتستطيع أن تفعل أى خير فتفك رقبة من تستغل وتستعبد . . ولن تستطيع أن تفك رقبة من تستعبد إلا إذا فطنت إلى

استعباد نفسك لك وفككت عنك أغلالها . . فلن تستطيع أن تحرر إنساناً إلا إذا بدأت فحررت نفسك أولاً . .

وبعد ذلك سوف تجد أن أى خير سيصبح ممكناً . . سوف تستطيع أن تحب وتعطى وتجود وتمنح .

ولهذا تقرأ فى القرآن :

« إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ » .

(التوبة — ١١١)

« فاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ » .

(البقرة — ٥٤)

بمعنى فاهزموا أنفسكم وانتصروا عليها .

وفى الإنجيل يقول المسيح بالمعنى نفسه :

« من أراد أن يخلص نفسه يهلكها . ومن يهلك نفسه من أجلى يجدها . لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه » .

ويقول الله لداود :

« اقطع شهوتك وتحبب إلى بمعاداة نفسك . . ضعنى بين عينيك وانظر إلى ببصر قلبك . . واعلم أنه ما اطمأن عبد إلى نفسه إلا وكلته إليها فأهلكته »

ويسأل داود ربه « يا رب كيف أصل إليك ؟ » فيقول له ربه « اترك نفسك وتعال .

ويقول الله لموسى : فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِى الْمُقَدَّسِ طوىً » فلا يمكن الوقوف فى حضرة الله إلا بخلع النفس والجسد وخلع شواغل النفس وشواغل الجسد كشرط للوصول .

ولهذا كان ذلك الشرك الخفى الذى يمارسه الإنسان بعبادته نفسه هو منتهى الحرام وذروة الخطيئة . . لأنه يحتوى على جميع الخطايا الأخرى فى داخله ولأنه هلاك لا هلاك بعده .

وكل ما تعبد من دون الله شرك . . إذا كنت عبداً لنفسك وهواك ومصلحتك فأنت مشرك ، وإذا كنت عبداً لعصبية العائلة أو القبيلة أو العنصر أو الجنس فأنت مشرك . . وإذا استعبدتك فكرة مجردة أو نظرية أفسدت عليك مسالك تفكيرك فأصبحت ترفض مناقشة أى فكرة أخرى فأنت راكع أمام صنم وإن كان صنماً مجرداً ومنحوتاً من الفلسفة لا من المادة .

ولهذا اعتبر القرآن الشرك خطيئة لا تغتفر لأنه عمى للعين والبصيرة والعقل وشلل لجميع المدارك وتوقف لنمو الروح وتعطيل لها فى هجرتها إلى منبع نورها .

« إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » .

(النساء – ٤٨)

لأن الشرك فى الحقيقة أشبه بانقطاع الحبل السرى الذى يفصم الصلة بين الجنين ومصدر حياته . . بين الإنسان والله .

وماذا يحدث لو أن زهرة عباد الشمس انصرفت عن الشمس وأعطت ظهرها لها واتجهت إلى القمر مثلاً . . إنها ببساطة تموت . . فالشمس هى مصدر حياتها . . وهى لا تعبد الشمس ذلاً . . وإنما لأن الشمس حياتها .

« يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ » .

(الأنفال – ٢٤)

والعبادة حياة واستمداد للنور والحق .

والله أمر بالعبادة لأنه يعلم أن فيها حياتنا . . ولم يأمر بها تسلطاً وتجبراً ولمجرد فرض أوامر .

ولهذه الأسباب حرم الله الخمر وما فى حكمها من المسكرات والمغيبات لما فيها من أضرار .

وحرم القمار لما فيه من خسارة وتباغض وعدوان .

وحرم الزنا لأنه فوضى تختلط فيها الأنساب . . وتخضع فيها النفوس للنزوات والشهوات والأهواء .

وأحل الزواج لأنه تنظيم ونظام ومسئولية وسكينة قلب .

وحرم لحم الخنزير . ونحن نعلم الآن أن حيوان الخنزير هو مستودع فيروس الإنفلونزا والدودة الشريطية ، وأنه أغلظ أنواع البروتين وأشدها تعقيداً .

ولو ألقينا نظرة على الحيوانات آكلة الخضروات كالغزال والأرنب والحصان والجمل والدجاج والحمار للاحظنا أنها كلها رقيقة وديعة . . أما الحيوانات آكلة اللحوم كالسباع والنمور والضباع والذئاب والثعالب والنسور والصقور . . فكلها تشترك فى صفات القسوة والوحشية والضراوة .

ولا شك أن هناك علاقة بين الإسراف فى اللحم كطعام . . ونشأة صفات خاصة فى النفس . . مثل الحدة والصرامة والقسوة .

ولأن لحم الخنزير هو أكثر اللحوم غلظة وأعقد البروتينات الحيوانية تركيباً فربما كان ضرره على آكله أبلغ من جميع اللحوم الأخرى . . والله يعلم ونحن لا نعلم .

والله هو العقل الكلى المحيط وهو لا يضع سنة بلا سبب .

ولقد أقام التشريع وحرم الحرام وأحل الحلال وفرض العبادة . . محبة منه ورحمة .

ويجب ألا تفوتنا هذه الحقيقة لحظة واحدة . . فهى روح الناموس وقلب الشرائع .

ولذلك حرم الله السرقة وحرم القتل .

« مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً » . (المائدة – ٣٢)

لأن قتل الإنسان لأخيه الإنسان بلا ذنب هو خرق لجميع النواميس . . لهذا اعتبره الله قتلاً للناس جميعاً .

وحرم الانتحار .

«وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً . وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً » . (النساء – ٢٩ ، ٣٠)

لأن الانتحار هو منتهى سوء الظن بالله والعمى عن رحمته واليأس من عدالته والخرق لنواميسه والجهل بآخرته ، وهو منتهى الظلم للنفس .

« الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وساءتْ مصيراً » . (الفتح – ٦)

والله حرم الزنا لأن الزنا ضرر .

وهنا سوف يطلع علينا رأى مودرن باريسى متحرر يقول : وما الضرر ؟

أين الضرر فى اثنين يتبادلان لذة بدون زواج لكن بتراض وراء جدران مغلقة وبعيداً عن العيون لا يكذبان على نفسيهما فى شىء . . فما يفعلانه يقومان به حبًا ووجداً وغراماً . ولا يؤذيان بعملهما مخلوقاً . . أين الضرر هنا ؟

ولنفهم الضرر لابد أن نضع الحب والجنس فى إطارهما الطبيعى حيث إرادتهما الطبيعية .

والطبيعة جعلت من العاطفة والجنس وسائل للتكاثر والإبقاء على النوع وعمار الدنيا . . جعلت منهما أدوات إنتاج .

فإذا اجتمع رجل وامرأة واعتزلا ركناً يتبادلان اللذة بدون تفكير فى زواج أو بناء بيت . . وإنما لمجرد اختلاس متعة . . فإنهما يحولان الحب والجنس من أدوات إنتاج إلى أدوات استهلاك ويستهلكان طاقة من أشرف الطاقات الحية خلقت لتبنى أمماً وحضارات ويجعلان منها مجرد وسيلة إلى ارتجافات جنسية .

وحينما يجتمع رجلان على شذوذ جنسى . . فإنهما يقولان الشيء نفسه ، سوف يقولان : إننا اجتمعنا على حب ورضى . . وإننا لا نضر أحداً ، وإننا نستمتع ولا نؤذى أحداً .

والشذوذ واحد فى الحالين إذا أخذنا القوانين الكونية بعين الاعتبار ونظرنا نظرة شاملة إلى الموضوع . . فكلا الحالين انحراف بالطاقة الطبيعية عن أهدافها لمجرد دقائق من الارتجافات الجنسية . . والفرق هو فرق فى درجة البشاعة . . وفى درجة المخالفة للنواميس الطبيعية . المدلهان حبًّا وهوى ، اللذان يرتمى الواحد منهما فى حضن الآخر . . ويتعلل كل منهما بأنه صادق مع نفسه فيما يفعل . . هما فى الحقيقة كاذبان .

لأن صدق الإنسان مع نفسه لا يكون صدقاً حقيقياً إلا إذا كان بالمثل صدقاً مع الطبع والطبيعة .

وليكون الإنسان صادقاً مع نفسه لابد أن يكون صادقاً مع طبيعته ومع

النواميس الكونية العظيمة التى جاءت به إلى الدنيا ، وإلا انقسم وانفصم وانشق على نفسه وتحول إلى جسد فى ناحية . . وروح فى ناحية .

والتى تحب رجلاً بحق . . لا تقول له : أريد أن أنام معك . وإنما تقول له : أريد أن أعيش معك العمر كله . أريدك أن تكون أباً لأولادى وسقفاً لبيتى وشرفاً لاسمى ورفيقاً مصاحباً لرحلة حياتى كلها .

وإذا لم تفعل هذا فإنها تكذب على نفسها . . وهى خاطئة وإن ادعت لنفسها أنها جولييت . بل إن الخاطئة التى تبيع عرضها لحاجتها إلى اللقمة سوف تتعلل بعذر الجوع . . أما هى فقد ابتذلت أشرف ما أعطتها الطبيعة بدون دوافع سوى تشنجات ورعشات عابرة وتلك الحكة التى تبحث عن مهدئ بين وقت وآخر بحجة الحب . . وهو كذب . . لأن حب المرأة يريد الرجل أباً لأبنائها وسقفاً لبيتها . . لا مجرد دواء موقت للحكة .

والزنا إذا تحول إلى عادة ثم إلى سلوك ومنهج حياة يؤدى إلى التفسخ الكامل للكيان . . وإلى انفصام الشخصية . . فيصبح الجسد فى ناحية والقلب فى ناحية . . والروح فى ناحية . . وبهذا يتم تخريب الفطرة ، وهذا هو الضرر غاية الضرر . . ولهذا نقرأ فى الإحصاءات أن أعلى نسبة للجنون والانتحار تحدث فى السويد وفى روسيا برغم السعادة الجنسية وعدم الكبت والتحلل غاية التحلل . . والسبب هو ذلك الانفصام الذى يحدث للإنسان المتحلل فى أعماق روحه فيفقده السلام الداخلى إلى الأبد .

وهكذا تأتى التعاليم الدينية لحكمة وأسباب لا لمجرد رغبة الله فى التسلط على خلقه وإنما محبة ورحمة وتنبيهاً إلى فائدة .

ويحرم الدين الزواج بين الأخوات ، وبين الأم وابنها ، والأب وابنته

لأنه يريد أن تنمو فى الأسرة ألوان أخرى من العاطفة غير الشهوة . . كالأمومة والأبوة والأخوة والمودة . . وأن يكون الرباط الأسرى هو التراحم (لأنه هو الرباط الوحيد الباقى) . . أما ضرام الشهوات فهو يضرم معه الغيرة والرغبة فى التملك فيقتتل الإخوة على أختهم وتتفجر الأسرة من داخلها وتنهار .

لم يكره الله للإنسان إلا كل ما هو كريه بالفعل . . ولم يحب له إلاً كل ما هو محبوب .

ولذا جعل الطلاق مكروهاً لكنه ممكن إذا استحالت الحياة وجعل الكذب كبيرة الكبائر .

« كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُون » . (الصف – ٣)

والكذب على الله غاية الإثم .

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً » .

(الأنعام – ٢١)

فيكون ادعاء النبوة كذباً والتحريف فى الكتب المقدسة زعماً بأن آيات نزلت وهى لم تنزل . . هو منتهى الحرام . . لأنه منتهى الإضرار والتضليل للناس .

هذه هى الشريعة وهذه روحها . . إن الله أحل الطيبات وحرّم الخبائث ، وإذا تطهرت فطرتنا فسوف نحب لنفوسنا ما يحب لها الله بدون جهد وبدون مشقة .

ولهذا يزول التناقض فى قلب المؤمن بين الله وشريعته وبين ما تمليه عاطفته الخاصة ويرغب فيه عقله . . فإذا بما يريده لنفسه هو ما يريده

الله له . . وما يتمناه لنفسه هو ما يتمناه الله له .

ولهذا يتوجه إبراهيم بالدعاء قائلاً :

« رَبِّ اجْعَلْنِى مُقِيمَ الصَّلاةِ » .

(إبراهيم — ٤٠)

فيطلب من الله ما يطلبه الله منه .

وهذا غاية الإيمان والثقة ومنتهى الحب للشريعة . . حتى لتصبح الشريعة والرغبة شيئاً واحداً .

ولا تعود للإنسان رغبة سوى ما يرغب الله .

وهذا درب الذين وصلوا .

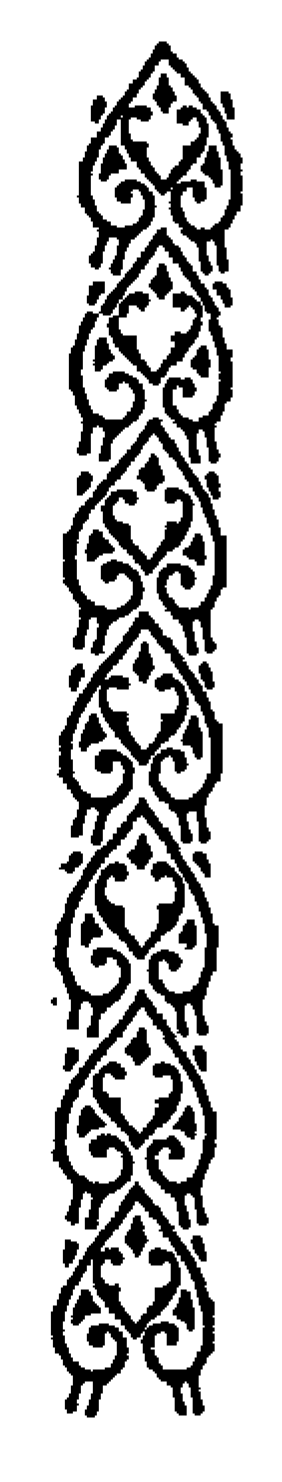
يقول الله فى حديث قدسى :

« عبدى أطعنى أجعلك ربانيا يدك يدى ولسانك لسانى وبصرك بصرى وإرادتك إرادتى ورغبتك رغبتى » .

وهؤلاء هم الأنبياء والأولياء والمقربون الذين أمدهم الله بأسباب علمه وقدرته .

العِلمُ والعمَل





أول ما نزل من القرآن هى كلمة « اقرأ » :

« اقـرَأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ » .

إنه أول أمر إلهى نزل فى الإسلام .

أمر لكل إنسان بأن يقرأ .

قبل الأمر بالصلاة والصيام وقبل تفصيل الشرائع وقبل الكلام عن العقيدة قال الله :

« اقرأ » .

وانفرد القرآن بين جميع الكتب المقدسة بأنه ابتدأ بهذه الكلمة وهذا الأمر . . وهذا منتهى التشريف للعلم والعلماء . . أن يكون أول حرف فى الدين هو أمر بالقراءة وطلب العلم . . . والآية حددت نوع العلم المقصود :

« اقَرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ » .

فهو علم بالله ولله . . علم خير فاضل . . علم للنفع وليس علماً للضرر .

وتوالت بعد ذلك الآيات التى تأمر بالعلم وتحض عليه :

« وقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً » . (طه – ١١٤)

قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فانْظُرُا كيفَ بَدَأَ الخَلْقَ » .

(العنكبوت – ٢٠)

« يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ » .

(المجادلة – ١١)

« قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ » .

(الزمر – ٩)

« شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو العِلْم » .

(آل عمران – ١٨)

فجعل الله أولى العلم إلى جواره مع الملائكة المقربين من حيث قيمة شهادتهم وهذا منتهى ما يحلم به الإنسان من رفعة المقام . . أن يذكر مع الله وملائكته .

وتتكرر كلمة العلم ومشتقاته فى القرآن نحواً من ثمانمائة وخمسين مرة ويقسم الله بالقلم وما يسطر به « ن والقلم وما يسطرون » .

ولكنه ليس علماً نظريًّا فارغاً وإنما علم مقترن بالعمل .

« وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُم » (التوبة – ١٠٥)

وفى كل مكان يتكلم فيه القرآن عن « الذين امنوا » يقرن هذا الإيمان بالعمل فيقول « الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » فى عشرات الآيات يتكرر هذا التقارن والتلازم .

وهو تكرار مقصود به أن يثبت تماماً فى الذهن أنه لا إيمان إلا بالعمل ومع العمل . . وأن الأعمال هى التى تفصح عن دخائل القلوب وهى التى تبرهن على فضيلة الفاضل وطاعة المطيع وإحسان المحسن .

ولأن أول أمر فى القرآن وفى الإسلام هو أمر صريح بالقراءة والتعلم فلا يصح أن يدعى الإسلام جاهل لا يقرأ مهما صلى وصام وحمل المسابح وحوقل وبسمل ورتل .

والشرق العربى الآن بما فيه من جهل وكسل هو كافر بأوليات كتابه ودينه . . فلا هو يقرأ ولا هو يتعلم ولا هو يعمل . . وبدل العلم والعمل لا نرى حولنا إلا الجهل والكسل .

وكل واحد يتصور أنه من أهل الجنة لمجرد أن اسمه فى بطاقة تحقيق الشخصية محمد وأنه مسلم بالوراثة وأنه يقتنى مصحفاً .

وينسى أن أول كلمة فى هذا المصحف هى « اقرأ » . . وأنه لا يقرأ . .

وأن الله يقول « اعملوا فسيرى الله عملكم » وأنه لا يعمل وإنما يتمدد على المقاهى يتثاءب .

بل إن العالم الغربى الأوربى بما فيه من علم وعمل وفكر ونشاط دائب خلاق هو أقرب لجوهر الإسلام وجوهر القرآن من هذا الشرق الكسول المتخاذل الغارق لأذنيه فى الجهل المزرى .

علينا أن نفهم القرآن قبل أن ندعى أننا من أهل القرآن .

والذين يمسحون كسلهم وجهلهم فى عباءة التصوف ويقول الواحد منهم وقد أخلد إلى خلوة فارغة وتأمل خاوٍ . . أنا متصوف . . ينسى أن الهجرة إلى الله عند المتصوف لا تكون إلا بالعلم والعمل وأن المتصوف عليه أولا أن

يطلب العلم فإذا علم كان عليه أن يعمل بما علم . . فإذا أصبح من ذوي الأعمال . . ارتقت به أعماله من حال إلى حال . . فإذا دام له الحال وثابر على الأعمال انتقل من مقام إلى مقام . . وهذه هي الدرجات التي يتسلق عليها الصوفي كادحاً إلى الله . . . العلم والعمل والحال والمقام . . . والمتصوفون الأوائل كانوا مرابطين يحملون السلاح ويدافعون عن الأوطان . . المصحف في يد والسلاح في يد . . والشمال الأفريقي يمتلئ بأضرحة هؤلاء المرابطين حيث ماتوا في مرابطهم بعد أن حاربوا لآخر طلقة وآخر شهقة في صدورهم .

إن الشجاعة والشهامة والصدق وقتال الباطل وإحقاق الحق والعمل على عمارة الدنيا بالخير والعدل بين الناس ومحاربة الاستغلال ونصرة الضعيف هي من صميم الدين بل هي الدين ذاته .

ولا دين ولا قرآن لمن لا يحرك يداً في هذه الأعمال .

ولكن في البدء دائماً يلزم العلم .

« اقرأ » أولا . . لتعرف الحق من الباطل ولتعرف قوانين العالم الذي تعيش فيه قبل أن تدعي لنفسك أنك تستطيع إصلاحه .

ولكن القرآن لا يدعونا إلى القراءة ويتركنا في ظلام الحيرة وإنما يختط لنا منهجاً للوصول إلى العلم هو منهج « السير والنظر » .

« قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ » .

(العنكبوت — ٢٠)

السير وجمع الملاحظات وتدوين المشاهدات ثم النظر في هذه الملاحظات واستقرائها لاستخراج القانون العام الذي يربطها . . . وهو المنهج الاستقرائي الذي جاء به « باكون » بعد القرآن بألف سنة وأثمر هذا المنهج على يد العلماء

الغربيين كل ما نقرأ ونرى من علوم وصناعات مذهلة . ولو حاولنا أن نتفهم كتابنا ونسير على هديه لسبقناهم إلى هذه العلوم .

وقد اهتدت قلة من العلماء العرب إلى هذا المنهج فى صدر الإسلام وكان لهم عطاء أثروا به الغرب وأخصبوا ثقافته فى أوقات كان هذا الغرب غارقاً فى ظلمات قرونه الوسطى .

ونذكر جابر بن حيان فى الكيمياء .

وابن سينا فى الطب ،

وابن رشد فى الفلسفة ،

وابن عربي فى التصوف ،

وابن الهيثم فى الهندسة والرياضيات .

ونذكر الأندلسيين وما استحدثوه فى الموسيقى والموشحات .

ونذكر علماء الفلك العرب . . وأغلب الكوكبات النجمية ما زالت تحتفظ بأسمائها العربية إلى الآن فى المراجع الأجنبية .

وكلمة « أنبيق » التى أطلقها جابر بن حيان على جهاز التقطير ما زالت هى ذاتها مستعملة فى الفرنسية AMBIQŮE ويشتق منها الفعل AMBIQUER أى يقطر .

والأرقام العشرية فى الحساب لم يعرفها الغرب إلا عن طريق العرب . كان هناك علم وعمل إذن .

وحينما كان هناك علم وعمل كان هناك عطاء وكانت هناك حضارة وقد أعطى القرآن مفتاح هذه الحضارة .

« اقْـرَأْ »

وجعل من هذا المفتاح أول ما نزل من حروف . . وأول ما كلف الوحى بتبليغه إلى محمد وأمته . ومن لا يقرأ لا يستحق بأن يكون من أمة محمد ولا أن يدعى لنفسه أنه يحمل القرآن ويفهمه .

ومن يعلم ولا يعمل بما يعلم فهو عاطل عن الفعل والأثر والدين .

يقول القرآن عن إبراهيم وهو يبنى البيت :

« وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » . (البقرة — ١٢٧)

العقل يهندس واليد تبنى والقلب يسبح هامساً « ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم » .

علم وعمل وإيمان وبناء .

هذا هو الدين الحق كما يقدمه القرآن .

والقرآن يتكلم عن المؤمنين العاملين بأحسن الكلمات :

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ » .

(البينة — ٧)

« وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً » .

(فصلت — ٣٣)

ويؤكد أن الأعمال تحفظ وتكتب وأن الله يلقانا بأعمالنا يوم الحساب :

« وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً » . (يونس ٦١)

« يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً » . (آل عمران — ٣٠)

« كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُم حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ » (البقرة – ١٦٧)

« وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً » .

(الكهف – ٤٩)

ويؤكد أن الدنيا هى الفرصة الوحيدة لإحراز الأعمال ولنها الامتحان الوحيد الذى لا امتحان بعده . . ويقول عن أهل الجحيم :

« وهُمْ يَصْطَرِخُونَ فيها رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ » .

(فاطر – ٣٧)

يقولون هذا بعد فوات الأوان .

« ولَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » . (الأنعام – ٢٨)

انتهى الأمر ولا اعتذار . . .

ويؤكد القرآن أن العمل الصالح الخالى من الإيمان بالله لا يكون عملا صالحاً وأن مثل هذه الأعمال الصالحة من قلب يجحد خالقه مصيرها البوار :

« وَقَدِمْنَا إلىَ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً » . (الفرقان – ٢٣)

ويقول عن أعمال الكفار الصالحة :

« أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فى يَوْم عَاصِفٍ » .

(إبراهيم – ١٨)

وقد يسأل سائل كيف يتجرد العمل الصالح عن الصلاح إذا تجرد قلب صاحبه من الإيمان بالله . . .

إذا تبرع الكافر لعمل خيرى . . كيف لا يكون عمله هذا عملا صالحاً يثاب عليه . . ؟ !

والجواب أن الكافر الذى لا يؤمن بوجود إله سوف يسند كل عمل يقوم به إلى نفسه فيعطى عن اعتقاد بأنه هو الذى يعطى وهو الذى يتصدق وهو الذى يرزق وهو الذى يغنى . . وهذا هو الزهو والاختيال والغرور بعينه ولا يمكن أن يكون مثل هذا العطاء صلاحاً . . بعكس المؤمن الذى يعطى وهو يعتقد أن الله هو الذى ألهمه بالعطاء وأن الله هو الذى وفقه للإحسان وهو الذى أعطاه اليد الكريمة والمال الوفير والقلب العطوف . . . ومثل هذا العطاء فى تواضع هو الصلاح حقًّا .

ويؤكد القرآن أن النية العاطلة عن العمل لا تكفى لتكون شاهداً على إيمان صاحبها .

الرغبة فى الجهاد لا تكفى . . وإنما لا بد من الجهاد بالفعل حيث يواجه الإنسان الشدة ويصبر عليها . . ويواجه الموت ويثبت أمامه :

« أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ » .

(آل عمران — ١٤٢)

والنية التى لا تتحول إلى فعل هى نية ينقصها الصدق .

وهى ادعاء بين الإنسان ونفسه أكثر من كونها رغبة حقيقية لأن الرغبة إذا صدقت حفزت إلى عمل .

والله يقول لنا إنه لم يخلق الحياة الدنيا إلا لهذا السبب :

« الَّذِى خَلَقَ الْمَوتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً » .

(الملك — ٢)

لقد جعل منها امتحاناً يظهر فيه من يعمل ومن لا يعمل وتجربة تعرف

بها كل نفس مقامها ومقدارها . . . حتى إذا حقت عليها الكلمة يوم الحساب كانت هذه الكلمة عدلا مطلقاً لا مراء فيه .

يقول القرآن :

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ » .

(المائدة — ٣٥)

والوسيلة إلى الله هى العمل .

ونبينا وقدوتنا محمد لم يكن مبلغاً للآيات وحاملا للقرآن ومبشراً به فقط وإنما كان أول العاملين . . وكان أول من يخرج فى الغزوات حاملا سيفه قائداً جيشه . . . وكان يجوع مع جنوده إذا جاعوا ويعطش معهم إذا عطشوا . . . وكان أول من يقتحم الأخطار . . . وفى إحدى الغزوات نعلم أنه جرح بين من جرحوا . . وقد حارب سبعاً وعشرين معركة خاضها جميعاً وقد جاوز سن الخمسين . . فهو النبي المبلغ والجندى المحارب والقائد المخطط والسياسى الحكيم . . . وهو العابد الزاهد . . وهو الصادق الأمين العف اليد واللسان . . وهو الأب الحنون والزوج العطوف والصديق الودود . . وهو صاحب الدعوة الذى لا ينام عنها والذى يحارب لها ويحارب دونها إلى آخر نفس من أنفاسه الطاهرة .

إنه رمز للعمل الدائب .

وهو دليل كل من يبتغى الوصول .

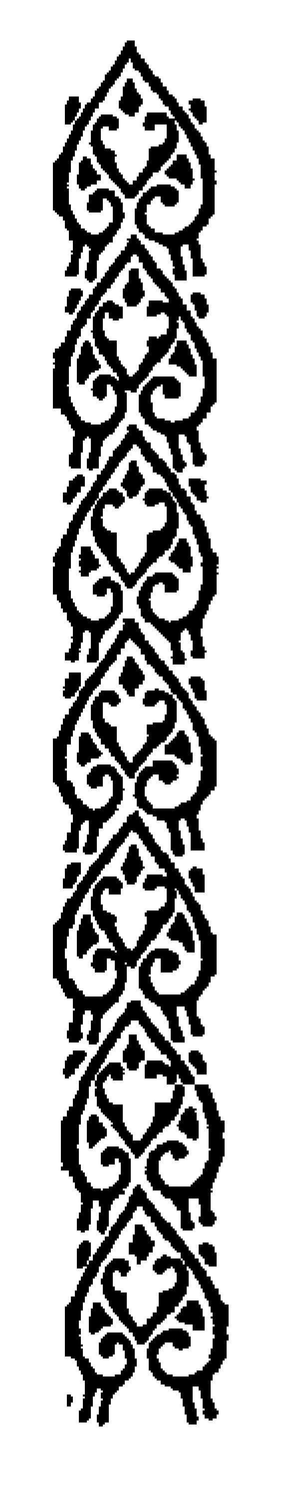
حيث لا وصول إلا بالعمل .

ولا طريق إلى الله إلا على سلّم الأعمال .

* * *

أسمـــاءُ اللّه





مستحيل معرفة ذات الله وكنهه .. ومستحيل رؤيته لعين بشرية . . لأن العين البشرية لا تدرك إلا كل ما هو محدود متناه فى المكان محصور بالزمان . . والله متعال على المكان متعال على الزمان . . ليس كمثله شيء .

وفى آيات بديعة الإيقاع يقدم لنا القرآن هذه الحقيقة الأزلية .

« عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَال . . » . (الرعد – ٩)

« يُجَادِلُونَ فى اللهِ وَهوَ شَدِيدُ المِحَال » . (الرعد – ١٣)

« وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فى الْبَرِّ والْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابس إلاَّ فى كِتَابٍ مبين » . (الأنعام – ٥٩)

« وَلِلهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً » .

(الرعد – ١٥)

الكل يسجد لله . . من لا يسجد طوعاً يسجد كرهاً .

لأن الكل يجرى على سنن الله الطبيعية التى أقامها ويخضع لقوانينه التى رسمها .

قلب المؤمن وقلب الكافر كلاهما خاضع للقوانين الفسيولوجية التى ابدعها الخالق . . كلاهما ينبض خاضعاً للقوانين نفسها . وكذلك تنبض كل خلية فى كل جسد .

وفى ذلك يقول القرآن :

« أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ » . (آل عمران — ٨٣)

الكل أسلم الأمر للقوانين الإلهية التى تجرى على سننها الحياة .

ونعرف الآن الكثير من هذه القوانين مثل :

قانون الضغط الأزموزى .

وقانون التوتر السطحى .

وتماسك العمود المائى .

والتوازن الكهربائى والايونى فى المحاليل .

وقانون التفاضل الكيميائى بين هورمون وهورمون فيكون الواحد منهما حاكماً على الآخر .

وقانون رفض الفراغ .

وقانون الفعل ورد الفعل .

والكثير غيرها مما تجرى الحياة على وفاقها ويطيعها كل مخلوق ويسلم لها طوعاً وكرهاً .

الله وقوانينه قائم على كل شيء من الذرة إلى الفلك . . به وبقوانينه تقوم الحياة .

فهو « قيوم » .

هو « الحَىّ » الذى به الحياة .

وهكذا يقدم لنا القرآن أسماء الله وصفاته وأفعاله فى تسابيح جميلة .

« هُوَ اللهُ الَّذِى لاَ إلَـهَ إلاَّ هُـوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ » . (الحشر – ٢٣)

« هُـوَ اللهُ الخَالِقُ البَارِئُ الْمُصَوِّرُ » (الحشر – ٢٤)

ويتكلم الله عن نفسه بضمير الجمع .

« وَنَحْنُ أَقْرَبُ إلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيد » (ق – ١٦)

وحبل الوريد هو العرق الذى يجرى به الدم فى الرقبة ، فهو أقرب إلينا من الدم فى أجسادنا .

وهذا منتهى القرب .

والمتصوفة يقولون إنه يبعد عن إدراكنا لفرط قربه ، ويخفى علينا لفرط ظهوره ، ويشرحون هذا بقولهم إننا عرفنا نور الشمس بغروبه . . وأدركنا ألوان الأشياء من النور وليس من الأشياء . . فهى زرقاء وحمراء وخضراء لأنها تمتص أمواجاً مختلفة من النور . . وبالظل عرفنا النور . . والله ليس له ضد ليعرف به ، ونور الله مشرق أبداً ولا ظل له . . ولذلك نقول إن الله احتجب عنا لفرط إشراقه ودوامه .

ونحن نولد فى هذه الحضرة الربانية ونحن فاقدو العقل ثم نكبر فتشغلنا الشهوة مع ظهور العقل ثم يشغلنا الجاه والرئاسة والدنيا ثم ننضج فيشغلنا العقل نفسه . . وطول هذا الوقت تصبح الحضرة الربانية عرفاً . وتصبح

عجائب الله فى السموات والأرض وفى أنفسنا عادة . ويقول الشاعر الصوفى :

وكيف يعرف من بالعرف قد سترا .

استغراقنا فى الأسباب يخفى عنا المسبب . . كمن يصله كتاب مؤلف فينشغل بالبحث فى نوع الحبر ونوع الورق وبنط المطبعة ، وينسى الكلام والمعاني أو ينشغل بالكلام وينسى مبدعه .

ومن شأن الدوام أن يخفى عنا الحقيقة – فدوام حركة المصعد يخفى عنا حركته . لا ندرك أنه كان يتحرك إلا لحظة وقوفه .

وبالمثل دوام الله أخفى عنا حضوره وشدة قربه أبعدته عن الإدراك وفرط ظهوره أخفاه . . فهو أخفى من كل خفى لأنه أظهر من كل ظاهر . لا يحتجب عنا إلا بحجاب وهمنا . . وهم شهواتنا الذى أسدلناه على أعيننا .

ويقول ابن عطاء الله السكندرى :

لو حجبه شيء لستره . . ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر . وتعالى الله وتقدس عن أن يكون هناك من يحده ويحصره .

وبالمثل لا يرى الواحد منا سواد عينيه لشدة قربه منه .

والله عند الصوفية ليس فى حاجة إلى إثبات . . وإنما الدنيا هى التى تغدو محل شك وهى التى تصبح فى حاجة إلى إثبات ، وهم يثبتونها بالله . فهى موجودة به وهو لا يوجد بها .

والذين يطلبون الله بالبرهان هم أهل الحجاب . الذين يشهدون الكون ولا يشهدون المكون .

ويقول ابن عطاء متسائلا :

متى غاب حتى يستدل عليه ؟ ومتى بعُد حتى تكون أسباب الدنيا موصلة إليه ؟

وهم يطلبون القرب من الله حبًّا وليس خوفاً من نار أو طلباً لجنة . . ويقولون إنهم فى هجرة دائمة إلى الله . . من الأكوان إلى المكوِّن . .وهى غير الهجرة المعروفة على الأرض من مكان لآخر . . وهذه عندهم أشبه بدوران حمار الرحى يبرح المكان ليعود إليه . أما الهجرة الحقيقية فهى الانتقال من وطن الملك إلى وطن الملكوت ومن وطن الحس إلى وطن المعنى .

والمتصوفة أهل أطوار وأحوال ولهم آراء طريفة لها عمقها ودلالتها فهم يقولون لك إن المعصية تكون أفضل أحياناً من الطاعة . . فرب معصية تؤدى إلى الرهبة من الله وإلى الذل والانكسار . . ورب طاعة تؤدى إلى الخيلاء والاغترار . . وهكذا يصبح العاصى أكثر قرباً وأدباً مع الله من المطيع .

ومن رأى طاعته واختال بها ورأى حسناته واطمأن إليها فإن رؤيته لها دليل على أنها ليست حسنات . . لأن الحسنات ترفع إلى الله فور حدوثها والكلمة الطيبة تصعد إلى الله فلا يراها صاحبها . . فالصالح الحقيقى لا يشعر بأفعاله الصالحة . وإنما هو فى رهبة من الله على الدوام . . وهذا تفسيرهم للآية القرآنية .

« إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » . (فاطر – ١٠)

وهم يقولون لك ، إن الشكر ليس كلمته « الحمد لله » وإنما الشكر على العطاء ألا تعصى به من أعطاك فتتخذ من نعمته وسيلة إلى أذى نفسك وأذى الآخرين . إن الشكر فعل وليس كلمة .

يقول الله . . « اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور » فجعل من الشكر عملاً لا قولاً .

والمتصوف واليوجى والراهب كلهم يحاولون الوصول إلى الله وأن تفرقت بهم الدروب والسكك .

وهم يرون أن الشهوة حجاب والهوى حجاب وحب الدنيا حجاب . . كذلك العلم عند عالم مغرور مختال بعلمه من أشد الحجب . . وكذلك العبادة بالنسبة لعابد مزهو بعبادته والصلاح بالنسبة لصالح متفاخر بصلاحه حجاب .

وهكذا يكون العلم أحياناً حجاباً على المعلوم والعبادة حجاباً على المعبود والصلاح حجاباً على رؤية المصلح .

ولهذا يفسر العارف كلام القرآن عن النبي :

« مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ » .

(الفرقان — ٧)

بأنه الستر الإلهي ستر به سر النبوة فى ثوب بشرى عادى . . رجل يأكل الطعام ويمشي فى الأسواق . . حتى لا يبتذل السر بالإظهار والاشتهار .

واليوجى والراهب والصوفى المسلم يطلبون القرب والوصل بتلاوة الأسماء . . وبالتسابيح . . والطاعة والعبادة والعمل الصالح . . فيدعون الله بأسمائه :

« وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا » .

وهناك يوجا خاصة بالتسابيح اسمها « المانترايوجا » من كلمة « ما نترام » الهندية أى تسبيحة .

ومن التسابيح السنسكريتية أن يتلو اليوجى فى خشوع كلمة « رهيم . .

رهام » . آلاف المرات . . وهى كلمات تقابل . . رحيم . رحمن . . عندنا وهى من أسماء الله بالسنسكريتية .

ويضع اليوجى فى عنقه مسابح طويلة من ألف حبة .

والإسلام يقدم أسلم وأقصر الطرق إلى الله والقرآن هو الكتاب الوحيد المحفوظ الذى سلم من التحريف والتشويه .

والتسبيح الحقيقى فى نظر الغزالى لا يكون بمسبحة ولا يكون باللسان وإنما بالقلب . . فى الخلوة والسكون والصمت . . مع دق القلب تتلو الروح فى صمت وبدون صوت . . أسماء الله .

« وَاذْكُر رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ » .
(الأعراف — ٢٠٥)

وهى أرقى درجات التصوف ولا يستطيع بلوغها إلا من بلغ سكون النفس وصفاء الروح وامتلك القدرة على حصر الانتباه والتركيز والانصراف إلى التأمل بجماع القلب والهمة ، وقويت عزيمته فقهر شهواته وشواغله الدنيوية وصعد درب السالكين إلى الله . وهو صعود أشق من الصعود إلى القمر . لأنه يقوم على الجهاد الهائل مع النفس .

وأول خطوة للمتصوف أن يتغلب على نفسه . فالنفس حجاب ، والعقل حجاب ، والعرف حجاب ، وكل هذه الأشياء هى جلد الإنسان الخارجى وليست حقيقته . ولا بد من تجاوز هذه الأسوار حتى يستشرف المتصوف على روحه فى بكارتها ويضع قدمه على عتبتها ليرى ما لا عين رأت ويسمع ما لا أذن سمعت .

والتصوف إدراك عن طريق المدارك العالية .

والمتصوف عارف .

ولكن هدف معرفته هو الله فى كماله . . وليس طلب المعارف الجزئية كالطبيعة والكيمياء والجغرافيا والتاريخ .

إنه يسعى إلى معرفة كلية بحاسة مختلفة ووسيلة مختلفة عن وسيلة المنطق وأدوات العلم الوضعى المألوفة .

ولهذا كانت أول عقبة أمام المتصوف، هى نفسه ذاتها ومألوف عاداته .

« فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ » .

(البلد – ١١ ، ١٢)

وفى بعض أخبار داود أنه قال « يا رب أين أجدك » فقال « اترك نفسك وتعال . . غب عنها تجدنى » .

وفى هذا يفسر بعض المتصوفة كلام الله لموسى فى القرآن :

« فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِى الْمُقَدَّسِ طُوًى » . (طه – ١٢)

إن المقصود بالنعلين هما النفس والجسد . . هوى النفس وملذات الجسد . . فلا لقاء بالله إلا بعد أن يخلع الإنسان النعلين : نفسه وجسده بالموت أو بالزهد .

والله يصورهما كنعلين لأنهما القدمان اللتان تخوض بهما الروح فى عالم المادة وعن طريقهما نزلت من سماواتها إلى الأرض .

وقد يعترض معترض قائلاً . . وما الضرورة لصرف اللفظين عن معناهما الظاهر . . والواقع أن هناك ضرورة . . فالحضرة الربانية لا يكفى لدخولها خلع نعلين ... وإنما التجرد الكامل هو شرطها دائماً وهو أقل ما يليق بالحضرة الجلالية . . ولا يتم التجرد إلا بخلع شواغل النفس والجسد . . فالمعنى هنا وارد والتأويل له ضرورة وهو لا يناقض المدلول الظاهر للألفاظ .

ولهذا يبادر المتصوف بأن يخلع النعلين ليخطو أول خطوة فى الوادى المقدس .

والقرآن يخبرنا أنه بعد الموت والبعث يتم الشهود فنرى الله ونلقاه .

« وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » . (البقرة — ٢٢٣)

« وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً » . (مريم — ٩٥)

« يَأَيُّها الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيه » .

(الانشقاق — ٦)

« وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّة » .

(الأنعام — ٩٤)

« وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا » . (الفجر — ٢٢)

« وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً » .

(طه — ١١١)

« وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ » .

(السجدة — ١٢)

« تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً » .

(الأحزاب — ٤٤)

« يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُون » . (المجادلة — ١٨)

« هَلْ يَنْظُرونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِى ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِىَ الْأَمْرُ » . (البقرة — ٢١٠)

وقد أنكرت بعض الفرق الإسلامية إمكانية رؤية الله فى الآخرة وفسرت

هذه الآيات بأنها رموز وإشارات ومجاز لا حقيقة . وأنها تفهم على باطنها لا على ظاهرها .

وكانت حجتها أن العين لا ترى إلا المحدود المتناهي فى الزمان والمكان ، والله لا محدود ولا متناه ، ومتعال على الزمان والمكان وبالتالى لا يمكن لعين أن تراه . وهى حجة واهية وتصور مادى دنيوى . فهم يتصورون أن الروح سوف تبصر بعين مادية فى الآخرة وستكون لها حدقة وأجفان وستظل ملابسة للزمان والمكان المعروف فى الدنيا . وهو أمر ينكره القرآن فيقول عن النشأة الأخرى « وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لا تَعْلَمُونَ » أى إنه سوف ينشئنا نشأة مختلفة تماماً عن كل ما نعلم . .

ولا غرابة فى أن يكون للروح بصر شامل يدرك اللامحدود وأن ترى الله فى الآخرة .

والقرآن يعرفنا بتسعة وتسعين اسماً من أسماء الله الحسنى . بعض هذه الأسماء مما يختص الله به نفسه مثل اسم « الله » وأسماء أخرى مثل الكريم والحليم والرؤوف والودود نطلقها على أنفسنا فنقول عن الواحد منا إنه كريم وحليم ورؤوف وودود ولكن لا يصح أن نقول إنه « الله » لأنه اسم علم على الذات الإلهية أما الأسماء الأخرى فأسماء للصفات والأفعال الإلهية ، والذات الإلهية سر مطلسم ليس لبشر أن يخوض فيه . . أما الصفات والأفعال فلنا أن نتأمل فيها .

والله يجيب من يدعوه بأسمائه .

« ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » .

(غافر — ٦٠)

« وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » .
(البقرة — ١٨٦)

وهى حقيقة . ولكن الوسيلة إليها ليست مجرد شقشقة اللسان بأن نقول يا رب . . فكل واحد يقول يا رب . . بعقل فارغ تماماً عن مدلول الكلمة . . إنما النداء على الله أمر جليل . . وهو صميم التصوف . . بل هو التصوف ذاته . . ولا يقدر عليه إلا أصحاب القلوب والبصائر والهمم العالية .

وهذا لا يعنى أنه لا بد أن تكون درويشاً لتدعو الله فيستجيب . . وإنما طهر القلب وخلوص الضمير والتوجه بجمع الهمة هو الشرط .

أما الذى يقول . . يا رب ارزقنى مائة جنيه . . فهو رجل يمزح مزاحاً سخيفاً . . فهذه أمور يمكن أن يسعى إليها بأسبابها الدنيوية المعروفة وليس طريقها التصوف . . وكشك سجاير على ناصية عماد الدين يحل المشكلة .

والمتصوف متجرد . . وهو قد نفى المطلب الدنيوى من باله لأنه يريد مطلباً أعظم .

والمتصوف متأدب . . وهو يمرض فلا يسأل الله الشفاء حياء وأدباً ويقول . . كيف أجعل لنفسى إرادة إلى جانب إرادة الله . . فأسأله ما لم يفعل . . وأنا الذى لا أعلم ما ينفعنى مما يضرنى . . كيف يعترض الذى لا يعلم على الذى يعلم . . ومن يدرينى أن مرضى وآلامى ليست الوسيلة إلى خلاصى . . وهذه مبالغة غير مطلوبة من المسلم . . فالله يحب منا أن نسأله . .

ولكن الصوفى من باب الخوف والأدب لا يطلب من الله إلا ما يطلبه الله منه فيقول كما قال النبى إبراهيم :

« رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ » . (إبراهيم — ٤٠)

فهو يجعل من إرادة الله إرادته الخاصة ومسعاه . . حبًّا واحتراماً لخالقه .
والحب هدف المتصوف الأسمى .
ليس لى فى الجنان والنار حظ .
أنا لا أبتغى بحبى بديلا .
وهو لا يرى شيئاً إلا رأى الله فيه ، والله عنده ليس فى حاجة إلى عبادتنا ، وهو يفسر الآية القرآنية :
« وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُون » .

(الذاريات — ٥٦)

بأن معناها :
ما خلقت الجن والإنس إلا ليعرفون .
فلا يمكن أن تتم عبادة بدون معرفة ولا يمكنك أن تعبد ما لا تعرف ... إنها لا تكون عبادة .
وأنت لا تكون عابداً الله إلا إذا كنت عارفاً بالله .
ولا يمكن أن تعرف الله إلا إذا عرفت نفسك أولا ثم تجاوزتها مهاجراً إلى خالقها .
وتتضمن الآية جميع هذه المعارف .
فالله خلق الإنسان ليعرف نفسه ثم يعرف ربه . . فيتم بذلك للإنسان جلاء البصيرة الكامل والارتقاء الحقيقى عبر صراع الجسد والروح .
إنه الارتقاء والتكامل من خلال معركة دموية بين طبيعة التراب وطبيعة الروح .
« لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فى كَبَد » .. (البلد — ٤)

خلق الله الإنسان ليكابد هذه المعركة . . ووعده بميراث السموات والأرض إذا انتصر.

والعبودية للخالق هي دائماً منتهى الحرية أمام الخلق .

والذل للخالق منتهى الكرامة أمام الخلق .

فالعبودية لله تعنى أولا التحرر من استعباد المال واستعباد الشهوة واستعباد المنصب واستعباد الرغبة :

ومن عبد الله لا يعبد الجماهير والغوغاء طلباً للمنزلة عندها .

لا تكون عبداً لله إلا إذا أفرغت قلبك من كل هذه العبوديات وأسقطت من حسابك كل ما هو غير الله ليكون قلبك خالصاً لخالقك .

ثم إنك لا تصل إلى أعلى مرحلة من العبادة إلا إذا استطعت أن تفنى عن نفسك وتفنى عن رغباتك . . فيصبح ما تريده لنفسك هو ما يريده الله لك . . كادت إرادتك أن تكون إرادة الله المطلقة . . وهى ذروة الحرية والخلوص من كل العبوديات .

والمتصوف إنسان مفكر متأمل شفيف الحس نافذ البصر.

يقول لك المتصوف .

الصاحب الذى يدوم لك هو الذى يصحبك وهو عالم بعيبك وليس ذلك إلا إلهك وخالقك العالم بخفاياك المطلع على سرك وعلانيتك . . إن عصيته سترك . . وإن اعتذرت إليه قبل عذرك .

ويقول لك :

إذا قل ما تفرح به قل ما تحزن عليه .

إن أردت ألا تعزل فلا تتول ولاية لا تدوم .

إذا ادعيت لنفسك التواضع فأنت المتكبر حقًّا .

إن كنت لا تعرف الله إلا فى النعمة فأنت لا تعبده وإنما تعبد نفسك .

خلق لك الله الدنيا لتكون فى خدمتك فتحولت أنت إلى خدمتها . . أرادك ملكاً وأردت لنفسك أن تكون مملوكاً .

ويقول للفقهاء :

أخذتم علمكم ميتاً عن ميت وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت . تقولون حدثنا فلان عن فلان وكلهم موتى . . والواهب الحق علام الغيوب أقرب إليكم من حبل الوريد وهو معكم أينما كنتم . . ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم . فكيف تتركونه وتأخذون العلم عن سواه .

ولهذا يقول المتصوفة عن علمهم بأنه علم لدنى . . من لدن الله . . لا علم نقلى من الكتب .

ويصفون أنفسهم بأنهم أهل الحضرة . . ويأخذون أنفسهم بالرياضات الروحية العنيفة والصيام والعبادة المتصلة إلى درجة إفناء الذات فى الله .

وسيلتهم إلى الله أسماؤه الحسنى ومحبته القصوى التى تملأ كل ذرة من القلب فلا يعود لهم شاغل إلا ذكره . . لا يرون شيئاً إلا رأوا الله فيه .

هؤلاء هم أهل السر والقرب والشهود الأولياء الصالحون حقًّا .

وهم ندرة شحيحة .

إذا حضروا لم يعرفوا وإذا غابوا لم يفتقدوا لأنهم لا يعلنون عن أنفسهم ويخفى الواحد منهم كراماته كما يخفى عورته لأنها السر الذى بينه وبين ربه وعلامة المحبة والخصوصية والقرب .

وما بين المحب والمحبوب لا يصح إفشاؤه وابتذاله . . . وقانونهم .
الذى يتكلم لا يعرف .
والذى يعرف لا يتكلم .
وهم ليسوا دراويش الأرصفة ولا شحاذى المساجد ولا المجاذيب ولا الثرثارين ولا المدعين ولا محترفى الشعوذات . إنما هم الأتقياء الأخفياء . يقول عنهم الله فى حديثه القدسى :
« أوليائى تحت قبابى لا يعرفهم غيرى » .
ويقول فى حديث آخر عن هذه الخصوصية :
« لم تسعنى أرضى ولا سمائى ووسعنى قلب عبدى المؤمن »
وفى حديث ثالث :
« عبدى أطعنى أجعلك ربانياً يدك يدى ولسانك لسانى و بصرك بصرى » .
وما أندر هؤلاء الربانيين فى هذا الزمان .

رَبٌّ وَاحِد ودينٌ وَاحِد





يقرر القرآن بعبارات قاطعة محددة وآيات لا تقبل التأويل وحدة الله المطلقة وأنه لا موجود بحق سواه وأن كل ما عداه باطل زائل :

وينزل الوحي على محمد ليقول في كلمات باترة حاسمة :

« فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ ، وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ » . (محمد – ١٩)

« كُلُّ شيءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَه » . (القصص – ٨٨)

ويقول المسيح في الإنجيل :

« لا تدعو لكم أباً على الأرض لأن أباكم واحد هو الذى فى السموات » .

« اذهب يا شيطان إنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد » .

وتقول التوراة :

« العين لا تشبع من النظر والأذن لا تمتلئ من السمع . كل تعبك الذى تعبته تحت الشمس تتركه للذى يأتى بعدك . كما يموت الحكيم يموت الجاهل . . باطل الأباطيل الكل باطل . . كما أنك لا تعلم من أين تأتي

الريح ولا كيف حال الجنين فى بطن الحبلى كذلك لا تعلم أفعال الله الذى يصنع الجميع » .

وتصف التوراة الله بأنه واحد غير متجسد وغير مركب لا يأكل ولا يعتريه نقص .

وجميع الكتب السماوية من توراة وإنجيل وقرآن هى فى صورتها التى نزلت بها كتب توحيد تأمر بالتوحيد .

ويقرر القرآن فى وضوح لا لبس فيه أن جميع أهل الكتاب من يهود ونصارى قبل البعثة المحمدية . . على هدى إذا التزموا بالتوحيد . . وأن لهم أجرهم يوم القيامة . . وأكثر من ذلك يقرر أنه حتى الذين توجهوا إلى الشمس على أنها رمز وآية من آيات الله وهم « الصابئون » أمثال أخناتون كانوا فى زمانهم على دين ولهم أجرهم . . وبالمثل اليهود قبل مجىء المسيح والنصارى قبل مجىء محمد . . كل هؤلاء لهم مغفرة وأجر .

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخرِ وَعمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون ».

(البقرة — ٦٢)

ويذكر القرآن التناحر بين الأديان على أنه جهل :

« وَقَالَتِ اليهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُون » .

(البقرة — ١١٣)

وما فهم هؤلاء المختلفون حقيقة الدين .

فالدين فى حقيقته دين واحد . . إنَّ الدينَ لواحِد .

« شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيموا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ » .

(الشورى – ١٣)

إنه دين واحد من ناحية العقيدة . . وقد نزلت شرائع هذا الدين الواحد على مراحل (اختلاف الأديان هو اختلاف من ناحية الشرائع فقط) .

« لكلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً » .

(المائدة – ٤٨)

ويقول المسيح :

« ما جئت لأنقض الناموس بل لأكمله » .

إنها مراحل . . فى كل مرحلة يبعث الله نبيها المناسب وينزل من الشرائع ما يلائم تطور النفس فى تلك المرحلة .

فإذا ارتقت الإنسانية وتقدمت وتخطت تلك المرحلة بعث بالرسول الذى يكمل الناموس ليواكب التقدم الروحى الحادث .

فى زمن موسى وهو عصر الفراعنة عصر العنف والعنفوان والجبروت ينزل ناموس العدالة على موسى .

والعدالة الملائمة لمثل ذلك العصر هى رد الضربة بمثلها . . العين بالعين والسن بالسن .

فإذا ارتقى الإنسان خطوة . . نزل ناموس الحب . . وجاء المسيح ليقول فى الإنجيل :

« سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا

الشر . بل من لطمك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر أيضاً . ومن سخرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين » .

وتصطدم تلك الأخلاقيات الرفيعة بجبروت المتجبرين وصلف الظالمين ويحدث ما يحدث للمسيح وللمسيحيين من اضطهاد وحرق وشنق . . وتمتحن المحبة أسوأ امتحان . . ويرى فيها كل ظالم وجبار ضعفاً وتخاذلاً يستغله لحسابه ليسحق كل من يتكلم باسمها .

وكان لا بد أن تنزل شريعة محمد لتجمع بين ناموس العدالة وناموس الحب فى ناموس واحد هو ناموس الرحمة .

وجاء القرآن يقول :

« وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ . وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ » . (النحل – ١٢٦ ، ١٢٧)

وبهذا جعل الدفاع عن النفس باستعمال القوة أمراً مشروعاً بعد أن كان فى الإنجيل ممنوعاً . . حتى لاتجد النفوس الجبارة مطعماً فى ضعف المؤمنين وحتى يكون للحق سند من قوة فى أزمان يعلم الله بها ويعلم أنها ستكون أزماناً يسود فيها منطق القوة وحكم الأقوياء .

ولكن مع مشروعية الدفاع عن النفس فإنه فضل الصبر وتحمل الأذى على التعجيل بانتقام ثم فى آخر الآية أمر بالصبر أمراً « واصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلاَّ بِاللهِ » ووعد بأن يقوى الصابر على صبره وأكثر من هذا كان القرآن صريحاً فى تفضيل المحبة . . ورد الإساءة بالإحسان وأمر بذلك حرفيًا :

« ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ » (المؤمنون – ٩٦)

هذا التوليف الدقيق الجامع بين العدل والحب فى مزاج رحيم مشفق

كان هو المزاج المناسب لما تبقى للإنسان من أحقاب عمره على الأرض .

وقد علم الله أنه لن يحدث تطور روحى بعد ذلك . . وأن الإنسان لن يتطور إلا فى أدواته فيصنع العربات والقطارات والطائرات والصواريخ والعلوم الوضعية والمعارف العقلية دون أن يتقدم خطوة واحدة فى روحه فختم الرسالات بمحمد . . ولم يبق بعد ذلك شيء يقال فى باب العقيدة الروحية على الأقل .

وبقى علينا نحن أن نفهم ما قيل ، ولماذا قيل . . ثم لماذا انقطعت الرسالات عن النزول ولم يعد يقال شيء . .

لأن لا شيء جد فى روح الإنسان على كثرة ما جد فى عقله ومعارفه وحياته المدنية .

الدين إذن واحد كما أن الله واحد .

والذين اختلفوا لم يفهموا حقيقة نزول الألواح والوصايا والشرائع على مراحل حسب تطور الروح الإنسانية .

ولكن الله فى القرآن يعود فيوضح ويحدد بطريقة أكثر حسماً فيقدم لنا الأنبياء فى تعاقبهم وكأنهم رسل دين واحد ويسميهم جميعاً مسلمين ويسمى دياناتهم إسلاماً فيقول بلسان نوح ويخاطب الكافرين :

« فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » . (يونس — ٧٢)

ثم يروى عن إبراهيم وابنه وهما يبنيان الكعبة :

« وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ

أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » .

(البقرة — ١٢٧ ، ١٢٨)

ثم موسى :

« وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ » .

(يونس — ٨٤)

ثم فرعون لحظة موته غريقاً يقول :

« آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

(يونس — ٩٠)

ويوسف يقول حينما نصره الله وجمعه على أخواته :

« رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » .

(يوسف — ١٠١)

ويقول السحرة الذين آمنوا لموسى :

« رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ » . (الأعراف — ١٢٦)

ثم يروى عن عيسى والحواريين :

« فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » . (آل عمران — ٥٢)

إنه يقول عن المسيح إنه مسلم والحواريون مسلمون . . وموسى مسلم والسحرة الذين آمنوا له قد أسلموا وفرعون وهو يتوب لحظة الموت أسلم ويوسف مسلم وإبراهيم مسلم وإسماعيل مسلم ونوح مسلم .

الكل أسلم . .

بمعنى أسلم الأمر لله إذ أدرك أنه لا موجود بحق سواه ولا مقدر للأقدار ومالك للملك سواه .

ولكن اختيار لفظ واحد فى الكل أمر له مغزى ومراد بذاته لحكمة . . هى عدم التفريق بين دين ودين .

ثم يمضى لأكثر من ذلك فيأمر بعدم التفريق بين رسول ورسول وعدم تفضيل رسول على رسول . . فيقول عن المؤمنين فى سورة البقرة :

« وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ». (البقرة — ٢٨٥)

لا معنى للتفرقة بين رسول ورسول ، فالمسيحى الصالح مسلم لله . . إذا آمن بجميع الرسل والكتب وبالآخرة وبأن الله واحد .

والأديان فى أصلها العقائدى دين واحد وما هى إلا مراحل نزلت فيها النواميس على وفاق الطبيعة البشرية وتطورها .

« إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ » . (الأنعام — ١٥٩)

« إِنَّ الذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً . أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا » . (النساء — ١٥٠ ، ١٥١)

لأن الإيمان لا يتجزأ ولا يمكن أن تؤمن بكتاب أنزله الله وتكفر بكتاب آخر وتكون مسلماً . . لأن الإسلام هو إسلام الوجه والأمر لله فى كل ما أتى به من رسل وكلمات فتكون مؤمناً موحداً مصدّقاً لله فى كل ما قال لا ناقداً .

والمتصوفون المسلمون لهم طريقة جميلة فى التعبير عن هذه الوحدة بين الأديان فيقول الواحد منهم عن زميله إن له قدماً عيسوية . . وعن آخر إن له قدماً موسوية وعن ثالث إن له قدماً محمدية . . بمعنى أنه يجد طبيعته ومزاجه الروحى فى الشريعة العيسوية فلا يتزوج ويعيش راهباً . . أو فى الشريعة الموسوية الحامية فلا يستطيع أن يكبت انفعالاته ، أو فى الشريعة المحمدية فهو وسط دائماً معتدل حليم فى انفعالاته .

يقول هذا بعضهم عن بعض مع أنهم جميعاً مسلمون .

وهم بذلك قد فهموا اختلاف الأديان فهماً أعمق .

لم يفهموها فقط على أنها اختلاف مراحل تاريخية .

وإنما فهموها أيضاً على أنها اختلاف فى المزاج الروحى قد يوجد فى الجماعة الواحدة .

بهذه الرحابة فى النظرة . .

وبهذا الأفق المتسع يجب أن نفهم تعدد الأديان . . لنتخطى التعصب ونشعر بالأديان كلها ديناً واحداً ، أنزله الإله الواحد الرحيم .

والله قد فتح باب رحمته لكل من جاهد ، وإذا كنت زنجيًا فى الأدغال ولم تتيسر لك رسالة محمد ولم يصل إليك القرآن ولم يصلك من الكتب السماوية إلا الإنجيل مترجماً بلغتك الزنجية وتوسلت إلى الله به فأنت مقبول عند الله ولك عذرك . . وإذا كنت من الأسكيمو ولم يصلك أى كتاب سماوى ولكنك جاهدت وأدركت وحدانية الله من آياته فى السماء . . من القمر والنجوم التى خلقها . . وتوسلت إلى الله بها (كما فعل الصابئون أمثال أخناتون) فلك أجرك . . وكل من جاهد واستخدم كل ما وجد تحت يده من وسائل فى

هجرته إلى الله له أجره . . وجنة الله مفتوحة الأبواب لكل من سعى إليه مجاهداً ومخلصاً . والله يقول إنه أرسل النذر والرسل إلى كل مكان فى الأرض . .
« وإنْ مِنْ أُمَّةٍ إلا خلا فيها نَذِيرٌ » .

ومن هؤلاء الرسل أنبياء مجهولون لم يرد لهم ذكر فى القرآن . . يقول الله لنبيه عن هؤلاء الرسل « مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عليكَ ومنهم من لم نَقْصُصْ عليك » . لقد أوصل الله كلمته إلى كل مكان وإلى كل قلب بطرق نجهلها . . وصلة الله بخلقه صلة حميمة لا نعلمها ولا نستطيع أن نحيط بها . . والله يقول لنا إنه يوحى للحيوان وليس فقط الإنسان « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون » . . إن الله على صلة حميمة بكل من خلق . .

* * *

وقد تجددت بعد محمد عليه الصلاة والسلام دعوى النبوات .

وكان يظهر بين وقت وآخر من يدعي أنه نبي مرسل بعد محمد . وأنه جاء بكتاب . . وانتهى معظم هؤلاء الأنبياء إلى المشانق . . وانتهت كتبهم إلى النسيان .

وكان التحدى الذى يواجه أى نبي يدعي النبوة هو أن يأتِي بما يدل على هذه الصلة المزعومة بالله . . عالم الغيب والشهادة .

وفى العرف والقانون أن البينة على من ادعى .

من ادعى أنه مبعوث من عند عالم الغيب فعليه بداهة أن يأتينا بعلم جديد من هذا الغيب ونبأ صادق من هذا الغيب .

ومن يرسله الله للبشر فلا بد أن يعطيه بداهة سلطاناً على هؤلاء البشر

أو سلطاناً على قوانينهم الطبيعية فيأتي لهم بخوارق تسكتهم . . أو يدعم بعثته بكتاب معجز تخشع له القلوب والآذان وتحار فيه العقول والألباب . . وهو الأمر المستحيل بالنسبة لهؤلاء الأدعياء .

وخلاصاً من هذا المأزق الأزلي كانت خطة هؤلاء المدعين هي هدم دعامة النبوة من أساسها بإنكار المعجزة وإنكار الغيب حتي لا تبقى وسيلة لامتحان رسالتهم الكاذبة وحتى ينفتح لهم منتدى النبوة على مصراعيه .

ولأن عادة النبي الجديد أن يعترف بأسرة الأنبياء السابقين وكتبهم . . فكان لا بد لهؤلاء الأدعياء الجدد من الاعتراف بالقرآن .

وللتوفيق بين اعترافهم بالقرآن وإنكارهم للمعجزات والغيب اقتضى الأمر تفسيراً مبتدعاً للقرآن يوافق الهوى والتضليل والتدجيل .

وهكذا اتفقوا جميعاً على تفسير القرآن تفسيراً باطنياً ليتخلصوا من ظاهر الحروف ويتحللوا مما توجبه .

فالشياطين فى القرآن هى رموز للحواس والرغبات والشهوات .

والملائكة هى الخواطر الطيبة الخيرة .

وإبليس ليس كائناً حقيقياً له وجود حقيقي وإنما هو مجرد رمز للشر الذى يسيطر على النفس .

والمعجزات التى رواها القرآن للأنبياء كانت رموزاً لا حقائق فعصا موسى هى الشريعة التى جاء بها ليهدى بها الشعوب ويقودها .

« قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بها عَلَى غَنَمِي » .

(طه – ١٨)

وغنمه هم شعبه .

فإذا ألقى بعصاه تحولت إلى أفعى والتهمت ثعابين السحرة . . ولم يحدث أن خرجت من العصا أفعى كما يقول القرآن . . وإنما هم يدعون أن هذا رمز للحجة : حجة الشريعة وبرهانها تلتهم أفاعى الكذب . . (لقد ألجم الناس بحجته وهذا كل ما حدث) .

حينما ضرب موسى البحر بعصاه لم ينشق .

وانفلاق البحر الذى يرويه القرآن يفسرونه بأنه رمز لفرقان الحق من الباطل بواسطة شريعة موسى وحجته (عصاه) .

ولم يضم موسى يده إلى جناحه ليخرجها بيضاء من غير سوء وإنما هذا رمز لليد الخيرة التى قدمها موسى لفرعون .

وإحياء عيسى للموتى هو رمز لما فعلته تعاليم عيسى فى النفوس بتنويرها . . لقد أخرج الجاهل من ظلمة جهله ولم يخرج ميتاً من قبره .

وبالمثل إبراؤه للأعمى كان إبراء لعمى القلب لا عمى العين .وإنزاله لمائدة من السماء هو رمز للغذاء العقلى الذى قدمه للناس لا أكثر .

بهذا فسر « ميرزا حسين على » ، الذى لقب نفسه « ببهاء الله » ، القرآن فجرده من فكرة المعجزة . . والغيب (الملائكة والشياطين) حتى لا تقوم عليه حجة ويطالبه أحد بمعجزة أو بنبأ من الغيب . فلا غيب هناك ولا إمكانية لمعجزة ولم يسبق لنبى أن أتى بمعجزة . . وإنما هى مجرد الدنيا التى نعيشها يأتى الأنبياء كما يأتى المصلحون العباقرة فيعلموننا أن نحياها بطريقة أحسن .

ومعجزتهم هى هذا الإصلاح الاجتماعى ذاته .

وهى رخصة مفتوحة ليدعى أى واحد النبوة . . وليقول أى مصلح إنه آت من عند الله . .

ولا أدرى لماذا سمى السيد ميرزا رسالته ديناً . . وأطلق عليها الديانة البهائية . . وقال إنها ألقيت إليه من الله .

. لماذا لم يسمها وجهة نظر اجتماعية ألفها تأليفاً كما يؤلف المؤلفون أفكارهم بوحى الخاطر والهوى .

لماذا أعطى نفسه رخصة بأنه على صلة بما وراء الطبيعة مع أنه لا يعترف بالملأ الأعلى وراء تلك الطبيعة بما فيه من ملائكة .

وإذا كانت حجته فى هذه المزاعم هى أنه لم ير الملائكة ولا الجن ولا الشياطين فلماذا يلزم بها البشرية وفى هذه البشرية من سمع الجن ورأى الملائكة وخاطب الشياطين وعلم الغيب شهوداً .

هل الأعمى هو الذى يلزم المبصر؟

أم أن حجة المبصر الواحد تقوم فتلزم ملايين العميان الذين لا يرون الشمس إذا رآها مبصر واحد ؟

أتكون الشمس خرافة لا وجود لها إذا أنكر الأعمى رؤيتها ؟ وهل علينا أن نتبع أكثرية العميان لمجرد أنهم أكثرية ونجعل منهم حكماً فى أرقى المعارف والإلهامات البشرية . . التى تتطلب الرؤية كشرط أول ؟

وكيف يسمى ديناً ما يقوم أصلا على العجز عن الرؤية . . وعلى استحالة الإعجاز . وعلى عدم وجود الغيب ملائكة وشياطين . هى مجرد أسئلة .

وجوابها كلها واحد .

إنها اختلاقات النبى الذى أراد أن يدخل منتدى الأنبياء بلا مؤهلات . . ويتسلل إلى مائدة الخالدين دون أن يمتحن . . فأنكر المعجزة والغيب حتى لا يطالبه أحد بأوراق اعتماده فى السفارة الإلهية التى ادعاها .

وهو أمر يكشف خطورة التفسير الباطنى للقرآن . . وخطورة إغفال ظاهر الحروف ومقتضى الكلمات والعبارات . . وكيف يمكن أن تؤدى أمثال هذه التفاسير إلى اقتلاع الدين من أساسه .

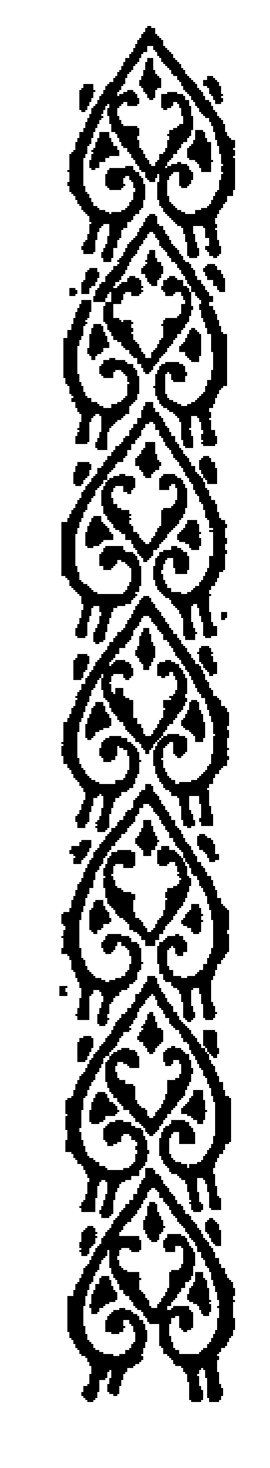
وهو ما كانت تلجأ إليه بالفعل فرق الخوارج والقرامطة والباطنية والبابية لتطويع القرآن لأغراضها فى هدم بعضها بعضاً .

وهذا ينتهى بنا إلى موقف فى التفسير لا بد من التزامه . . هو الارتباط بحرفية العبارة ومدلول الكلمات الظاهر ، لا ننتقل إلى تأويل باطنى إلا بإشارة وإلهام من الكلمات القرآنية ذاتها فنفسر القرآن بالقرآن ظاهراً وباطناً على ألا يتعارض تفسيرنا الباطن مع مدلول الكلمات الظاهر أو يكون نافياً له . . ولا يكون التفسير الباطنى مقبولاً إلا إذا كان مؤيداً ومؤكداً للمعنى الظاهر . . ولا ترخيص فيه إلا بضرورة ، وهذه هى الحدود التى تمليها طبيعة هذا الكتاب المحكم . . الذى لا يتقدم فيه حرف على حرف إلا بسبب عميق وضرورة لازمة .

بهذا وحده نحفظ للقرآن مقامه ، وللنبوة حرمتها . . فلا يدعيها مدع ، بعد أن قال الله عن قرآنه إنه قد ختم به النبوات .

الـغـيـبُ





انفرد القرآن بتخصيص سور طويلة يتلو فيها أنباء وأخباراً وحقائق هى طلاسم من الغيب المحجب . يحار فيها عقلنا ولا يملك لها نفياً ولا تأييداً . . وبذلك يتركنا أمام اختيار صعب فى أن نصدق أو نكذب . . نؤمن أو نكفر . فها هنا حقائق بلا قرائن ملموسة .

وتفسير هذه الأمور فى اعتقادى . . بالإضافة إلى كونها تفضلا إلهيًّا علينا بعلم ما لا نعلم ، أنها امتحان لعمق إيماننا .

ويدل على هذا ما ذكره القرآن عن المؤمنين :

« الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْب » . (الأنبياء – ٤٩)

و « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْب » . (البقرة – ٣)

وتكرر هذا فى أكثر من سورة ، والمقصود هم المؤمنون بالقلب الذين لا يطلبون القرائن ولا يلحون فى براهين ولا يدخلون فى مجادلات . . . ولا يقولون . . أرنا الله لنؤمن به . . وإنما يؤمنون به غيباً وقلباً .

ويدل على ذلك ما ذكره القرآن عن هواية الجدل والتقارع بالحجج . . .
وكيف أوردها كصفة مكروهة فى الإنسان .

« وَكَانَ الإنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً » . (الكهف – ٥٤)

فالدين إحساس قبل أن يكون نظرية تؤخذ بالبرهان .
وهو حالة قلبية أولا قبل أن يكون فلسفة عقلية .

وكامتحان لهذه الحالة القلبية وهذا الموقف القلبى يطرح علينا الله فى القرآن من الطلاسم الغيبية ما لا يمكن أن نقيم عليه برهاناً بالسلب أو بالإيجاب .

وبهذا يكشفنا أمام نفوسنا . . فإذا نحن نرفض ونكذب بالرغم مما تصورناه فى أنفسنا من إيمان . . لأنه لم يكن أكثر من إيمان قشرة . . كان مجرد جدل عقلى .

وأمثال هذه الطلاسم . . الملائكة . . والجن . . والساعة . . والعرش . . والكرسى . . والصراط . . والروح . . والميزان . . واللوح . . والقلم . . والبرزخ .

وأكبر طلسم ولا شك هو « الشيطان » نفسه .
إبليس وقبيله . . ويقول عنه الله :

« إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ (أنصار) لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ » . (الأعراف – ٢٧)

« وَمَنْ يَعْشُ (ومن ينصرف) عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (مصاحب وملازم) . (الزخرف – ٣٦)

وحكاية هذا القرين الشيطانى تتكرر فى عدة أماكن . ويروى لنا الله يوم القيامة حينما ينكشف لكل واحد قرينه الشيطانى وهو دائماً من الجن ، (وكانت وظيفته طوال الحياة الإغراء بالشر) . . حينما ينكشف له قرينه ويشاهده فإنه يهتف ندمان متحسراً :

« يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ » .

(الزخرف – ٣٨)

وهى آية شديدة اللطف والخفاء . . فنحن نعرف أن أبعد نقطتين على الأرض هما ما بين المشرق والمغرب .

ولكنه فى هذه الآية يقول : « يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين » يقصد بذلك أقصى البعد .

وهو أمر لا يمكن تفسيره إلا أن يكون مغرب الشمس هو فى نفس الوقت مشرقاً لها على مكان آخر . . وهو أمر لا يكون إلا على أرض كروية تدور . . فتصبح بذلك كلمة « بعد المشرقين » على أنهما أبعد نقطتين بالفعل . . أبعد حتى مما بين المشرق والمغرب .

وهذا المثال يدل على مدى الخفاء فى القرآن . . وأن فهمه يحتاج إلى كل الجهد . . وأن مثل هذه الآيات ما كان يمكن أن تفسر فى عصرها وزمانها .

وهذه إشارة بأن حكاية القرين من الجن هى أيضاً أمر غيبى لن يفهم الآن ولكن سوف يتضح فى ميقاته وزمانه ، ولكن علينا أن نؤمن إذا كان لنا قلب وإحساس وفطرة وروح تذكر ما كان لها فى عالم الملكوت .

والحقيقة أن الإيمان بالجن والملائكة قلباً . . هو دليل كاشف على نوع

من التذكر الغامض لعالم القدس والملكوت وأنه إيمان دال على شيء وليس مجرد تسليم خاو .

ثم يروى لنا الله فى القرآن أن الإنسان لا يترك لقرين الشر من الجن وإنما له قرين آخر من الملائكة يلازمه ويلهمه الخير .

ويظهر هذا القرين الملائكى ليشهد يوم القيامة ويخبر عن صاحبه .

« وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىَّ عَتِيد » . (ق — ٢٣)

ثم هناك ملائكة كاتبون وملائكة حافظون تعمل فى خدمة الإنسان دون أن يراها .

« وإنَّ عليكمْ لحافِظِينَ . كراماً كاتبينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلونَ » .

(الانفطار ١٠ — ١٢)

ثم هناك ملائكة العرش .

« وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَة » . . (الحاقة — ١٧)

كيف تحمل ثمانية من الملائكة عرش الله . . ؟ أم هى ثمانية صفوف كل صف فيه ما لا نهاية من الملائكة أم هى ثمانية قوانين فيزيقية أو ميتافيزيقية . لا أحد يعلم ، فالقرآن لم يحدد وإنما قال ثمانية وسكت ، ولم يقل لنا ثمانية ماذا ؟

ثم ما هو العرش . . أهو رمز ؟

وما هو الكرسى ؟

إن الله يوصف فى آية الكرسى بأنه :

« وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرض » . (البقرة — ٢٥٥)

ومعنى هذا أن كرسى الله وسع السماوات والأرض بما فيهما .

فإذا كان هذا هو الكرسى فما بال العرش بأسره . . وكيف تحمله مخلوقات .

أم هى مخلوقات غير ما نعرف على الإطلاق . . ولعلها كائنات كهرمغنطيسية هائلة .

ألا تمسك قوانين الجاذبية بالشمس والنجوم فى فضاء الكون وكأنها أيدى وأصابع هائلة .

وقد يكون « العرش » مجرد كلمة مجازية كما نقول عن الكعبة مجازاً إنها « بيت الله » . . كذلك نتكلم عن « عرش الله » .

ثم هناك جبريل رسول الملائكة وروح القدس .

ويروى عن النبى أنه رآه مرتين على صورته الحقيقية . . ويذكر الحديث أن إحدى هاتين المرتين كانت فى البقيع وفى ليلة مقمرة وأن مرأى ذلك الملاك قد سد الأفق وملأ جنبات السماء . . وأن النبى وقع مغشياً عليه من فرط الرهبة .

« وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى . عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى » (النجم ١٣ ، ١٤)

وجاءت صفات جبريل وقوته فى سورة التكوير .

« إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ » .

(التكوير – ١٩ ، ٢٠)

والرسول الكريم هنا هو جبريل ذو القوة والمكانة عند ذى العرش .

ثم هو المعلم الذى وصفه القرآن بأنه شديد القوى « إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى » ٤ – ٥ – النجم .

وحينما يصف الله أحد مخلوقاته بأنه « شديد القوى » وبأنه ذو القوة والمكانة فلا بد أنه هائل عظيم فى قوته وفى إمكانياته .

ونفهم من القرآن أن جبريل يمكن أن ينزل إلى الأرض فى أية صورة ويحمل الوحى إلى أى نبى فى أى عصر بأية لغة .

وعن بقية الملائكة من ذوى الرتبة العادية . . يقول القرآن بلسانهم . « وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَـهُ مَقَامٌ مَعْلُوم » . أى أن كل واحد يقتصر عمله على دور محدد ووظيفة واحدة . . لا تتعدد لياقات الملك وكفاياته ووظائفه كما تتعدد وظائف الإنسان ومواهبه . . فالإنسان مفضل على كثير من الملائكة فالله قد « عَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا » . وحينما سأل الملائكة عن تلك الأسماء قالوا « سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا » .

والأسماء هى عديد المعارف والمواهب التى فضل بها الإنسان على غيره من المخلوقات .

ويعلمنا الله أن الملائكة ليس لهم جنس معين فهم ليسوا بالذكور ولا بالإناث وهم لا يتناسلون ولا يأكلون ولا يشربون مثلنا ويؤكد أنهم ليسوا بناته ولا أبناءه بل مجرد مخلوقاته . وكيف يكون له أبناء وله الملك والملكوت كله وهو الخالق لما يشاء . . ويقول إنهم يعيشون فى طاعة وليست لهم حرية الإنسان فى أن يعصى .

« لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلونَ مَا يُؤْمَرُون » . (التحريم-٦)

ويروى الله عن الجن تفصيلاً فيقول إنهم أمم منهم الصالحون الأخيار ومنهم الكفرة الأشرار . . وإنهم ذكور وإناث وإنهم يتناسلون . . وإنهم يستمعون إلى ما يدور فى عالم الإنس ويوسوسون لهم . . ومنهم المردة الذين يتطاولون فيتسمعون إلى ما يجرى فى الملأ الأعلى أملا فى معرفة الغيب فيقذفون بالشهب ويحرقون ، ومنهم من يمس الإنسان فيصيبه بالضر ولكنه لا يستطيع

أن يفعل ذلك إلا بمشيئة الله . . كما أن الشفاء لا يمكن أن يتم إلا بمشيئة الله . . أما محاولة استرضاء الجن بتقديم الذبائح والقرابين لاستجلاب الشفاء فهو جهل وشرك . . كذلك تحضير الجن لتسخيرهم للمنافع أمر يعود فى النهاية بالضرر وليس بالنفع على أصحابه .

« وأنَّه كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِن الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً » .

(الجن - ٦)

وعلى لسان الجن يروى القرآن حكاية الاستماع والتسمع .

« وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً . وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً . وَأَنَّا لاَ نَدْرِى أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِى الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً . وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً » .

(الجن - من ٨ إلى ١١)

ويؤكد القرآن أن الجن لا يعرف الغيب وأنه يتسمع دون جدوى لأنه معزول عن السمع .

« إِنَّهُمْ عَنَ السَّمْعِ لَمَعْزُولُون » . (الشعراء - ٢١٢)

وأنهم يموتون ويبعثون ويحاسبون كأبناء آدم .

ويروى ما كانت تفعل الجن أيام سليمان وكيف سخرها الله لخدمته .

«ومِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ . يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالجَوَابِ (أى أوان هائلة كالحياض) » .

(سبأ - ١٢ ، ١٣)

ثم يروى عن خطف عرش بلقيس :

« قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ . قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ».

(النمل – ٣٩ ، ٤٠)

ونفهم من الآية أن « الذى عنده علم من الكتاب » كان أقوى من الجن وأقدر فهو قد أتى بالعرش فى لمح البصر .

ومرة أخرى يشير إلى جهل الجن فى سورة سبأ .

« فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ (على سليمان) مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ (عصاه) فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي العَذَابِ الْمُهِينِ (عذاب التسخير لسليمان) » .

(سبأ – ١٤)

فهنا رجل يموت وهو واقف على عصاه فلا يكتشف الجن من حوله أنه مات ويظلون على حالهم من السخرة فى خدمته . . حتى تأكل حشرة قارضة عصاه من أسفلها . . فيختل توازن جثته وتهوى على الأرض . . هنا فقط يدرك الجن أن سليمان مات وهذا غاية الجهل .

ثم يروى لنا القرآن أن الله علم سليمان لغة الطير ولغة النمل .

« حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأَيُّها النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ . فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ

صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ » .

(النمل – ١٨ ، ١٩)

ومثل هذا الحديث عن لغة النمل كان أمراً مستغرباً فى الماضى . . . ولكن العلم يقول الآن بناء على الشواهد والملاحظات إن النمل له لغة وكذلك النحل . . وكل فصائل الحشرات التى تبنى مجتمعات وخلايا وتنظيمات . . فبدون لغة متبادلة كان يستحيل على تلك الألوف المؤلفة من الحشرات أن تنتظم فى حياة وتتوزع بينها الوظائف .

وإدراك نملة لسليمان أمر ممكن مثل إدراك سليمان لله .

ثم نأتى إلى الشيطان فيعلمنا القرآن أنه من فصيلة الجن هو وقبيله ولكنهم أمهلوا فلا يموتون إلا إذا قامت الساعة فيكون موتهم ثم بعثهم ليخلدوا بعد ذلك فى الجحيم .

والشياطين هم الذين علموا الناس السحر . . وما يفرق به الساحر بين رجل وزوجته .

ويروى القرآن أن أساليب السحر جاءت إلى الأرض لأول مرة فى بابل نزل بها ملكان هما هاروت وماروت جاءا إلى الأرض فى شكل بشر . . وأن الله أراد بنزول هذه الأسرار فتنة الناس وامتحانهم . . ويتكرر دائماً فى القرآن وفى أكثر من مكان حكاية امتحان النفس الإنسانية بالخير والشر .

« كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً » (الأنبياء – ٣٥)

والشر فى الآية مذكور قبل الخير كوسيلة امتحان .

ونزلت قصة هاروت وماروت فى سورة البقرة .

« وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا

نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم » .

(البقرة – ١٠٢)

وبذلك يؤكد الله أنه حتى السحر بالضرر لإنسان لا يفعل أثره إلا بمشيئة الله .

وفى ذلك اعتراف ضمنى صريح بمسألة السحر . . وتحقيق عن كيفية نزوله وتاريخه ومكانه ، ولكنه يدمغ السحر والسحرة .

« ولا يفلح الساحر حيث أتى » (طه – ٦٩)

« أسحر هذا ولا يفلح الساحرون » . (يونس – ٧٧)

وهذا السحر الذى يتكلم عنه القرآن . . والذى جاء ذكره مرة أخرى فى قصة موسى وفرعون . . حينما جلب فرعون السحرة وألقوا بحبالهم وعصيهم فإذا هى حيات تسعى ، ومرة ثالثة فى حديث السامرى وهو اليهودى الذى صنع بالسحر عجلاً من الذهب له خوار . . ثم حكاية الساحرات النفاثات فى العقد . هذا السحر الذى ورد فى القرآن هو علم قديم اندثر . . وهوغير ما نرى حولنا ونسمع من شعوذات ، فلم يبق الآن من السحرة إلا أدعياء يتكلمون بما لا يعرفون . . ويزعمون ما لا يقدرون . . أما المخطوطات القديمة التى ضمت معظم هذه الأسرار فقد اندثر أكثرها . . ولم تبق إلا قصاصات اختلط فيها العلم بالخرافة . وكذلك النداء على الجن وتحضيره وتسخيره هو الآخر علم شحيح لا يعرفه فى أصوله إلا قليلون . . وهم يشقون بهذه المعرفة ويهلكون .

أما موقف العلم والعقل من هذه الأسرار . . فهو بإيجاز أنه لا يعلم ولا يعقل .

وبعض الظواهر التى هى من قبيل السحر . كالتنويم المغنطيسى يعترف بها العلم دون أن يجد لها تفسيراً .

لا يعرف العلم إلى الآن كيف تتسلط إرادة المنوم على الوسيط وكيف يتصل عقل الاثنين فيصبحان كعقل واحد ما يراه المنوم يراه الوسيط النائم . . وما يطلبه المنوم يستجيب له الوسيط فوراً ولو كان أمراً بالشلل أو الغيبوبة . . أو الارتفاع فى الهواء .

كل ما فعله العلم أنه أطلق على هذه الأشياء أسماء ومصطلحات مثل الإيحاء والوساطة . . ونشاط العقل الباطن . . مجرد ألفاظ .

وبالمثل ظاهرة كالتليباثى . . والجلاء البصرى ، والكشف ، والهواتف .

كل هذه حقائق أغرب من السحر يسجلها العلم ثم لا يعرف لها تفسيراً ولا يعقلها .

فإذا جئنا إلى البرزخ :

« وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ » . (المؤمنون — ١٠٠)

ذلك البرزخ الذى يفصل أرواح الموتى عن دنيا الأحياء فإن القرآن يعود فيلقى الضوء على معناه فى آيتين منفصلتين .

« وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً » . (الفرقان — ٥٣)

والحجر المحجور هو المنع الممنوع المحظور .

والآية تتحدث عن أحواض البحار والمحيطات الملحة وأنهار المياه العذبة

كيف تلتقى ويصب الواحد منها فى الآخر دون أن تمتزج ودون أن تتلوث الأنهار العذبة بالملوحة . . فتظل الأنهار عذبة والمحيطات ملحة بما أقام الله من برزخ (فاصل أو حاجز) بينهما .

ويتكرر الكلام نفسه فى آية أخرى بسورة الرحمن .

« مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَ يَبْغِيَانِ » .

(الرحمن — ١٩ ، ٢٠)

ومن الواضح هنا أن البرزخ ليس مجرد الأرض الفاصلة . . فالأرض الفاصلة لم تمنع من مسيل الأنهار لتصب فى المحيطات . . وإنما فى القوانين التى جعلت المحيطات فى الخفض من الأرض والأنهار تنزل إليها من عوالى الجبال ولو حدث العكس لتلوثت كل المياه العذبة . . ثم إن الله جعل مياه المحيطات ترتفع فى المد (بفعل جاذبية القمر) ولكن بمقدار ولو كان القمر أقرب إلى الأرض مما هو . . لكان المد العالى الذى يحدث كفيلاً بأن تصب المحيطات فى الأنهار فتلوثها ولما وجدنا قطرة ماء نشربها .

إن البرزخ . . والحجر المحجور . . والمنع الممنوع . . كلها إشارات إلى القوانين الفيزيقية التى تمنع وتضبط وتحفظ لكل شىء حدوده ومكانه .

وهذا يفسر لنا ما قاله القرآن عن الموتى .

« وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ » . (المؤمنون — ١٠٠)

فليس معنى البرزخ هنا فاصل مكانى يفصل أرواح الموتى عن دنيا الأحياء . . وإنما معناه القوانين المانعة . . فالأرواح بعد الموت تبدأ حياة ذات قوانين مختلفة . ولهذا يستحيل عليها أن تخاطبنا ويستحيل علينا أن نخاطبها لأن بيننا برزخاً . هو اختلاف القوانين بين عالمنا وعالم الأرواح . . ، مع أنها قد تكون حولنا فى ذات اللحظة والمكان ، ولكن الاتصال يظل

مستحيلاً ومعدوماً لاختلاف قوانين وجودها عن قوانين وجودنا وهذا هو البرزخ .

ومن هذه الآيات نفهم أسلوب القرآن فى التعبير بالشفرة عن الأسرار والغيوب . . فهو ليس كتاباً فى الهيدروليكا أو الفيزيقا ليخوض فى تفاصيل علمية . . وإنما هو يكتفى بلفظة ذات دلالة مثل . . برزخ . . كلمة جميلة موحية لها ظلال وإيحاءات . . ثم يتركنا نفكر . . ونصدق أو نكذب .

أما القلم واللوح . فإنا نجد الله يقسم بالقلم وما يسطر به .

« ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُون » . (القلم — ١)

وهو ليس قلمنا الذى نكتب به المقالات وتلهمنا فيه الشياطين . . وإنما المقصود هنا القلم الإلهى الذى يكتب به الله أقدارنا فى اللوح المحفوظ . . أو القلم الذى تسطر به الملائكة ، والله فى القرآن يكتب ويمحو .

« يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ » . (الرعد — ٣٩)

وهو كلام محير يفهم من ظاهره أن الله مثلنا يكتب ويشطب ويراجع النفس . . وهو غير صحيح . . والتفسير الأصح أن الآية دلالة على سعة المغفرة والرحمة بدرجة تصل إلى المحو . . إلى محو السيئات بإلهامنا الحسنات

« إنَّ الْحَسَنَات يُذْهِبْن السَّيِّئَات » . (هود — ١١٤)

والله حر فعال لما يشاء لا يسأل عما يفعل . . وبذلك أفسح الله الأمل للتائبين وهذا دليل على مطلق حرية الله ومنتهى رحمته .

ونفهم هذه الحرية المطلقة مرة أخرى فيما يروى القرآن عن أيام الله فهو يقول فى إحدى الآيات .

« وَإنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَألْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّون » .

(الحج — ٤٧)

وفى آية أخرى يقول عن الملائكة .

« تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » .

(المعارج — ٤)

ومعنى هذا أن أيام الله هى كما يشاء الله ، فهو يخلق يوماً بألف سنة وهو يخلق يوماً آخر بخمسين ألف سنة . . وهو ليس خاضعاً لما يخلق من أزمان مثلما نحن خاضعون وإنما هو فوقها جميعاً ومتعال عليها . وهذا شرح فلسفى بديع لمعنى الأبدية والتعالى على الزمن .

كل هذه المعانى تبرق كالومض فى كلمات وتفوت العقل إذا لم يجاهد فى سبيلها . . وقراءة القرآن فى نظرى جهاد . ومن يقرأ القرآن بخفة ثم يرفض ما فيه . . يظلم نفسه . . ولا يظلم القرآن شيئاً .

وأعمق ما فى القرآن هو ما ورد عن الغيب . . ورب كلمة من حرفين تمر عليها وأنت لا تبصرها وفيها سر وجودك كله .

ورب حقيقة تشيح بيدك وأنت تقرؤها فى استهزاء . . وتقول . . كيف . . هذه أساطير . . هذا كلام غير معقول . . لمجرد أنك قرأت كتاباً بالإنجليزية واعتبرت نفسك مثقفاً .

وأحسن رد عليك هو كلمة المسيح :

« لو أنك عملت بما تعلم . . لكشف لك الله علم ما لا تعلم » .

لو أنك سلكت طريق طالب العلم الحقيقى المخلص الذى يقرأ كل العلم المتاح له ويفهم ما فيه ويعمل بما فيه . . لأصبحت مستحقاً . . وعلمك الله علم ما لا تعلم وفتح قلبك لما غمض عليك مما تراه كلاماً بلا معنى .

وهو نفس طريق الصوفية المسلمين لإدراك الغوامض بالكشف . . ولرؤية الغيب شهوداً . . وهو قراءة القرآن والعمل به وتطبيق كل حرف فيه والنداء على الله بأسمائه فى خشوع وطلب العلم والتعلم . . وانتظار الفتح .

وهو وعد القرآن نفسه .

« وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا »

(العنكبوت — ٦٩)

ووعد الإنجيل .

« اطلبوا تجدوا دقوا على الباب يفتح لكم »

على أن يكون دق الباب بجماع القلب والهمة وانقطاع البال وخلوص النية . . وليس مجرد شقشقة لسان . بدعاء تقليدى . وحينئذ يتفضل عليك الله كما يتفضل على أحبائه وأوليائه فيفتح بصيرتك لترى الملائكة شهوداً وترى الغيب حضوراً وتسمع ما لا أذن سمعت .

« وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ » . (الأنفال — ٢٣)

« واتَّقُوا اللهَ ويعلمكُمُ اللهُ »

والله لا يكذب وعده أبداً . . ولكن نحن الذين نكذب وعودنا .

« وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً » .

(طه — ١١٥)

ونأتي إلى ذروة الغيب . . وهى الساعة .

والساعة هى ذروة الغيب المغيب التى لم يكشفها الله لأحد ولا حتى لأنبيائه .

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيها

لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِى السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ » .

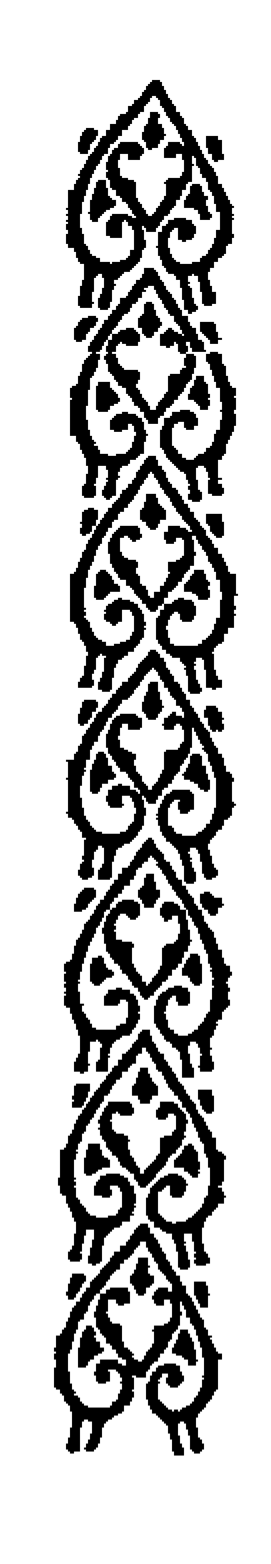
(الأعراف – ١٨٧)

إنه لعلم اختص الله به نفسه دون الخلق جميعاً وإنه لعلم رهيب كما سوف نرى .

* * *

السّاعة





الساعة ذروة الغيب .

وعلمها محجوب عن الكل ، اختص الله به نفسه دون العالمين .

ولكنه يحدثنا فى القرآن عن أشراط وعلامات لهذا اليوم ، ويصف لنا بعض تلك العلامات .

« فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ . يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ . أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ . ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ . إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ . يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ » .

(الدخان – من ١٠ إلى ١٦)

ونجد إشارة إلى هذا الدخان فى رؤيا يوحنا اللاهوتي الإصحاح الثامن « ففتح بئر الهاوية فصعد دخان من البئر كدخان أتون عظيم فأظلمت الشمس والجو من دخان البئر » .

ويقول يوحنا فى رؤياه إن هذا الدخان لا يقتل الناس وإنما يعذبهم خمسة أشهر « وفى تلك الأيام سيطلب الناس الموت ولا يجدونه ويرغبون فى أن يموتوا فيهرب الموت منهم » .

إنها ظاهرة طبيعية يقول عنها القرآن كما يقول يوحنا اللاهوتى فى الكتاب المقدس كلاماً متوافقاً .

إننا أمام دخان سوف يلف الأرض ويحجب الشمس . . ويتعذب به الناس عذاباً شديداً لأجل محدود . . ثم يكشف الله عنهم .

ثم يخبرنا القرآن بعلامة أخرى فى سورة النمل :

« وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ » .

(النمل – ٨٢)

« اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانْشَقَّ الْقَمَرُ » .

(القمر – ١)

والله يقول لنبيه أن ينذر كل ظالم من هذا اليوم :

« وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاع » . (غافر – ١٨)

ولا شك أن الكل سوف يؤمن حينما تظهر تلك العلامات حينما ينشق القمر وتخرج من الأرض دابة تتكلم ، لا تبقى ريبة فى قلب مرتاب . . لكنه سوف يكون إيماناً فات أوانه لأنه إيمان المقهور الذى لا فضل له ولا اختيار . . انتهازاً للخير الأكيد الموعود . . كما يتسابق الانتهازيون فى إعلان الطاعة والولاء ويمشون فى ركب كل نظام جديد حينما يرون ركائزه قد دعمت وثماره قد دنا قطافها ولهذا لن يقبل الله هذا الإيمان .

« يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً » . (الأنعام — ١٥٨)

إنه دائماً يتقبل من الذين يؤمنون بالغيب . . دون حاجة إلى برهان ، ودون حاجة إلى عيان .

بعيان القلب وليس بعيان النظر . فالغيب امتحان .

هل يرى القلب ما لا تراه العين فيصدق ويؤمن غيباً ؟ !

إن فعل فقد دل بفعله على مرتبته العالية وانفتاح بصيرته واستحقاقه الخلاص .

وإن لم يفعل فهذه شهادة بأنه لا يرى ولا يسمع ولا يعقل إلا كما ترى الدواب وتسمع . . بالحواس الظاهرة . وقد دل بذلك على مكانه في أسفل الدرجات .

ثم تأتي العلامة الأخيرة وهي يأجوج ومأجوج .

وهي قصة غامضة كلها رموز . . يتحدث فيها القرآن عن فاتح رحالة يجوب أقطار الأرض اسمه « ذو القرنين » وفي أثناء رحلته في مكان ما بين السدين :

« وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْماً لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً . قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً (أجراً) عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً . قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً . آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ (كتل الحديد الكبيرة) حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ (جانبي الجبل) قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً . (نحاساً مذاباً) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ

يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً . قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا . وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً » .

(الكهف – من ٩٣ إلى ٩٩)

ها هنا قصة غامضة تماماً يتخبط فيها المفسرون .

البعض يقول إن يأجوج ومأجوج هم نسل يافث بن نوح . . وإنهم هم الجنس الأصفر . . الصين وما فى دربها . عاشوا فى آجال وأحقاب من الجهالة والتخلف ، والشعوب المتقدمة من حولهم تبنى أسواراً من النعيم والتصنيع . . وذو القرنين وصهر الحديد والنحاس كلها رموز للعلم والصناعة التى كانت دائماً تحجزهم وراء حاجز من الجهل والتخلف وتقيم حولهم سداً .

حتى إذا جاء اليوم الموعود ونفضوا عن أنفسهم هذا التخلف وأخذوا بأسباب الصناعة ، وصنعوا الحديد والصلب والقنبلة الهيدروجينية . . وتكاثروا إلى آلاف الملايين . . وهدموا السد (ولم يكن ذلك السد إلا رمز الجهل الذى يعزلهم عن العالم) ساحوا فى الأرض ونزلوا من كل حدب ينسلون ، وكانت الحرب التى تضع ختام الحياة .

وأذكر الآن حديثاً بين الماريشال مونتجمرى وماوتسى تونج فى لقاء بينهما منذ أكثر من عشرين عاماً ألقى فيه الماريشال العجوز هذا السؤال على زعيم الصين . . عن المخاوف التى تتردد فى الأذهان من غزو الصين للعالم .

وكانت إجابة الزعيم الصينى دقيقة جداً وما زلت أذكرها بحذافيرها . . فقد قال :

– كل ما أعلمه أن فى عهدى لن يحدث هذا . . أما بعدى فلا أدرى .

وهى إجابة دقيقة وصادقة . . فلا الرجل ولا نظامه يحملان عداء لأحد . . وإنما يقدمان العون والصداقة لكل الشعوب .

ولكن بعد ماوتسى تونج . . وبعد أن تصبح السبعمائة مليون ، ألف مليون . . لا يدرى إلا الله . . ماذا يكون من أمر الصين .

ولا يعنى هذا الكلام أن التفسير صادق . . فالأمر كله رجم بالغيب ، ولا يعلم الغيب إلا الله . . وكل ما ذكر فى تفسير قصة يأجوج ومأجوج هو تخمين فى تخمين . . وعلى رأى المتصوفين . . هذه أمور تفسيرها حدوثها .

ومع هذا فإنا لو فتحنا الإصحاح العشرين من سفر الرؤيا وقرأنا ما يقوله يوحنا اللاهوتى عن يأجوج ومأجوج فإنا نراه يقول المعاني نفسها ويشير الإشارات نفسها .

« متى تمت الألف سنة يحل الشيطان من سجنه ويخرج ليضل الأمم الذين فى أربع زوايا الأرض . . يأجوج ومأجوج ، ليجمعهم للحرب وعددهم مثل رمل البحر » .

ما هذه الأمة التى عددها كرمل البحر . . والتى سوف تحتشد لتحارب العالم . . عندما تتم السنة الألف .

ولعله يقصد الألف الثانية ميلادية . . وباق عليها الآن أقل من ثلاثين سنة .

هى أمور تثير الخيال . . وهى نبوءات تتداعى الواحدة لتؤيد الأخرى ولا نملك إلا الصمت . فمثل هذه التأويلات لا يحق لنا أن نؤولها . . والوحى يقول لنا عن القرآن :

« وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ » . (آل عمران – ٧)

هو وحده الذى يملك مفتاح ما فيه من رموز . . وهو وحده الذى عنده علم الساعة .

والاجتهاد مباح فى أمور الدنيا لكن القطع فى أمر غيبي أكبر خطأ يتورط فيه قارئ للقرآن فضلاً عن أنه ليس فى مقدورنا .

ويروى لنا القرآن أن الساعة ستأتي حينما تبلغ الأرض ذروة حضارتها ويبلغ الإنسان غاية تقدمه ، فتأخذ الأرض زخرفها وزينتها . . ويظن الإنسان أنه تحكم فى كل شيء وأصبح قادراً على كل شيء . . فهو يتحكم فى الأمطار ويزرع الصحارى ويداوى ما استعصى من أمراض وينقل القلوب والعيون من موتى إلى أحياء ، ويسافر بين الكواكب ويفجر الذرة وينقل الجبال . . إن الله يتوعدنا منذراً :

« حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ » .

(يونس – ٢٤)

وفى الآية لطف وخفاء . . فالله يقول إن الساعة تأتي ليلاً أو نهاراً ، ولا تفسير لذلك إلا أن تكون الأرض كروية دوارة نصفها ليل ونصفها نهار ، فإذا جاءت الساعة وهى تأتي فى لحظة :

« وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ البَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ » .

(النحل – ٧٧)

فإن نصف سكانها يكونون فى ليل والنصف الآخر فى نهار . . فلا يصدق الخبر لو قال إنها تأتى نهاراً ولا يصدق لو قال إنها تأتى ليلاً والله

لا يكذب وعده أبداً ولهذا يقول فى لطف وخفاء إنها تأتى ليلاً أو نهاراً .

ومما يدل على أهمية هذه الإشارة تكرارها فى آية أخرى عن الساعة :

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ » .

(يونس — ٥٠)

مرة أخرى يقول إن ذلك العذاب المفاجئ سوف يأتى بياتاً أو نهاراً . . وهى إشارة لنا لنتفكر .

وهكذا يصل بنا القرآن إلى العلامة الأخيرة من علامات الساعة وهى نفخة الصور وقيام القيامة .

والمشاهد التى يرويها القرآن للقيامة رهيبة يتثلج لها الدم فى العروق . . فالشمس تخسف والقمر يكسف والجبال تنسف والنجوم تنكدر والبحار تنفجر والأرض تتزلزل وكل الأحياء فى الأرض والسماوات تصعق إلا من يشاء الله أن يحفظه ليشهد هذا اليوم .

يحدث هذا مع نفخة الصور الأولى .

ومع النفخة الثانية يبعث الكل ويبدأ الحساب .

ونجد فى رؤيا يوحنا اللاهوتى صورة مشابهة للقيامة .

يقول الإصحاح السادس :

« ونظرت لما فتح الختم السادس وإذا زلزلة عظيمة حدثت والشمس صارت سوداء كمسح من شعر والقمر صار كالدم ونجوم السماء سقطت إلى الأرض كما تطرح شجرة التين سقاطها إذا هزتها ريح عظيمة والسماء انفلقت كدرج ملتف وكل جبل وجزيرة تزحزحا عن موضعهما » .

وفى سورة الانفطار يصف القرآن القيامة :

« إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ . (أى انشقت) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ . وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ . وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ » .

(الانفطار – من ١ إلى ٤)

وفى سورة التكوير :

« إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ . وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ . وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ . وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ . وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (أى فجرت ناراً) » .

(التكوير – من ١ إلى ٦)

وفى كل الروايات التى يرويها القرآن عن القيامة يذكر لنا فيها أن الله يتنزل هو وملائكته .

و تبدو لى القيامة دائماً أشبه بصورة مكبرة لما حدث لحظة طلب موسى أن يرى ربه . . ويروى القرآن ما حدث إذ ذاك تفصيلاً فى سورة الأعراف :

« قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً » .

(الأعراف – ١٤٣)

وهذا ما نراه يحدث مكبراً فى كل صور القيامة .

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً . فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً » .

(طه – ١٠٥ ، ١٠٦)

« هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فى ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلاَئِكَةَ وَقُضِيَ الأَمْرُ » .

(البقرة – ٢١٠)

« وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ . وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا » .
(الحاقة — ١٦ ، ١٧)

« كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا . وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا » .
(الفجر — ٢١ ، ٢٢)

« وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً . وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً » .
(النبأ — ١٩ ، ٢٠)

« وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِى الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ . وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ » .
(الزمر — ٦٨ ، ٦٩)

هناك دائماً حضرة ربانية وتجل مثل الذى صعق موسى ودك الجبل . . ولكن هذه المرة يصعق الكل ويدك جميع الجبال .

ولهذا نرى القرآن يتحدث فى مكان آخر عن الحجارة :

« وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ » (البقرة — ٧٤) . . لا شيء يتحمل الحضرة الربانية حتى الحجر يهبط . . ويبدو أن القيامة ما هى إلا التجلى الرباني الذى لا تحتمله جميع صور المادة فتذوب . . فلا شيء يرتفع أمام وجه الله . . الجبال تذوب خشوعاً وتحنى هاماتها ثم تتبخر وتصبح سراباً . . كل صنوف الحياة تصعق . . لا صوت . . لا حياة . . لقد رفع الله الحجاب عن سبحات وجهه . « وأشرقت الأرض بنور ربها » .

ويقول يوحنا اللاهوتى عن هذا النور فى الإصحاح الواحد والعشرين من رؤياه :

« والمدينة لا تحتاج إلى الشمس ولا إلى القمر ليضيئا فيها لأن مجد الله قد أنارها » .

وهو النور الذى لم تحتمله المخلوقات أول الأمر فصعقت ثم بعثها ربها فى نشأة أخرى ليكون الحساب .

« وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لاَ تَعْلَمُونَ » . (الواقعة – ٦١)

ومعنى هذا أن النشأة الثانية سوف تكون على صورة مغايرة لا نعلمها . .

ويتحدث القرآن دائماً عن لقاء بين كل إنسان وبين ربه .

« وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً » . (مريم – ٩٥)

« وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » .

(الأنعام – ٩٤)

« يَأَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ » .

(الانشقاق – ٦)

« إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لاَ خَلاَقَ (لا نصيب) لَهُمْ فِى الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » . (آل عمران – ٧٧)

« ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً » . (المدثر – ١١)

« وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » .

(البقرة – ٢٢٣)

« فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً » .

(الكهف – ١١٠)

وهو لقاء لا يمكن أن يتم والإنسان فى صورته البشرية . . فإذا حدث فهى قيامة تصعق لها جميع المخلوقات وتندك الجبال والبحار و « تُبَدَّل الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ » . (إبراهيم – ٤٨)

وفى ذلك يقول يوحنا اللاهوتى : « ثم رأيت سماء جديدة وأرضاً جديدة لأن السماء الأولى والأرض الأولى مضتا والبحر لا يوجد فيما بعد » .

لأننا نقوم كلنا للقيوم .

ومن هنا كان اسمها قيامة .

« لمَن الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّار» . (غافر – ١٦)

انتهت الخلافة الوهمية التى كان كل منا يتصرف فيها كأنه إله وملك له ملك ورعية ، وحاكم يحكم فى بيته ومملكته . . حتى ظن بنفسه الظنون وتخيل أنه شىء . .

هنا يعود الملك للمالك الحقيقى .

لقد حضر صاحب الشأن ، الخالق الذى خلق كل شىء . . وإليه يعود كل شىء .

القيامة باختصار هى تجلى الله بذاته .

ولا شك أن الله موجود دائماً فى كل مكان وفى كل آن ولكن . . فرق بين وجوده وبين تجليه بذاته .

وبالتجلى بالذات يحدث القهر التام لكل شىء والفناء للصور المادية بأسرها فلا صورة بالمادة يمكن أن تقوم أمام ذات الله فى توحده وكماله وتجليه .

هذا ما ينتهى إليه تدبر الآيات فى مسألة القيامة .

أما تفسير القيامة بنظريات علمية عن اصطدام القمر بالأرض أو فناء

الشمس . . أو تقلص الكون واحتراقه أو تمدده فى الفضاء . . أو اصطدام المادة بالمادة المضادة . .

فكل هذا فضول لا مبرر له . .

فالإنسان يموت بأسباب وبدون أسباب . .

وكما يموت الإنسان الفرد تموت الأمة وتموت الحضارة وتموت أجناس الحيوان بأسرها . . وتموت النجوم فى أفلاكها .

لا حاجة إلى كدح الذهن فى أسباب للنهاية والتناهى .

إنه الناموس الذى أقامه الصانع الذى صنع كل شىء .

وإذا قال لنا الصانع إنه سيقيم قيامة . . فإننا لسنا بحاجة إلى اصطناع نظريات . . وأسباب . . ومبررات . . والمبررات لمن . . إنه الآمر الذى يأمر ولا سواه .

ونفخة الصور هى رمز للأمر .

ولهذا يأتي الأمر فى القرآن بأكثر من اسم .

مرة . . نفخ فى الصور

ومرة . . نقر فى الناقور

ومرة . . هى الزجرة

وأخرى . . هى الزلزلة

وأخرى . . هى الدمدمة

وكلها رموز للأمر . . ولكلمة «كن فيكون» .

لقد جاء الأمر . . وهذا كل شيء .

إنه الناموس .

أن تكون لكل شيء قيامة .

أن تكون هناك قيامة صغرى لكل منا بالموت .

وقيامة كبرى يفنى فيها الزمن فى الأبد ويعود الكل إلى أصله ومنبعه .

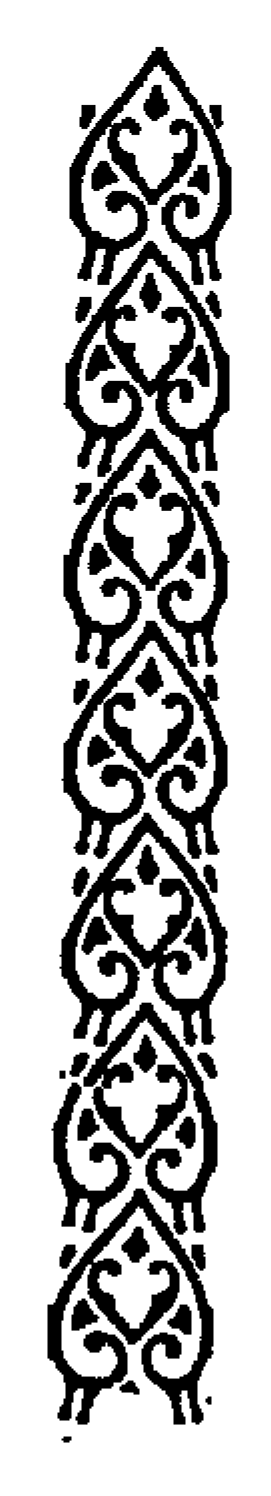
لا محل لشك أو ريبة .

وإنما هناك كل الدواعى والشواهد لأن يسلم الإنسان بالقلب بلا مجادلة وبلا مساءلة .

* * *

البَعث





يخاطب الله نبيه فى القرآن فيقول :

« إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » . (الزمر — ٣٠)

لا يقول إنك ستموت . . بل يقول : « إنك ميت » . . إنك تحيا بِي وتسمع بِي وتنطق بي . . وهذا شأن كل بشرى ، يحيا بالله ، ويرى بالله ، ويسمع بالله . . ولكنه فى ذاته ميت . . لا حياة له بذاته ، وإنما الكل معتمد فى وجوده على الواحد الذى خلق . . المستغنى بوحدانيته عن كل شىء .

وفى كلمة « إنك ميت » عنف يوقظ الإحساس . . إنها تضعك أمام واقع مفزع وأمام حالة فى الحاضر لا حالة متوقعة فى المستقبل .

وإن الواحد منا ليحمل جثته على كتفيه بالفعل ، وفى كل قطرة عرق وقطرة لعاب يطرح بضعة ماتت من جسده . . كما تطرح الشجرة أوراقها الميتة كل يوم .

إن الموت حاضر فى كل لحظة ومؤجل فى كل لحظة .

ولا حى بحق إلا الله .

إنما نعيش نحن على استعارة وقرض وسلفة نستعيرها منه . . على مجرد منحة بأجل .

ويقول الله لمحمد فى حديث قدسى :

« عش ما شئت فإنك ميت . . أحبب من أحببت فإنك مفارقه . . امتلك ما امتلكت فإنه للتراب . . اعمل ما عملت فإن عملك مصاحبك » .

عبثاً نحب . . فإننا نحب لنفارق من أحببنا ، فهو حب إلى حسرة وخيبة ، إلا إذا اخترنا أن نحب الحى الباقى الذى لا يموت .

وعبثاً نمتلك فإننا سنفارق ما نملك .

لن يصاحبنا إلا عملنا .

ويتكرر النذير بالموت والزوال والفناء فى القرآن عشرات المرات ليلفت النظر إلى الحقيقة الظاهرة المؤكدة بامتداد الحياة إلى أجل محدود تهلك بعده حتماً .

وهى حقيقة ظاهرة ومؤكدة . . ومع ذلك لا أحد يعيرها اهتماماً ، والكل يعيش ويتصرف كما لو أنه سوف يخلد على الأرض . . ولهذا يبخل البخيل ويجبن الجبان ويكذب الكذاب ويسرق السارق ويقتل القاتل ويطغى الطاغية ويستبد المستبد لأنه يشعر أنه فى أمان وأنه مخلد .

ولذلك قطع القرآن بجهل الأغلبية وبأن الأغلبية على الباطل وحذر من اتباع الأغلبية فى مسألة العقيدة . . لأن الأغلبية تعرف كيف تأكل وكيف تشرب ولكنها لا تعرف كيف تفكر لتصل إلى حقيقة . . وقال :

« وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا » . (يونس — ٣٦)

« فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً » . (الإسراء — ٨٩)

« وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ » .

(الأعراف — ١٠٢)

« وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِى الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ » . (الأنعام — ١١٦)

« أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً » . (الفرقان — ٤٤)

« لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُون » . (يس — ٧)

« وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً » .

(يونس — ٣٦)

« بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ ، وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُون » . (المؤمنون — ٧٠)

ولو أن محمداً قد بدأ الدعوة إلى الإسلام باستفتاء . . أيهما تعبدون : الله . . أم الأصنام .

لأجمع أهل مكة إلا القليل على عبادة الأصنام .

فإدراك الحقيقة سوف يكون دائماً من مواهب الصفوة .

أما الاحتكام فى مسائل المعاش وهموم البطن فيمكن الرجوع فيه إلى رأى الأغلبية فهذه شئون يعرفونها ويتكالبون عليها بالغريزة .

وقديماً أجمعت الأغلبية على إعدام سقراط وحرق برونو وسجن غاليليو حينما واتتها الفرصة لتقول كلمتها فى مسائل الفلسفة والعقيدة والعلم .

ورجل العلم قد يفنى عمره فى دراسة دودة أو تشريح نملة . . وهو أمر غير مفهوم بالنسبة لعقل جماهيرى غوغائى .

والعقل الغوغائى لا يفهم أن مثل تلك الدراسة قد تفضى إلى سلسلة من البحوث تؤدى إلى اكتشاف لقاح واق من شلل الأطفال أو الجدرى أو الإنفلونزا . . وأنها قد تؤدى إلى خير يعم الجميع .

وأكثر الناس لا ينظرون إلا للنفع العاجل القريب الملموس فهم عبيد لمعداتهم وشهواتهم . . وليس هذا احتقاراً للأغلبية وإنما فهم لحدودها ودورها . . فالذى يأخذ رأى الأغلبية فى معضلات المغنطيسية والكهرباء ، يظلم الأغلبية ويظلم نفسه ويظلم المغنطيسية والكهرباء .

وفى مشكلات الفكر والعلم تكون القيادة صدقاً وعدلاً للصفوة . . على أن تكون المشورة بين أهل العلم هى القاعدة وليس الاستبداد بالرأى .

« وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ » . (آل عمران – ١٥٩)

« وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ » . (الشورى – ٣٨)

« وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » . (ق – ٤٥)

« فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ » .

(الغاشية – ٢١ – ٢٢)

« وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ » .

(آل عمران – ٦٤)

فالقرآن ضد عبادة الفرد وضد الاستبداد بالرأى حتى ولو جاء الاستبداد من نبى . . وإنما الإخوة والتعاون والمشورة هى القاعدة .

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » . (الحجرات – ١٠)

« وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ » .

(المائدة – ٢)

« وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ » . (النساء – ٥٨)

ويؤكد القرآن أن الناس طبقات . . ولكنها ليست الطبقية التي تمنحها رؤوس الأموال والعقارات . . إنها طبقية من نوع آخر .

الناس طبقات فى العلم والمعرفة والتقوى . . والأرواح لا تتساوى أبداً وإن تساوت الأبدان فى حق الكفاية والعدل .

« يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » .
(المجادلة – ١١)

« تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ » . (البقرة – ٢٥٣)

« هَلْ يَسْتَوِى الذِينَ يَعْلَمُونَ وَالذِينَ لاَ يَعْلَمُون » . (الزمر – ٩)

« إِنَ أَكْرمكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » . (الحجرات – ١٣)

وبرغم هذه الإشارات الخاطفة فالقرآن لم يضع دستوراً سياسيًّا محدداً وإنما ترك باب الاجتهاد مفتوحاً لأن النظم السياسية زمنية متغيرة . . يوضع كل نظام ليلائم عصره ويعبر عنه ، فإذا تغير العصر لزم الأمر أن يتغير النظام تبعاً له .

والقرآن كتاب أزلى . . يضم بين دفتيه العلوم الأزلية والحقائق الباقية ، ولا يحفل بالأمور الوقتية المتغيرة . . ويتركها لأصحابها يجتهدون فيها .

والقرآن كتاب دين وأخلاق وليس كتاباً فى السياسة . . ومع ذلك فهو يقدم توصيات عامة هى سمات الحكم الأمثل . . (أن يراعى حرية الفرد ، وأن يدع مقدرات الفكر والثقافة للصفوة تقودها ولا يستفتى الأغلبية إلا فى أمور معاشها الحياتية المباشرة ، وأن يكون طابع حكم تلك الصفوة المشورة بين أفرادها لا الطغيان ، والعدل والكفاية لا الظلم والاستغلال)

أما أى منهج . . وأى تفاصيل . . فهو أمر مفتوح للاجتهاد والقرآن لا يتدخل فيه .

والقرآن كتاب موجه إلى قلب الفرد ليخلص الفرد ويهديه . . فيكون خلاص المجتمع وهدايته نتيجة مترتبة على خلاص أفراده . . وليس العكس .

أى أنه لا يصلح المجتمع ليصل بذلك إلى صلاح أفراده . . بل هو يهدى الفرد ليهدى بذلك العالمين .

فهو لا يدق على باب السياسة ليغير مجتمعاً .

وإنما يدق على باب القلب ليهدى إنساناً .

ذلك الإنسان الذى قال عنه :

« مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً » . (المائدة — ٣٢)

إن قتل إنسان واحد ظلماً وعدواناً ولو كان فى سبيل إنجازات وإصلاحات مادية عظيمة . . هو انهدام للناموس وقتل لكل الإنسانية .

إلى هذه الدرجة تبلغ قيمة الفرد والنفس الواحدة فى شريعة القرآن .

إن الفرد وجود مطلق فى ذاته . . له كرامته وقداسته وحريته . واحترام هذه الحرية هو أول شروط العبادة الحقة لله .

والفرد يموت جسدياً فى الدنيا ولكن روحياً له مطلق الوجود والحياة والخلود . . فلا يصح اعتباره مسماراً فى آلة المجتمع ، يخلع ويستبدل بغيره ويضحى به ظلماً لأى هدف وتحت أى شعار . . فالشعارات سوف تتغير والنظم تتبدل . . وتبقى روح الإنسان أخلد من جميع النظم ، ولهذا وجب احترامها لذاتها وفى ذاتها .

وبهذا التقديس الرائع للإنسان الفرد وحريته انفردت جميع الديانات واختلفت عن العقائد المادية الماركسية التى لا ترى للإنسان الفرد وجوداً حقيقيًّا وإنما هو ابن وقته وظروفه ومجتمعه ولا يبقى منه شيء .

والنفس الإنسانية عند الماديين الماركسيين هى مجموعة ردود أفعال ومجموعة مواقف ظرفية ومجموعة ملابسات وهى خادمة للجسد ومتوقفة عليه فهى تستشعر الجوع لتطعم الجسد وتستشعر الحافز الجنسى لتدفع الجسد إلى التكاثر .

فإذا مات الجسد ماتت بموته .

أما الروح فهى عندهم خرافة صوفية دينية لا معنى لها .

ولا توجد فى الفلسفة المادية الماركسية حياة دنيوية تنتهى بالموت وحياة روحية متجاوزة لها ومتعالية عليها لا ينالها فناء ولا عدم . . وإنما كل ما هناك هو هذه الحياة الدنيوية وليس قبلها ولا بعدها شيء وليس أمامها ولا وراءها شيء . . وما نحن إلا أجسادنا .

ومن هنا صح عندهم اعتبار الفرد مسماراً فى المجتمع يمكن التضحية به واستبداله لصالح هذا المجتمع . . فالمجتمع هو الحقيقة الباقية والفرد هو الحقيقة الفانية وكل قيمة هذا الفرد فيما ينجزه للمجتمع .

والمسألة تستحق عندى وقفة طويلة .

هل حقيقة ما نحن إلا أجسادنا ؟

وبالتالى ما الدنيا كلها إلا مادة ؟

فى البدء كانت المادة ثم تطورت ثم أصبحت إنساناً . . وغداً يموت الإنسان ويسدل الستار الختامى على المسرحية . . هكذا بكل بساطة .

هم يقولون هذه حقائق موضوعية ، فلنكن موضوعيين . . فلا وجود إلا لما هو موضوعى ، والجسد شيء موضوعى جداً قابل للدرس والفحص والتشريح .

والقائل هنا يلجأ إلى الحل السهل ويلجأ إلى التبسيط ولو كان تبسيطاً مخلاً . . ولا يكلف نفسه حتى ولو نظرة تحت الجلد . . حتى ولو نظرة إلى داخل نفسه .

وإذا قلت له إن الجسد ليس الإنسان وإن داخل الجسد نفساً هى لصاحبها ليست شيئاً موضوعياً وإنما هى حقيقة ذاتية . . وإنه بالنسبة للإنسان نجد دائماً ذاتاً فى مقابل موضوع .

قال لك وما الذات وما النفس . . إنها مجرد حوافز الجوع والجنس والخوف ومجموعة الاستشعارات التى يدرك بها الجسد ما يحتاجه ، فهى ملحقاته الثانوية . . وهى فى النهاية يمكن أن تكون موضوعاً هى الأخرى .

موضوع بالنسبة لمن ؟

موضوع بالنسبة للآخرين ؟ ! ! وكيف ؟ . . والآخرون لا يرونها ولا يدركون وجودها إلا استنباطاً من ظواهر السلوك وهى ظواهر أغلبها كاذب . فكل منا يمثل على الناس بل ويمثل على نفسه وسلوكه الظاهر قلما يدل عليه .

أم هى موضوع بالنسبة لصاحبها ؟

وكل منا لو اتخذ نفسه موضوعاً فإنها تبرد وتستحيل تحت مشرط التحليل إلى جثة وتستخفى عليه وتهرب من يديه لأنها لا يمكن أن تكون موضوعاً ولا أن توضع تحت مجهر مثل ورقة شجرة . لأن جوهرها بالدرجة الأولى ذاتيتها ، وحقيقتها أنها الوجه الآخر من الصورة فهى الذات فى مقابل

الجســد الذى هو موضوع . . وكلا القطبين الــذات والموضوع هما وجها الحقيقة . . فإذا عرفنا المادة بأنها كل ما هو موضوعى فلا بد من الاعتراف بأن هناك فى الوجود شيئاً آخر غير المادة هو الوجه الآخر من الحقيقة الذى هو الذات .

فإذا عدنا إلى التعريف المادى للذات والنفس بأنهما مجرد حوافز الجوع والجنس والخوف والاستشعارات التى يدرك بها الجسد أنه ظمآن أو جوعان أو مشتاق جنسياً فإننا أمام تفسير متهافت ، فما هكذا حقيقة النفس ولا حقيقة الإنسان .

إن الإنسان ليضحى بلقمته وبيته وفراشه الدافئ فى سبيل أهداف ومثل وغايات شديدة التجريد كالعدل والحق والحرية ، فأين حوافز الجوع والجنس هنا ؟ . . حتى العامل البروليتارى فى فيتنام يموت على مدفعه فى سبيل غد لم يأت بعد . . وهذا إثبات قاطع بأن النفس والذات حقيقة متجاوزة وعالية على الجسد وليست مجرد احتياجات الجسد الحسية معكوسة فى مرآة داخلية . . تلك الإرادة الهائلة التى تدوس على الجسد وتضحى به هى حقيقة متجاوزة عالية بطبيعتها وآمرة ومهيمنة على الجسد وليست للجسد تبعاً وذيلاً .

وإذا كنت أنا الجسد فكيف أتحكم فى الجسد وأخضعه .

وإذا كنت أنا الجوع فكيف أتحكم فى الجوع .

إن مجرد الهيمنة الداخلية على جميع عناصر الجسد ومفردات الغرائز هى الكاشفة عن ذلك العنصر المتعالى والمفارق الذى تتألف منه الذات الإنسانية .

عن طريق النفس أتحكم فى الجسد .

وعن طريق العقل أتحكم فى النفس .

وعن طريق البصيرة أضع للعقل حدوده .

هذا التفاضل بين وجود ووجود يعلو عليه ويحكمه هو الإثبات الواقعى الذى يقودنا إلى الروح كحقيقة عالية متجاوزة للجسد وحاكمة عليه وليست ذيلاً وتابعاً تموت بموته .

والذى يقول إن الإنسان مجموعة وظائف فسيولوجية مادية لا غير . . عليه أن يفسر لنا أين يذهب ذلك الإنسان فى لحظة النوم .

إن جميع الوظائف الفسيولوجية قائمة ومستمرة فى أثناء النوم وجميع الأفعال المنعكسة تحدث بانتظام فإذا شككت اليد بدبوس انقبضت بعيداً عنك . . والقلب بالمثل يدق والتنفس يتردد والغدد تفرز والأحشاء تتلوى والأعضاء التناسلية تهتاج . . ومع ذلك فنحن أمام رجل نائم أشبه بشجرة . . مجرد شجرة أو حيوان . . أو حياة بدائية . . لا تختلف عن الحياة الحشرية . فأين الإنسان ؟

إن النوم ثم اليقظة وهو النموذج المصغر للموت ثم البعث يكشف لنا مرة أخرى عن ذلك العنصر المتعالى الذى يخلق بحضوره فى تلك الجثة النائمة فجأة وبلا مقدمات هتلر ونيرون وكاليجولا فإذا بذلك الممدد كالثور الهامد يصحو ليقتل ويغزو ويسحق ويمحق . . وأن الفرق الهائل أكبر من أن يفسر بتغير مادى يتم فى لحظات .

وفى ذلك يقول القرآن إن الأرواح تبارح أجسادها عند النوم كما يحدث فى الموت ثم يعيدها الله فى اليقظة .

« اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى » . (الزمر – ٤٢)

ويمتلئ القرآن بكثير من الآيات القاطعة بالقيامة والبعث بعد الموت

« وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً . ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً » .

(نوح — ١٧ ، ١٨)

« إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ » .

(يس — ١٢)

« وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ . قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ . إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ » .

(يس — ٥١ — ٥٣)

« أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ » .

(المؤمنون — ١١٥)

« خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ » .

(القمر — ٧)

« وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً . وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً » .

(الكهف — ٤٧ ، ٤٨)

« فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا » .

(مريم — ٦٨)

إن الروح حقيقة . . وهى متجاوزة للجسد عالية عليه لا يجرى عليها حدث الفناء . . فهى باقية خالدة لها يوم وميقات وآخرة تلقى فيها خالقها .

ولكن التبسيط المخل والبحث عن حل سهل خلاصاً من مشكلة بلا

جواب هو الذى دفع الفكر الماركسى إلى هذا التصوير المتهافت للإنسان بأنه جسد ومجموعة ردود أفعال وأنه من التراب يأتي وإلى التراب ينتهى . . ولا أفهم كيف طاوعتهم نفوسهم على تصديق هذا الكلام فى عالم رائع محكم ، تشهد كل ذرة فيه بالنظام والجمال وتتسلسل فيه الأسباب إلى غاياتها ويخدم فيه الموت الحياة ، ويفتدى الإنسان بدمه كل لحظة أشد المثل والأهداف تجريداً . . ولا يذهب أى شيء هباء .

فكيف يذهب الإنسان وهو أشرف المخلوقات هباء . . ويتبدد سدى .

« أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ » .

(المؤمنون — ١١٥)

« أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى » . (القيامة — ٣٦)

ويأتي أحد الكفار إلى محمد بقطعة من عظام ميت ويفركها بين يديه فتصير تراباً . . ويقول للنبي :

— أيبعث ربك هذه العظام الرميم بعد أن صارت تراباً ؟ فيتزل الوحى على محمد بالآية القرآنية :

« وضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » . (يس — ٧٨ ، ٧٩)

يرد عليه القرآن بالحجة البالغة المسكتة . . انت تسأل كيف يخلق الله من الرميم وقد نسيت أن الله خلقك أنت من لا شيء . . من قطرة ماء . . وأن القادر الذى خلقك مرة يستطيع أن يخلقك مرة أخرى .

« أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ، بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ » . (يس — ٨١)

« أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ » .

(ق – ١٥)

وهل أعيانا أن نخلقكم مرة حتى يلتبس عليكم كيف نخلقكم من جديد « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُه » هكذا يقدم القرآن قصة البعث فى بساطة شديدة وفى خمس كلمات .

ثم يروى لنا فى آية مثيرة كيف يكون قيام الموتى بعد رقدتهم الطويلة فى القبور : .

« وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ » .

(الروم – ٥٥)

إن الدهور التى لبثها الموتى فى قبورهم يخيل لهم لحظة البعث أنها كانت مجرد ساعة زمان وكأنهم كانوا فى غفوة أو نومة عصارى بعد أكلة ثقيلة .

والقيامة بهذا المعنى تبدو لكل ميت وكأنها لاحقة لموته مباشرة . . وذلك لأنه بموته يخرج من الزمان والمكان وينتهى فى اعتباره الزمان وتنطوى الأحقاب لا يدرى بها فى رقدته .

ولهذا لا نتجاوز الصدق والحق إذا قلنا إن ما يتبقى على القيامة بالنسبة لكل منا هو ما تبقى لكل منا من سنوات عمره فى الدنيا . . والقيامة بهذا المعنى قريبة جداً .

ولعل هذا تفسير الآية .

« وما يدريك لعلَّ الساعةَ تكونُ قريباً » .

ولعل هذا هو تفسير آية البعث .

« ما خلقكُمْ ولا بَعْثُكُمْ إلا كَنَفْسٍ واحدةٍ » .

إذ أن بعث الإسكندر من قبره وهو الميت من ألفي سنة وبعث الشحاذ الذى مات بالأمس . . هو كبعث نفس واحدة . . لأنه بالنسبة للإسكندر قد انطوت السنوات الألفين كساعة زمان . . وهو قد مات هو والشحاذ فى يوم واحد . . وسوف يبعثان فى يوم واحد . . وكأنهما نفس واحدة .

إن الروح والبعث حقائق مقررة . ولكن قارئ اليوم يحب أن يقتنع فى هذه المسائل بالبرهان الفلسفى .

ولعشاق الفلسفة نقدم دليلاً آخر على وجود الروح من الخاصية التى تتميز بها الحركة .

فالحركة لا يمكن رصدها إلا من خارجها .

لا يمكن أن تدرك الحركة وأنت تتحرك معها فى الفلك نفسه . . وإنما لا بد لك من عتبة خارجية تقف عليها لترصدها . . ولهذا تأتى عليك لحظة وأنت فى أسانسير متحرك لا تستطيع أن تعرف هل هو واقف أو متحرك ، لأنك أصبحت قطعة واحدة معه فى حركته . . لا تستطيع إدراك هذه الحركة إلا إذا نظرت من باب الأسانسير إلى الرصيف الثابت فى الخارج .

ونفس الحالة فى قطار يسير بنعومة على القضبان . . لا تدرك حركة مثل هذا القطار وأنت فيه إلا لحظة شروعه فى الوقوف أو لحظة إطلالك من النافذة على الرصيف الثابت فى الخارج .

وبالمثل لا يمكنك رصد الشمس وأنت فوقها ولكن يمكنك رصدها من القمر أو الأرض . . كما لا يمكنك رصد الأرض وأنت تسكن عليها وإنما تستطيع رصدها من القمر .

لا تستطيع أن تحيط بحالة إلا إذا خرجت خارجها .

وعملية الإدراك هى إثبات أكيد بأن هناك شيئين فى كل لحظة . . الشيء المدرك . . والنفس المدركة خارجه .

ولهذا ما كنا نستطيع إدراك مرور الزمن لولا أن الجزء المدرك فينا يقف على عتبة منفصلة وخارجة عن هذا المرور الزمنى المستمر .

ولو كان إدراكنا يقفز مع عقرب الثواني كل لحظة لما استطعنا أن ندرك هذه الثواني أبداً . . ولا نصرم إدراكنا كما تنصرم الثواني بدون أن يلاحظ شيئاً .

وهى نتيجة مذهلة تستدعى وقفة تأمل طويلة .

فها نحن أولاء أمام حقيقة إنسانية جزء منها غارق فى الزمن ينصرم مع الزمن ويكبر معه ويشيخ ويهرم (وهو الجسد) وجزء منها خارج عن هذا الزمن يلاحظه من عتبة سكون ويدركه دون أن يتورط فيه ولهذا لا يكبر ولا يشيخ ولا يهرم ولا ينصرم . . ويوم يسقط الجسد تراباً سوف يظل هو على حاله حيًّا حياته الخاصة غير الزمنية . . ولا نجد لهذا الجزء اسماً غير الاسم الذى أطلقته الأديان وهو الروح .

وكل منا يستطيع أن يلمس هذا الوجود الروحى بداخله . . ويدرك أنه وجود مغاير فى نوعيته للوجود الخارجى النابض المتغير الذى يتدفق حولنا فى شلالات من التغيرات .

كل منا يستطيع أن يحس أن بداخله حالة حضور وديمومة وامتثال وشخوص وكينونة حاضرة مغايرة تماماً للوجود المادى المتغير المتقلب النابض مع الزمن خارجه .

هذه الحالة الداخلية التى ندركها فى لحظات الصحو الداخلى والتى

أسميتها حالة حضور . . هى المفتاح الذى يقودنا إلى الوجود الروحى بداخلنا ويضع يدنا على هذا اللغز الذى اسمه الروح . . أو المطلق . . أو المجرد .

ونحن حينما ندرك الجمال ونميزه من القبح . . وندرك الحق ونميزه من الباطل . . وندرك العدل ونميزه من الظلم . . فنحن فى كل مرة نقيس بمعيار . . بمسطرة منفصلة عن الحادث الذى نقيسه . . فنحن إذن نقيس من العتبة نفسها . . عتبة الروح . . فالوجود الروحى يدل عليه أيضاً الضمير ، ويدل عليه أيضاً الإحساس بالجمال . . وتدل عليه الحاسة الخفية التى تميز الحق من الباطل والزائف من الصحيح .

هل هذه العتبة خارج الزمن هى الأبد ؟ . . أو هى زمن آخر له تقويم مختلف . . اليوم فيه بألف سنة . . كما ورد فى القرآن « وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ » . وكما جاء عن أيام الله . . وهى أيام غير أيامنا ، ذهب المفسرون فى تفسيرها كل مذهب . . كل هذه تفاصيل لا يمكن إدراكها . . وهى فى الغالب مجرد إشارات ورموز تشير ولا تبين وترمز ولا تشرح . . لأن بيان حقيقة الروح وكنهها أمر فوق مستوى إدراكنا . . أما الحكم بوجودها فهو الممكن وهو الواجب والضرورى

ولعل الروح هى طابع الحسن الذى تركه الخالق على كل منا كأثر من آثار يديه . . ولعلها قبس من روحه إذ نفخ فينا من روحه . . ولعلها شرارة مقدسة من نوره وشعاع من شمسه الأبدية . . إن الكلمات تعجز دائماً عن التعبير إذا حاولت أن تحيط بهذا اللغز .

ونحن لا نبتعد بعيداً إذا عرفنا الروح داخلنا بأنها الحرية . . حريتنا الداخلية العميقة الباطنة فى أعماق السريرة والتى شاء الخالق أن تكون

طليقة من كل قيد وحفظها من كل دخيل ووضع جنده خارجها وجعلها قدس الأقداس وحرماً محرماً على الجميع إلا صاحبها .

فنحن فى أعماق سرائرنا نشاء ونختار ونملك موهبة التقدير والحكم والتمييز ، ولهذا أخلفنا الله على الأرض وجعل منا ملوكاً صغاراً تحكم . . وجعلها لنا محنة وامتحاناً واختباراً و« بروفة » يكون بعدها سؤال وحساب وإعادة ترتيب فى مقامات يوضع كل واحد فى مقامه الذى استحقه بجدارته . إن منطقة السريرة هى منطقة المساءلة . . وفى الحديث الشريف (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) . إن منطقة النية والإضمار هى المنطقة التى يلاحظها الله بعلمه (وهو علم حصر لا علم إلزام) ويقيم عليها حسابه لأنها منطقة الحرية . . وإنما تبدأ العقبات وتبدأ القيود حينما ننطلق من السريرة إلى الفعل ثم إلى التحقيق فى العالم المادى . . فتتصادم الحريات بعضها مع بعض ومع ظروف البيئة ومع المجتمع وتتدخل الإرادة الإلهية لتحد من شر الشرير ولتفسح المجال للخير ولتخفف من ضررنا بعضنا على بعض بمقتضى ما فيها من رحمة ولتمد كل واحد فينا بمدد من الإمكانات من جنس ضميره واستحقاقه .

ولهذا يستوى عندى أن أقول إن الله خلق لى روحاً . . وأن أقول . . إن الله خلقنى حرية . . أو خلقنى فرداً متفرداً .

فكل عبارة منها تشرح الأخرى . . وتصف من الأعماق ما لا أستطيع أن أراه بالعين أو ألمسه باليد . . أو أجد له ألفاظاً ومصطلحات .

وفى منطقة الروح لا نستطيع أكثر من إشارة ولا نجد أكثر من رمز

جيث نحن على عتبة خارج الزمن وخارج كل شيء محسوس ومنظور .

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً » . (الإسراء – ٨٥)

وهى الروح التى تمضى إلى مستقرها بعد الموت حيث يفصلها عنا البرزخ إلى يوم البعث .

وللماديين على اختلاف فرقهم . . نقول ما يقوله القرآن :

« وَقُلْ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ. وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ . وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ » .
(هود – ١٢١ – ١٢٣)

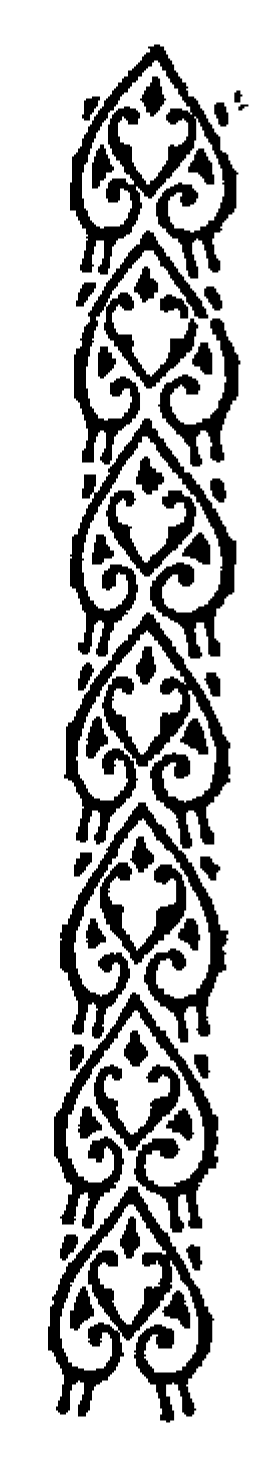
فالروح غيب .

وما بعد الموت غيب .

ولا نملك فيه إلا ذلك الخبر الذى أتانا به نبينا الكريم من لدن عالم الغيب الذى يرى ما لا نرى ويعلم ما لا نعلم .

لاکھٹوٹ





كان القرآن حاسماً قاطعاً فى إلغاء الكهنوت والوساطات الكهنوتية . . وقرر فى وضوح لا لبس فيه وفى عدة آيات متكررة . . أن الصلة بين الإنسان وربه صلة مباشرة . . وأن الله يرعى شئون مخلوقاته مباشرة بدون مجلس إدارة وبدون سكرتارية وبدون وسطاء .

« قُلْ لِلهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً » (الزمر — ٤٤)

« وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » .
(البقرة — ١٨٦)

« وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ » .
(الأنعام — ١٠٧)

« إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » .
(النحل — ١٢٥)

« يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ » . (المائدة — ٤٠)

« قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَلاَ فِى الأَرْضِ » . (سبأ – ٢٢)

بل يقول لنبيه :

« اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِر اللهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ » . (التوبة – ٨٠)

إلى هذه الدرجة يستحيل على نبي أن يبدل فى حكم إلهى برغم الخصوصية والمقام الرفيع والقرب الذى ينفرد به النبي عن باقى الخلق . . فما بال الفرد العادى ، ولو كان هذا الفرد إماماً أو فقيهاً أو وليًّا يستوى الحال . . فلله الشفاعة جميعاً . . وما من شفيع إلا من بعد إذنه .

ولهذا لم يظهر فى تاريخ الإسلام من يبيع صكوك الغفران . . أو من يصدر أمراً بحرمان أحد من الرحمة بحجة الكفر والضلال . . لأن القرآن قطع بأن « رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » .

لا أحد يستطيع أن يرى ما بالقلب سواه .

ولهذا لم تقم لرجال الدين دولة ولم يقم لهم كهنوت ولم ترتفع لهم وصاية على مصائر الخلق .

وبالمثل كان الجانب الطقوسى فى القرآن شديد البساطة ، فالصلوات خمس ولها مواقيتها من صبح وظهر وعصر ومغرب وعشاء (وهو تكرار لمجرد التذكير حتى يظل الله شاخصاً فى قلب المؤمن فيعصمه من الخطأ) ثم التفاصيل من اغتسال بالماء للنظافة والتطهر وركوع وسجود لمغالبة كبرياء النفس والتذكير بمقام المخلوق من الخالق . . وهى نوع من الرياضة

النفسية والجسدية والتربيه الروحية . . وفى اليوجا وهى موضة المثقفين هذه الأيام تمرينات أعقد وأشق بمراحل ومع ذلك يتبارى فيها المثقفون .

وبرغم بساطة الطقوس فقد أباح القرآن اختزالها إذا قامت الموانع . . فمن الممكن استبدال الوضوء بمسح الوجه واليدين بالتراب (التيمم) ومن الممكن الصلاة قعوداً أو حتى رقوداً بمجرد إغلاق العين رمزاً للسجود . . ومن الممكن نطق الآية فى السر بدل الجهر إذا قامت موانع من مرض أو غيره . . وبذلك تختزل الصلاة إلى مجرد ذكر فى القلب . . بلا طقوس بالمرة .

وأى مكان فى الأرض هو مسجد :

« فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ » . (البقرة — ١١٥)

والصلاة صلة ، والله يأمر بها لنفع المخلوق . . وليس تسلطاً ولا ممارسة للألوهية فالله فى غنى عن العالمين . . وإنما نحن المحتاجون إليه . . والصلاة وسيلتنا للاستمداد . . كما تتجه زهرة عباد الشمس إلى الشمس لتستمد منها الحياة . . كذلك لا بد لنا أن نتجه إلى منبعنا ومصدر طاقتنا وخالقنا إذا أردنا أن نستمد الحياة والنور والإلهام .

والصيام رياضة روحية وقهر للبدن وكبح وإلجام للعنصر الحيواني فى الإنسان .

وفى كل أنواع الرياضات الصوفية هندية كانت أم مسيحية أم بوذية يشترط الصيام . . وهو يتفاوت بين امتناع كامل إلى اقتصار على الماء إلى اكتفاء بالأغذية النباتية . إلى اجتناب كل ما فيه روح . . إلى فترة صيام محدودة بين فجر ومغرب كما فى الإسلام .

والصيام الإسلامى أبسطها .

والصيام يروض النفس على احتمال ما تكره ومقاومة ما تحب . . وهو أساس الناموس الأخلاقى .

ولو لم يفرض الله علينا الصيام لفرضناه على أنفسنا لأنه رياضة روحية ضرورية لتنمية الإرادة والصبر والمصابرة . . كما ننمى عضلاتنا بالسباحة والتجديف والألعاب السويدية . . وكما نتقاطر ألوفاً على ملاعب الكرة .

ومع ذلك فالله يرفع تكليف الصيام عن غير القادر ويبيح الإفطار للمرض والمشقة ويجعل إطعام المساكين فدية مشروعة للمفطر .

أما الضجة التى أثيرت والكلام الكثير الذى قيل حول إقامة الحد فى القرآن بقطع يد السارق فهى ضجة مفتعلة . . وفى عالم السفاحين الذى نعيشه لا توجد وسيلة حاسمة للردع توفر الدم مثل قطع اليد فيكفى أن تنفذ مرة أو اثنتين حتى يتوقف سيل السرقات الذى لا ينقطع . . ثم إن الشريعة وضعت لنا الشروط والضوابط .

فمن سرق للجوع أو للحاجة لا يصح شرعاً إقامة الحد عليه حتى لوكان يسرق عن إصرار وعمد . فلا يبقى بعد هذا إلا السارق الذى يسرق دون احتياج ودونما حافز من جوع أو فاقة . . وهو إما حالة عقلية توضع فى مستشفى المجانين . . أو جبار يجب قطع دابره لا قطع يده فقط .

وفى نص القانون السوفييتى توقع عقوبة الإعدام على من يسرق ويختلس مال الشعب . . وتنشر أخبار أمثال تلك المحاكمات فى الجرائد الرسمية .

وفى الإنجيل « إن أعثرتك يدك فاقطعها وإن أعثرتك (أى أوقعتك فى خطيئة) عينك فاقلعها » .

والقرآن كان أرحم حينما اكتفى بقطع اليد .

أما النقد الذى وجهه المستشرقون لموقف القرآن من مشكلة الرقيق فهو نقد مردود عليه . فإن تسريح الرقيق فجأة وبتشريع منزل فى مثل الحالة الاجتماعية التى كان عليها عرب الجاهلية . . كان معناه خروج آلاف المتسولين إلى الطريق بلا مصدر رزق وبلا صناعة أو زراعة تستوعبهم وهى كارثة وليست حلاً .

والحل الأمثل هو الذى نزلت به الآيات بألا يكون هناك مزيد من الاسترقاق . . وكان مصدر الرقيق هم أسرى الحروب وكانت وصية القرآن تسريح الأسرى أو طلب الفدية فيهم « فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً » (محمد — ٤) بلا استرقاق . . أما الموجود من الأرقاء فيتم تصفيتهم بالتدريج . . إذ جعل القرآن فك الرقبة كفارة للذنوب صغيرها وكبيرها . . وجعلها وسيلة تطهير للنفس واقتحام لها .

« فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ » .

(البلد — ١١ - ١٣)

تحرر نفسك بأن تفك عنها أغلال استعبادها للآخرين . . تبلغ الحرية بأن تحرر غيرك . . وأنت بذلك تقتحم على نفسك شهواتها . وهى العقبة الكبرى . . فلا عقبة أمامك سواك أنت .

بهذا أغلق الباب أمام مصدر الرق وعمل على تصفية الموجود .

وإذا كان ما حدث فى أيام الدولة الأموية هو العكس فليس الذنب ذنب القرآن . . وإنما ذنب النظام الذى تفسح وقصور الخلفاء التى تحولت إلى مسارح للمتع الحسية على الطريقة الفارسية .

أما القرآن فهو – روحاً ونصاً – يؤكد الأخوة بين جميع بنى البشر مهما اختلفت ألوانهم وأجناسهم .

« يأَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً » . (النساء – ١)

« إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » .

(الحجرات – ١٣)

« وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ » .

(آل عمران – ٦٤)

والقرآن هو وثيقة تحرير للرقيق إذا قيس بما جاء فى الإنجيل والتوراة عن الرقيق . . فبطرس قد أوصى الأرقاء بطاعة سادتهم وقال إن الرق كفارة عن البشر لما ارتكبوه فى حق الرب . . وكتب بولس الرسول فى رسالته إلى أهل « أفسيس » .

أيها العبيد أطيعوا ساداتكم حسب الجسد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح .

أما التوراة فأمرت اليهود صراحة باستعباد واسترقاق جميع الأمم من غير بنى إسرائيل .

والمدينة التى تستسلم لليهود بلا حرب كان نصيبها فى التوراة أن يساق أهلها أسرى وسرارى وعبيداً وأرقاء لليهود .

فجاء القرآن ليكون الكتاب السماوى الوحيد الذى يأمر بالعتق وفك الرقاب أوامر صريحة بألا يستعبد إنسان إنساناً . . ويقيم من نفسه رباً وإلهاً

عليه وبأن الكل أسرة واحدة من أب واحد . . لا يرتفع واحد على آخر إلا بتقواه .

والحق أن الرق الذى كان على أيام العرب لا يساوى واحداً من ألف من رق شعب كامل مثل الشعب الألماني أيام حكم هتلر . . يحدث هذا فى أوربا . . وفى ذروة القرن العشرين .

* * *

والدين فى القران إيمان وأخلاق وعمل صالح .

وهناك تركيز على الأخلاق والتعاليم الأخلاقية من أول صفحة فى القرآن إلى آخر صفحة ، والاستدلالات على ذلك لا تنتهى .

« إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ » . (النساء – ٥٨)

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا (لا تدفعكم الكراهية إلى تحامل) اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » . (المائدة – ٨)

« وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً » .

(الإسراء – ٣٢)

« وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُم » . (الأنفال – ٤٦)

« ادْعُ إِلَىَ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ » . (النحل – ١٢٥)

« يَأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِين » . (الحجرات – ٦)

« إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ » . (النور – ٢٣)

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيراً مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ » . (الحجرات – ١١)

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا » . (النور – ٢٧)

« وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً » . (الإسراء – ٣٤)

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ » . (الحجرات – ١٢)

« وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ » . (التوبة – ٦)

وفى أدب الحروب وأخلاق الحروب يأتينا القرآن بأجمل دستور :

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَار » .

(الأنفال – ١٥)

« إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوص » .

(الصف – ٤)

« إِنْ يَكُن مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرونَ يَغْلِبُوا مائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَروا بِأَنَّهمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُون » .

(الانفال – ٦٥)

« قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَ تُمَتَّعُونَ إلاَّ قَليلاً » . (الأحزاب – ١٦)

« قُلْ مَنْ ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً » . (الأحزاب – ١٧)

« قُلْ إنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إلَىَ عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُون » . (الجمعة – ٨)

وفى الخيانة يذكر القرآن هذه الآية :

« ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفروا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِين » . (التحريم – ١٠)

وفى النفاق :

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُون » . (الصف – ٢ ، ٣)

« إنَّ الْمُنافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً » .
(النساء – ١٤٥)

« الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُون أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » .
(التوبة – ٦٧)

وفى البخل والإنفاق :

« لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّون » . (آل عمران – ٩٢)

« وَيُؤْثِرونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَة » . (الحشر – ٩)

« وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً » . (الإسراء – ٢٩)

وفى الغرور والتواضع والمرحمة :

« إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً » . (النساء – ٣٦)

« وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً » . (الإسراء – ٢٤)

وفى العفو :

« وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ » .

(النور – ٢٢)

« ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ » .

(المؤمنون – ٩٦)

« وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُور » .

(الشورى – ٤٣)

وفى آيات جامعة يجمل هذه التعاليم الخيرة :

« لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتِي الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتِي الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ وَالضَّراءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُون »
(البقرة – ١٧٧)

ولن تنتهى الأمثلة ، فالقرآن كله وثيقة أخلاقية .

وقد يعترض معترض فيقول : لسنا فى حاجة إلى قرآن لنكون على أخلاق . والإنجليزى فى لندن هو نموذج للأخلاق الحسنة دون أن يقرأ قرآناً ولا إنجيلاً ودون أن يؤمن بأى دين بالمرة .

وصاحب الاعتراض لا يميز بين نوعين مختلفين من الأخلاق .

نوع من الأخلاق هو فى حقيقته ذكاء اجتماعى وليس أخلاقاً ، وهو أشبه بذكاء البقال الذى اكتشف أن حسن المعاملة بضاعة رابحة فى حد ذاتها وأنها تكسب له قلب الزبون وجيبه فهو يعطى المحبة ليقبض محبة .

ومثل هذه الأخلاق تنبعث من عقل نفعى ذكى ويربيها الأب فى أبنائه على شكل عادات حميدة ويعتبرها جزءاً من وسائل كسب الأصدقاء والنجاح فى العمل . . فهى من أولها إلى آخرها نوع من الحرص على الدنيا وإتقان كل وسيلة إلى امتلاكها .

وما يربيه الدين من أخلاق مختلف عن هذا تماماً ، بل يكاد يكون عكسه فالمتدين يرى الدنيا عرضاً زائلاً لا يستحق أن يحرص عليه ومحبة الله ولقاؤه هى دائماً هدفه . . وهو لهذا يعطى المحبة من القلب للجميع دون أن ينتظر عليها جزاء من مخلوق . . وهو يعطى ماله ووقته وصحته دون نظر إلى جدوى لأن ما يعطيه لا يساوى فى نظره شيئاً يذكر . . وهو لا يشعر بالدنيا التى تتسرب من يديه لأن عينيه على الآخرة ، على رضا الخالق لا على رضا المخلوق .

وهو لهذا يمكن أن يحب عدوه ويمكن أن يبذل له النصح والمعونة . ويمكن أن يعطى وهو محتاج ويتصدق وهو فقير ويطعم وهو جائع .

وهو يعطى ولا يقول . . أنا أعطيت . . وإنما يقول الله أعاننى على العطاء . . فهو يتبرأ من الفضل ويسنده إلى الله . . وهذه هى الأخلاق الحقيقية . . . .

وهى لا يمكن أن تكون إلا لمؤمن . .

ولكن مثل هذه الأخلاق لا يمكن أن تكون لرجل مادى بلا دين . والرجل المادى فى أحسن الحالات رجل مهذب حسن المعاملة بحكم ذكائه الاجتماعى وبحكم فطنته إلى قوانين النفع والضرر وهو يحب بعقله ولهدف وغاية . . وهو يعطى . . ويقول أنا أعطيت . . ويسند الفعل والفضل دائماً لنفسه لأنه لا يؤمن بقوة إلهية خارج نفسه .

وإذا أحب المادى بالروح والقلب ، وأعطى للعطاء دونما نظر إلى نفسه وإلى نصيبه من الفعل والفضل فهو متدين فى أعماقه وهو مخدوع فى نفسه إذ يضع نفسه مع الماديين . . وسوف يأتى اليوم الذى يفطن فيه إلى ولائه الحقيقى وإلى انتمائه .

والقلب دائماً هو المؤشر الحقيقى ، وهو أحسن من يدلك على مكانك . وهل أنت مع المؤمنين أم مع الماديين .

وما أكثر المتدينين الذين يصلون ويصومون وهم عمى القلوب غلاظ الأرواح ليس لهم من الدين إلا بطاقة الميلاد .

وما أكثر من يضع على صدره بطاقة المفكر الماركسى وهو أبعد ما يكون بالقلب عن التفكير المادى والعقلانية . . وهو بروحه مسيحى شفيف الوجدان أو مسلم متدين القلب . . وضع نفسه فى الطابور الخطأ ليلبس أمام نفسه وأمام الآخرين ثوباً عصرياً ويشعر بنفسه مع الموضة .

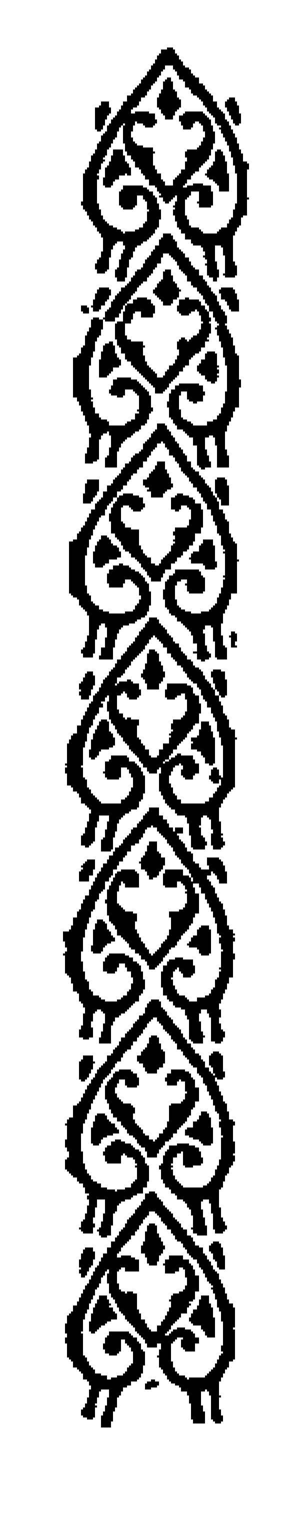
ومعرفة الإنسان لنفسه صعبة وشاقة وأحياناً لا يكشف الإنسان حقيقته إلا عبر معارك وطريق شائك .

والصراط المستقيم الذى تكلم عنه القرآن هو هذا الطريق الشائك إلى معرفة النفس ثم الاتجاه بها إلى خالقها . إنه طريق الهجرة ، عوداً من مستقر التراب إلى منبع الحق والنور .

وليس أجمل من كلمات القرآن دليلاً مرشداً إلى هذا الطريق .

لا إلـــه إلاّ الله





لا إله إلا الله

أى

لا موجود بحق إلا الله .

أنا وأنت وهو وهم ونحن كلنا مجرد صور تبرق وتختفى على شاشة الوجود كما تتجمع الصور على شاشة التلفزيون ثم تتبدد وتزول عند انقطاع التيار . . ثم تعود فتتجمع صوراً أخرى عند وصل الكهرباء . . ثم تعود فتزول هي الأخرى . . وهكذا دواليك تتعاقب الأعصر والدهور كما تنبت أوراق الأشجار الخضر فى الربيع ثم تعود فتسقط فى الخريف . . وتتراكم الأوراق الميتة كما يتراكم الموتى بعضهم فوق بعض تراباً .

ربَّ لحد قد صار لحداً مراراً ضاحكٍ من تزاحم الأضداد

ودفين على بقايا دفين فى طويل الأزمان والآباد

حتى ليصبح أديم الأرض بعد ملايين السنين هو أجدادنا .

خفّف الوطء ما أظن أديم الـ   أرض إلا من هذه الأجساد

ومن تحت ركام التراب يستخرج الحفارون مكحلة . . ينظر إليها خبير الآثار فيقول إنها مكحلة أخت الحاكم بأمر الله وعمرها تسعمائة سنة وفيها بقايا كحل .

أين أخت الحاكم بأمر الله ؟

وأين عصرها ؟

أنت تكاد تسمع خطوات الجوارى . . وترى الماشطات والوصيفات .

وعن بعد تصطك سيوف الحراس . . ويرتفع صوت مؤذن وتصهل الخيول . . وينادى آغا القصر على رسول قادم من قادش . . ويقبل علينا الحاكم بأمر الله فى هيلمان الخدم والحشم .

أين كل هذا ؟

تحت الردم . . انتهى . . أصبح تراباً . . كان حلماً فى مخيلة الزمان وغداً نصبح أنا وأنت تحت الردم .

ويصبح عصرنا سطراً فى كتاب . . وحلماً فى مخيلة مؤرخ .

ويعثر الحفارون على علبة سجائرك فى التراب فيؤلفون قصة عن أمير مات مسموماً بدخان التبغ .

وتضيع الحقائق كما ضاع أصحابها .

فالكل إلى موت .

الممثل والجمهور والناقد والحقيقة . . لأنه لا حقيقة سوى الواحد الأحد الحى الذى لا يموت .

« إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » .   (الزمر – ٣٠)

أفق إلى نفسك فأنت غير موجود . . أنت ظل . . وشأنك شأن الظل . . موجود على الأرض ما دامت الشمس فى كبد السماء فإذا غربت لم يعد لك وجود . . واختفت معك كل الظلال التى كانت تتطاول بأعناقها إلى جوارك .

وجودك كان يعتمد على مدد من سواك . . فهو وجود غير حقيقى . . وجود مفتقر إلى غيره . . أنت موجود بالله وبالمدد الذى يمدك به . . فإذا قطع عنك المدد انتهى أمرك .

أما الله فهو موجود بذاته . . ومستغن عن غيره . . وعن كل الأغيار فهو الموجود بحق . . لا موجود بحق سواه . . ومن ثم . . « لا إله إلا هو » . . منه ينبع الكل وإليه يعود الكل . . وهو الباقى أبداً وما عداه زائل دواماً .

وينزل الوحى على محمد ليقول له :

« فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِك » . (محمد — ١٩)

ويقول له فى سورة النحل عن الله :

« يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِروا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ » . (النحل — ٢)

إنه أول وأهم خبر تأتى به السماء .

« لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ » .

وهو قلب القرآن وقلب الإسلام وقلب كل العقائد .

ومن هنا كان الحديث النبوى الشريف « خير ما جئت به أنا والنبيون من قبلى هى كلمة لا إله إلا الله » .

وهى « كلمة التقوى » :

« فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً » .

(الفتح – ٢٦)

وكلمة التقوى هى لا إله إلا الله .

وهى تسبيحة الملائكة فى الملأ الأعلى .

وهى الشهادة يتلوها كل مصل عشر مرات كل يوم فى صلواته وهى كلمة النجاة ينطقها السعيد فى حشرجة الموت قبل أن يلفظ آخر أنفاسه .

وهى كلمة النذير بأن كل شىء إلى فناء وبأن كل هذا العالم « ديكور » من ورق اللعب ومدنية مزيفة مصيرها أن تفك وتعاد إلى علبتها . . وهى كلمة لو أصبحت دستور الحياة كلها فإنها كفيلة بتغيير هذه الحياة إلى نهج أشرف وأجمل وأصدق . . إلى حياة لا عبرة فيها إلا بالقيم الباقية .

« لا إله إلا الله . . إذن لا معبود إلا الله » .

ولن يعبد بعضنا بعضاً . . ولن يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً .

ولن نقتتل على شىء وقد أدركنا أنه لا شىء هناك .

ولن يأخذنا الغرور وقد أدركنا أننا خيالات ظل تموج على صفحة الماء . .

ولن نفرح بثراء ولن نحزن لفقر ولن نتردد أمام تضحية ولن نجزع أمام مصيبة فقد أدركنا أن كل هذه حالات عابرة .

وسوف تلهمنا هذه الحقيقة أن نصبر على أشد الآلام . . فهى آلام زائلة شأنها شأن المسرات .

لن نخاف .

وكيف يخاف ميت من الموت .

ولن يخاف بعضنا بعضاً . . وكل واحد فينا قد عرف أنه ليس إلا خيالاً لا يرهب إلا العصافير .

وسوف نحب ونعطى فى تواضع .

وسوف نقاوم ونقاتل فى شجاعة .

وسوف نتلقى أوسمة المجد فى خجل .

وسوف نستمع إلى كلمات المديح والإطراء فى حياء .

وسوف نتحمل بغير حدود . . ونضحى بغير حدود .

لن نخاف الحرب ولا القنبلة ولا الميكروب ولا المرض . . لأننا أدركنا وحدة الفاعل , . وأنه لا فاعل فى الحقيقة إلا الله وكل هذه أسباب . . الميكروب لا يضر ولكن الله هو الضار النافع . . وهو الذى يسلط الأسباب . . هو الذى خلق العقرب والسم والوردة . . وهو الذى ينشر العبير وهو الذى ينشر السم فى العروق . . هو مناط الهلاك ومناط النجاة . . لا راد لقضائه ولا معقب لأمره . هو الفاعل الوحيد وكلنا أدواته . .

وسوف تمتلئ قلوبنا سكينة وطمأنينة وأمناً . . فقد أدركت هذه القلوب أن مددها من الحى الذى لا يموت .

ومن يؤمن بأن القوة كلها لله ومقاليد الأمور بيد الله سوف يكون متوكلاً .

والتوكل غير التواكل .

التوكل يقتضى العزم وجمع الهمة وبذل قصارى الجهد مع التفويض دائماً وإسلام الأمر إلى المشيئة فى نهاية المطاف فيكون نجاح المسعى أو إخفاقه أمراً مقدراً كما أن الجهاد ذاته كان مقدراً .

« فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ » . (آل عمران – ١٥٩)

وإنما يختلف المتوكل عن الرجل المعتد بنفسه بأنه متبرئ من الحول والطول . . يعمل فى نشاط ثم يرجع نجاحه إلى الله لا إلى ثمرة يديه . . ويسمى نجاحه توفيقاً . . لا إحرازاً أحرزه بإرادته .

ويقول عن عمل يديه إنه كان سبباً ضمن عديد الأسباب التى يسرها الله ليوفقه إلى ما صار إليه .

أما الرجل المعتد بنفسه فيتصور أن كل ما يفعله فى حياته كان بذكائه ونشاطه ويقظته ولا يتصور وجود إرادة أخرى غير إرادته تعمل فى حياته أو فى الكون .

والمتواكل إنسان ثالث مختلف عن الاثنين فهو إنسان متقاعد كسول فاتر العزم ساقط الهمة لا يحرك ساكناً ويريد من الله أن ينجز له كل شىء .

ومثله مثل اليهود الذين دعاهم موسى ليقاتلوا معه فقالوا :

« فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ » .

(المائدة – ٢٤)

والمتوكل يثق فى نفسه ويثق فى الله .

أما المتواكل فلا يثق فى نفسه ولا يؤمن بالنظام الذى أقامه الله وربط فيه كل شىء بسلاسل من الأسباب وجعل من العزم سبباً ضرورياً لإنجاز أى شىء .

ومثل المتوكل الصادق مثل المسافر الذى يفكر فى السفر إلى الإسكندرية فيسارع فى همة ونشاط إلى حجز التذكرة ثم يحزم حقائبه ويهرول إلى القطار فى ميعاده . . حتى إذا استقل مقعده من القطار أسلم أمره إلى السائق

وقد وثق تماماً فى قدرة هذا السائق ومهارته وفى دقة القوانين التى تجرى على وفاقها عجلات القاطرة . . وبلغ من هذه الثقة وهذا التسليم أنه نام مطمئناً فى مقعده كطفل . . ولو أنه قام منزعجاً ليقف وراء السائق ويتدخل فى قيادته للقاطرة . . لاعتبره الناس رجلاً أحمق يتدخل فيما لا يعرف .

ونحن فى الدنيا مثل هذا المسافر نحاول فى همة ونشاط أن نحجز لأنفسنا أحسن الأمكنة فى هذه المركبة التى اسمها الدنيا وفى الوقت نفسه نسلم الأمر فى ثقة وتوكل تام إلى السائق الذى يقود هذه الدنيا ونثق فى قوانينه . . وهو الله القادر الذى تفوق قدرته ومهارته مهارة جميع السائقين .

وتملأ هذه الثقة قلوبنا ونحن نعمل ونجاهد فنمتلئ سكينة وطمأنينة وأمناً بأن العدل يجرى مجراه وأن كل واحد يأخذ ما يستحقه فلا نحزن على إخفاق ولا نغتر بنجاح . . ولو استولى علينا الانزعاج لما يجرى علينا من أقدار لكان هذا الانزعاج هو دليل عدم إيماننا وعدم ثقتنا فى القائد .

أما المتواكل فهو مسافر من نوع آخر يفكر فى السفر دون أن يحتشد لهذه الفكرة بأى عزم فلا هو يسارع إلى حجز تذكرة ولا هو يبادر إلى حزم حقيبة . . وإنما يقول لك إنه مؤمن بالله . . ومعتمد على الله . . وإن الله سوف يرسل له من السماء ثمن التذكرة أو يسوق إليه من يتطوع بحمله مجاناً فى عربته . . وتكون نهايته بالطبع أن يبقى حيث هو فى فراشه . . ويلقى ذنب إخفاقه على الله . . أو يقول إنها إرادة الله وإنه يقبلها لأنه مؤمن . . والواقع أن تصرفاته لا تدل على إيمان . . فمن يؤمن بالله لا بد أن يؤمن بنظامه الذى أقامه فى الدنيا وربط فيه الأسباب بالمسببات . .

وجعل من العزم والعمل مقدمة ضرورية وسبباً لازماً لإنجاز أى شىء . . وأمر بالعمل أمراً .

« وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ » .
(التوبة – ١٠٥)

والتوكل مقام عظيم لا يستطيع أن يبلغه إلا متصوف ومؤمن ثابت القدم يؤمن بحق أنه . . لا إله إلا الله . . ولا مريد فعال مهيمن إلاَّ الله .

وهو يثق فى الله ويحب الله ويحب نظامه ويرتضى ما شرط من تكاليف وأعباء فيحمل التكليف وينهض بالعبء ويبذل غاية الجهد ، وقد فوض الأمر فى كل لحظة إلى الله لا يهمه أن ينجح المسعى أو يخفق فهو واثق فى الحالين أنه سيصيب ما يستحق وأن الله هو الحكم العدل الذى لا يظلم أحداً ، فإذا أصاب النجاح نفض يديه من غرور هذا النجاح وتبرأ من فضله وأنكر دوره وقال فى تواضع . . ما أصبت هذا إلا بفضل الله . . وما حدث الذى حدث إلا لأن الله أراد وهيأ الأسباب . . وما كنت أنا وما كان عملى إلا سبباً ضمن ما هيأ الله من أسباب . . له الحمد فى الأول والآخر . . وإذا أصابه الإخفاق لم يتغير ولم يتحسر ولم يندم على فوات وقال فى ثقة . . بل هيأ الله لى الصالح .

« وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ » .
(البقرة – ٢١٦)

وهو فى كل لحظة يتذكر ويذكر نفسه . . بأنه لا يعلم . . وبأن الله وحده هو الذى يعلم . . فلا يصح الاعتراض على مشيئته . إنه رجاع دائماً

إلى الله معتمد عليه مكافح برغم ذلك أبداً باذل قصارى الجهد والطاقة مؤمن بأن هذه سنة الله فى خلقه .

إن كلمة لا إله إلاَّ الله بالنسبة له ليست حروفاً ولكن منهج حياة وشريعة قلب .

لقد جعل منها دليله ونوره الذى يمشي عليه . . ولهذا كان متبرئاً فى كل لحظة من حوله وقوته . . فهو يؤمن بأنه لا حول له ولا قوة . . وأنه لا حول ولا قوة إلاَّ بالله . . فهو الوحيد القادر . . وهو الوحيد الموجود بحق .

وهذه هى التقوى .

ولهذا كانت كلمة « لا إله إلاَّ الله » فى القرآن هى كلمة التقوى لأنها تُورث التقوى .

ومن يقولها ويتمثل معناها عقلاً وقلباً ويجعلها منار حياته فقد امتلك الدين كله .

ويقول الله عنها فى حديث قدسى :

« لا إله إلا الله » حصنى ، فمن قالها دخل حصنى ، ومن دخل حصنى أمن عذابى .

وهى فاتحة التسابيح يبدأ بها المتصوفة عهودهم وأورادهم وتسبيحاتهم لأنها كلمة التعريف بالله وبأنه لا موجود بحق إلا هو . . وكل ما عدا وجوده فهو من قبيل الوهم والسراب وخداع الحواس

هو الحى الباقى يعطى الحياة للكل ولا يستمد حياته من أحد .

وهو النور ، به نرى الأشياء . . نور العين ونور العقل ونور القلب .

وهو الحق وما عداه باطل .

وهو المتعال . . ملء الأرض والسماوات ومتجاوز لها ومتعال عليها لا يتحيز في مكان ولا يتحدد بزمان .

وهو القوى بلا نهاية .

والموجود بلا بداية .

وهو الواحد الأحد المرتجى . . لا يرتجى غيره . .

سبحانه لا إله إلا هو تقدست ذاته . . وجلت وتنزهت عن الأوصاف .

ليس كمثله شيء فى السماء ولا فى الأرض .

أحاط بالأبصار ولم تحط به الأبصار .

لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

تقدس عن أن تكون له صاحبة ولا ولد . . وكيف يحتاج إلى ولد . . وهو الذى بيده ملكوت كل شيء . . وهو الغنى المستغنى الجبار القهار المهيمن على العالمين . . يبدأ الخلق ثم يعيده بكلمة منه . . وتنفد البحار ولا تنفد كلماته .

احتجب عنا من فرط إشراقه وغاب لفرط دوامه واختفى لفرط ظهوره .

منه المبتدأ و إليه المآب والمنتهى .

ولا سلام إلا فى معيته ولا سكينة إلا فى حضرته .

هو مولانا وربنا وسع كل شيء رحمة وعلماً .

ما قدرناه حق قدره . . ولا نستطيع ولو أردنا . . وكيف نحصى ثناء عليه ونحن لا نحيط بفعله ولا بعلمه ولا بآثاره ، فلا طاقة لنا بحمده .

ولهذا حمد نفسه بنفسه فى فاتحة كتابه فقال : « الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

هو الحامد والمحمود لأنه وحده الموجود بحق . . وما نحن إلا فيض كرمه .

وهو الوحيد القادر على الحمد لأنه الوحيد العالم بخفايا أفعاله وما نحن إلا شهود لذرة واحدة من ذراته هى الأرض فى سماوات لا تتناهى آفاقها .

وهو اللطيف الكريم قد ارتضى لنا هذه الصيغة لنحمده بها فنقول « الحمد لله رب العالمين » فى بداية كل صلاة .

وهو قد علمنا أنه قد خلق العالم باسمه الرحمن الرحيم لا باسمه القهار الجبار . . فهو قد خلقه بالرحمة . . بل بمطلق الرحمة (والرحمن هو من يسبغ مطلق رحماته على كل ما يخلق . . ما يستحق الرحمة وما لا يستحقها) فنقول فى بدء كل شىء « بسم الله الرحمن الرحيم » .

لأنه باسمه الرحمن الرحيم بدأ الخلق فأوجد كل شىء رحمة لا قهراً :

كتب على نفسه الرحمة .

وقال عن نفسه فى حديث قدسى : « سبقت رحمتى غضبى » .

وهو فى « الفاتحة » الرحمن الرحيم أولاً ثم مالك يوم الدين ثانياً ، ويوم الدين هو يوم الغضب والحساب ويوم يدان الإنسان بما قدمت يداه .

« ولا إله إلاّ الله » تشتمل فى داخلها على مطلق التوحيد .

وفى الفاتحة آيات جميلة تحشد الانتباه لتتوجه به إلى ذلك الواحد .

« إِيَّاكَ نَعبدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِين.اهْدِنَا الصِّراط الْمُسْتَقِيم » .

أنت وحدك الذى نعبد .

وأنت وحدك الذى نستعين .

وأنت وحدك وسيلة الهداية إلى الصراط المستقيم فاهدنا إليه .

والصراط المستقيم هو الطريق المؤدى إلى الله وإلى الحق والنجاة .

ولهذا كانت الفاتحة هى تعريف بالله وبالطريق إليه فى إيجاز بليغ يلخص مضمون القرآن كله فى سبع آيات . . فما القرآن كله فى جوهر الأمر إلا تعريف بالله وبآخرته و بالطريق إليه .

والله فى القرآن ذات وأسماء وصفات وأفعال .

وأفعال الله هى الكون كله بما فيه من سماوات وأرضين ومخلوقات ومن غيب محجوب لا نراه .

والجنة والجحيم والآخرة هى بعض ما خلق .

والطريق إلى الله فى القرآن وسيلته العبادة والشريعة والمحبة . . وهذا هو الصراط المستقيم المؤدى إلى النجاة .

والفاتحة توجز كل هذه الحقائق وتقدمها فى سباعية من الآيات أشبه بسيمفونية ذات نغم رحمانى جميل . . ولهذا قال نبينا عن الفاتحة إنها أفضل القرآن وعن آية الكرسى إنها سيدة آيات القرآن وعن سورة ياسين إنها قلب القرآن .

والذى يقرأ القرآن فى تفكر وتأمل يشعر أنه خرج جميعه من بذرة واحدة هى كلمة « لا إله إلا الله » تفرعت وأورقت وأثمرت شجرة القرآن كله .

من التوحيد نشأت كل أعداد المعارف والعلوم .

يبدو هذا فى آية رائعة مثل آية الكرسى التى تبدأ بالتوحيد ثم تتسلسل إلى صفات ذلك الواحد القيوم .

« اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَىُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ

وَالأَرْضَ وَلاَ يَئُودُهُ (ولا يشق عليه) حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِىُّ الْعَظِيم » .

(البقرة — ٢٥٥)

وأكثر من سورة وأكثر من آية فى القرآن تبدأ بكلمة التوحيد أو تنتهى بها أو تنتهى إليها . . كل شىء يبدأ من الواحد وينتهى فى آخر الأمر راجعاً إليه .

ونعلم من أوليات الحساب أن الواحد ينقسم إلى ما لا نهاية فيعطى جميع الأعداد والكسور والأجزاء .

والله الواحد يعطى كل الأعداد من كل شىء ولكن دون أن ينقسم ولهذا قال عن نفسه إنه الأحد .

والأحد هو الواحد الذى لا يقبل القسمة أو التجزئة ولا يتألف من أعضاء . . فهو أحد . . كامل متكامل بذاته ، لا يمكن أن يكون له بعض . . وإنما هو دائماً كل .

ولأنه أحد ولا يمكن أن يكون اثنين بالقسمة أوبالتكاثر ، فهو « السلام » . . لا تقوم فيه حرب أو صراع . . لأنه لا يمكن أن تقوم حرب إلا بين طرفين . . وهو دائماً أحد .

ولهذا كان من أسمائه الحسنى . . إنه « السلام » .

ولنبلغ السلام نحن أيضاً لا طريق لنا إلا أن نتوحد فيما بيننا كدول وأمم وطوائف .

ولا يمكن أن يحقق الفرد منا سلامه الداخلى إلا إذا توحد داخل نفسه فتوحدت رغبته مع عقله مع إرادته مع هدفه . . وهذا لا يتم إلاَّ إذا توحد مع الله ذاته . . وذلك بأن يكون مع الله بالمعنى الصوفى . . أى على الصراط المستقيم المؤدى إلى الله .

والأعداد والحروف لها علم عند الصوفية .

وكل رقم له دلالة . . وكل حرف له رقم يقابله . . وبعض الأرقام لها فلسفية خاصة . . مثل رقم ٧ ، فإن السماوات سبع والأرضين سبع وألوان الطيف سبعة ودرجات السلم الموسيقى سبع وأيام الأسبوع سبعة والجنين لا يكتمل نموه إلاَّ فى سبعة أشهر وأبواب جهنم كما جاء فى القرآن سبعة وآيات الفاتحة سبع . . والله يسميها فى كتابه السبع المثانِي .

والحروف لها أسرار هى الأخرى .

وحرف مثل حرف « الحاء » نراه يدخل تلقائيًّا فى تركيب كل الكلمات التى تشترك فى معنى السخونة مثل :

حب ، حرب ، حريق ، حرارة ، حر ، حمى ، حميم ، حلو ، حراق ، حريف ، حار .

وهذا يعنى أن الحرف له خاصية فى ذاته ومعنى فى ذاته ودلالة فى ذاته . . بغض النظر عن الكلمات التى يدخل فيها .

وهذا دليل قاطع على أن الحروف التى نزلت فى بداية السور مثل آلم . . طسم . . كهيعص . . حم . . طس . . ق . . ن . . ص . . هى حروف لها معنى فى ذاتها . . وكلمات لها سرها ومدلولها وإن غاب عنا فهمها .

وهى علوم عليا سوف نصل إليها فيما بعد .

ولا يوجد فى القرآن حرف زائد ولا حرف ناقص ولا حرف فى غير مكانه . . وكل حرف له حكمه .

والله هو المعلم الأول . . « الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » (العلق – ٤ ، ٥)

هو الذى ألهمنا الحروف وعلمنا بعض أسرارها .

ويقول القرآن عن كتاب الشهادة « وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَما عَلَّمَهُ اللهُ » .

وفى سورة البقرة « وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ » .

فالله هو المعلم وما الجامعات والمدارس والمكتبات والكتب إلا أسباب ووسائل . . لكن الله هو الواهب الحقيقى للعلم فهو الذى أعطانا النفس القابلة للتعلم والعقل المدرك والذاكرة الحافظة ثم ألهمنا الحق والحرف والكلمة .

وإنا لنجد كلمة واحدة مثل « أم » تتشابه فى جميع اللغات . بين عربية وإنجليزية وفرنسية حتى فى لغة النيام نيام نجد لها التركيب نفسه فهى أم ، وماما ، ومامى ، وموما .

و« موما » هى كلمة « أم » بين زنوج النيام نيام .

وبالمثل الأب : أب ، بابا ، بابى ، بوبا .

وهم ينادون « الأب » « بوبا » فى قبائل النيام نيام .

وهذا التشابه بالرغم من تباين الأماكن والأقطار يدل على وحدة المصدر وعلى أننا تلقينا الحروف الأولى إلهاماً . . وأننا أدركنا بعض مدلولات تلك الحروف وأسرارها واستخداماتها من المصدر نفسه . واشتراك حرف الباء فى جميع ألفاظ الأب يكشف عن خاصية وسر ومدلول فى حرف الباء . وبالمثل حرف الميم فى لفظ الأم .

وكل حرف من حروف اللغة له خواصه التعبيرية وأسراره .

ونحن لم نتعلم من هذه الأسرار إلا القليل .

وحينما يطالعنا القرآن بتلك الحروف المطلسمة فى بدايات السور أمثال . . طسم . . كهيعص . . حم . . طس . فإنه يطالعنا بأسرار بالفعل ، وليس بمجرد حروف تشابكت كيفما اتفق ، وإنما هى بعض التحديات التى تحدانا بها القرآن ووعدنا بأن يأتى تأويلها فى آخر الأيام .

ونظريات المفسرين فى هذه الحروف كثيرة ومختلفة .

البعض يقول إن الله يقسم بهذه الحروف فى مطالع السور .

والبعض يقول إنها تؤلف فيما بينها اسم الله الأعظم الذى احتفظ بسره لنفسه .

والبعض يقول إنها مجرد مفردات . . يقول لنـا الله إنه خلق منها ومن مثلها القرآن . . فيقدم لنا لبنات البناء وخاماته قبل أن يرينا البناء فى كماله وتمامه . . على سبيل الإعجاز .

والبعض يقول إنها أسماء الله (الر . حم . ن تؤلف اسم الرحمن) .

ويقول ابن عربى إنها لغة إلهية يُصرِّف بها الملائكة والعارفون الأمور الكونية ويقول فى كتابه « الفتوحات المكية » إن آصف بن برخيا نقل عرش بلقيس فى لمح البصر عن طريق استخدام هذه الحروف . . وأنه عن طريق هذه الحروف يستطيع العارف بالله أن يحول المادة إلى طاقة والطاقة إلى مادة فى لمح البصر .

وكلها ضروب من التخمين والاجتهاد لا يعرف نصيبها من الصواب إلا الله .

وما كان لنا أن نحيط بالقرآن فى جيل واحد أو أجيال . . وقد نزل

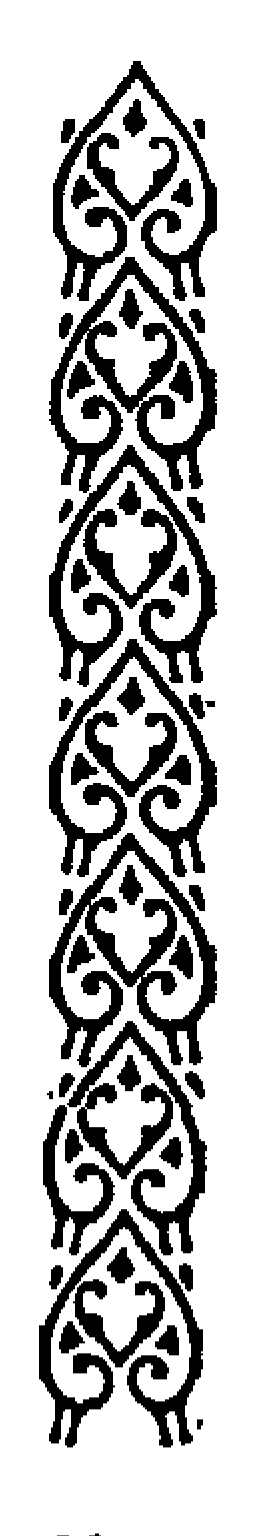
القرآن لكل العصور . . ليبوح بسره على مدى عمر الدنيا فيكاشف كل مفسر بقطرة من بحره .

وما زال القرآن يعطى كل من جاهد فى تفهمه . . وما زال يفتح قلبه لكل من فتح له قلبه .

* * *

لماذا.. إعجاز القرآن؟





القرآن كتاب حافل بالنبوءات .

ومن هذه النبوءات ما تحقق فى وقته .

ومنها ما هو فى انتظار ميعاده .

عن وقعة بدر . . وهى وقعة حربية التقى فيها المسلمون وهم قلة بكثرة هائلة من جند الكفار نزل الوحى مبشراً :

« وإذ يَعِدُكُمُ اللهُ إحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أنَّهَا لَكُمْ »

(الأنفال – ٧)

« سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّون الدُّبُر » . (القمر – ٤٥)

وقد حدث .

وقبل دخول مكة . . حينما كانت العودة إلى الكعبة حلماً بعيد التحقيق يراود المسلمين فى مهجرهم بالمدينة . . جاء الوحى ليؤكد ما رآه النبى فى رؤياه :

« لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ » . (الفتح — ٢٧)

وقد حدث .

وعن انتصار الروم بعد هزيمتها نزلت النبوءة .

« غُلِبَتِ الرُّومُ فى أَدْنَي الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْد غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فى بِضْعِ سِنِينَ » . (الروم — ٢ ، ٣ ، ٤)

ولفظ بضع يستعمل فى اللغة لما هو أقل من عشرة وأكثر من ثلاثة . . وقد حدث أن انتصرت الروم بعد سبع سنوات من هزيمتها .

ثم وعد إسرائيل الذى قال فيه القرآن مخاطباً اليهود .

« لَتُفْسِدُنَّ فِى الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبيرا » .

(الإسراء — ٤)

وها هى ذى إسرائيل تعلو وتطغى للمرة الثانية علوها الكبير الذى تحلم فيه باجتياح النيل والفرات . . وهو علو إلى انخفاض وهزيمة كما قال القرآن .

هذا غير نبوءات قادمة تنذر باقتراب الساعة . . مثل انشقاق القمر وظهور الدخان . . إلى آخر ما ذكرنا .

فإذا لجأ القرآن إلى الجدل فهو يجادل فى بساطة ويقيم الحجة فى إحكام .

يقول عن الكافر الذى لا يصدق أنه سوف يبعث .

« وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِىَ خَلْقَه قَالَ مَنْ يُحْيِى الْعِظَامَ وهِىَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عليم » .

(يس — ٧٨ ، ٧٩)

« أَفَعَيِينا بِالخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فى لَبْسٍ مِنْ خَلقٍ جَديدٍ؟ » .

(ق – ١٥)

وليبرهن على وجود الخالق لا يلجأ إلى صفحات من الحذلقة الفلسفية . إنما هو مجرد سؤال يوقع به الكفار فى إشكال :

« أمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أم هُمُ الْخَالِقُونَ » . (الطور – ٣٥)

وما زال الإشكال باقياً بالرغم من خمسة آلاف سنة من تطور الفلسفة . .

وما زال السؤال بلا جواب .

فإذا أراد أن يشرح للناس الحقيقة الفلسفية الأولية بأن لكل شيء مظهراً زائلاً وجوهراً باقياً فإنه لا يبنى حبائل من المنطق ولا شراكاً من الحجج كما يفعل الفلاسفة المحترفون وإنما هو يستدرجك إلى الحقيقة بمثل بسيط .

« فَأَمَّا الـزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فى الأرضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَال » . (الرعد – ١٧)

فإذا أراد أن يفحم ويلجم ألقى بمثل آخر .

« يَأَيُّهَا النَّاسُ ضُربَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إنَّ الذِين تَدْعُونَ مِنْ دُون اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوب » . (الحج – ٧٣)

وهو مثل ما زال معجزاً للعلم والعلماء بعد ألف سنة من تطور العلم والتكنولوجيا .

فمن يستطيع أن يخلق ذبابة على هوانها وتفاهتها ؟

وإذا سلبتك الذبابة حياتك بمرض تنقله إليك فمن يستطيع أن يرد لك تلك الحياة .

بل إنها لو سلبتك ذرة من النشا من طعامك . . فإن عباقرة الكيمياء لو اجتمعوا لا يستطيعون استرداد هذه الذرة من أمعائها لأنها تتحول فوراً إلى سكر بفعل الخمائر الهاضمة .

فما أضعف الطالب والمطلوب .

ما أضعف عبقرى الكيمياء . . وما أهون الذبابة . . وما أتفه ذرة من النشا . . فى عالم هائل بلا حدود . . بل عوالم وأفلاك مترامية خلقها الخالق الذى أحاط بكل شيء علماً .

بهذه البساطة المعجزة الملغزة يتعرض القرآن لأعقد القضايا فيوصلها لأبسط الأذهان .

والنفس فى القرآن تموت شأنها شأن البدن .

« كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ » . (آل عمران — ١٨٥)

« ومَا كَانَ لِنَفْسٍ أنْ تموتَ إلاَّ بإذنِ الله » .

(آل عمران — ١٤٥)

« وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّم اللهُ إلاَّ بالْحَقِّ » .

(الأنعام — ١٥١)

والنفس فى القرآن هى مجمل الرغبات والغرائز والأهواء :

« إنَّ النَّفْسَ لأمَّارَةٌ بالسُّوء » . (يوسف — ٥٣)

« وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لى نَفْسِى » . (طه — ٩٦)

ويمكن أن تأتِى بمعنى النفس المتعالية اللوامة .

« لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلاَ أُقْسِمُ بالنَّفْسِ اللَّوَّامَة » .

(القيامة — ١ ، ٢)

ويمكن أن تأتى بمعنى الروح الباقية .

« اللهُ يَتَوَفَّى الأنفُسَ حينَ مَوْتِهَا » .

والروح فى القرآن لغز . . وهى السر الإلهى الباقى الذى يتوفاه الله والذى لا يجرى عليه قدر الموت .

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً » . (الإسراء — ٨٥)

والروح فى الفلسفة لغز . . وهى أمر لا يمكن إثباته بالشواهد والأدلة الحسية على وجه القطع . . ولا يمكن إنكاره إلا تعسفاً . . ولا يمكن تجاوزه إلا جهلا .

وهى تبقى بعد ذلك قضية القضايا التى يقف أمامها علمنا المحدود مكتوف اليدين . . وهى أعصى بكثير من قضية وجود الخالق .

وما قاله القرآن فى قصة الخلق وفى السماوات والأرض وفى الغيب وفى الأخلاق والتشريع والسياسة والحرية والمسئولية والعبادات ذكرناه بالتفصيل فى ما سبق ولا داعى للتكرار .

والذين يكتبون عن إعجاز القرآن يعدون دائماً تلك الحيثيات من تنبؤ القرآن بما لا نعلم من أمر مستقبلنا وروايته لتاريخ ما لا نعلم من أمر ماضينا إلى جانب تلك الموافقات العجيبة مع علوم عصرية متأخرة جاءت بعد نزول آياتها بأكثر من ألف عام . . إلى جانب الكلام بإحاطة فى كل ما يشكل من أمور الحكم والأخلاق والتشريع وما وراء الطبيعة .

ولكنى أرى أن إعجاز القرآن هو بالدرجة الأولى ما يستثيره فى القلب من إحساس غامض . . لمجرد أن تصطف الحروف فى السمع بهذا النمط الفريد . . ذلك العزف بلا آلات وبلا قواف وبلا بحور وبلا أوزان .

حينما نصغى إلى ما يقوله زكريا لربه فى سورة مريم :

« رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بدعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا » . (مريم — ٤)

أو نستمع إلى كلام المسيح فى المهد :

« إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ والزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا » .

(مريم — ٣٠ ، ٣١)

أو تلك الجملة الموسيقية التى تتحدث عن خشوع الرسل :

« إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا » .

(مريم — ٥٨)

أو تلك النغمة الرهيبة التى تصف اللقاء بالله يوم القيامة :

« وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً » .

(طه — ١١١)

أو ذلك الإيقاع الرحماني الذى يخاطب الله به نبيه محمداً فى موسيقى عذبة تملك شغاف القلب :

« طَهَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى . إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى . تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ والسَّمَوَاتِ الْعُلَى . الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى . لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى . وَإِنْ تَجْهَرْ

بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى . اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى » .
(طه – من ١ إلى ٨)

فإذا تحول القرآن إلى الحديث عن المجرمين وما أنزل بهم من عذاب . . تحولت الموسيقى إلى أصوات نحاسية تصك الأذن وتحولت الكلمات إلى جلاميد صخر وكأنها رجم .

« إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ . تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ » . (القمر – ١٩ ، ٢٠)

فإذا سبحت الملائكة طالبة من الله المغفرة للمؤمنين سالت الكلمات كأنها سبائك الذهب .

« رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ » .
(غافر – ٧)

فإذا جاء الإنذار بالساعة . . فإن الهول والشؤم يطل من الكلمات المتوترة والعبارات المشدودة :

« وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ » . (غافر – ١٨)

ثم العتاب وأى عتاب حينما لا ينفع العتاب .

« يَأَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ . فِى أَىِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ » . (الانفطار – ٦ ، ٧ ، ٨)

والبشرى . . حينما تبشر الملائكة مريم بميلاد المسيح :

« يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ » . (آل عمران – ٤٥)

ثمّ ذلك الصراخ فى الأذن بتلك الكلمة العجيبة التى تشبه السكين :

« فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ . يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيه » .

(عبس من ٣٣ إلى ٣٧)

ذلك التشكيل والسبك والتلوين فى الحروف والعبارات فى معمار . . هو نسيج وحده . بلا شبيه . . من قبل أو من بعد .

كل ذلك يتم فى يسر شديد لا يبدو فيه أثر اعتمال وافتعال واعتساف . . وإنما تسيل الكلمات فى بساطة شديدة لتدخل القلب فتثير ذلك الإحساس الغامض بالخشوع من قبل أن يتيقظ العقل فيحلل ويفكر ويتأمل . . مجرد قرع الكلمة للأذن وملامستها للقلب ، تثير ذلك الشيء الذى لا أجد له تفسيراً .

هذه الصفة فى العبارة القرآنية إلى جانب كل الصفات الأخرى مجتمعة هى التى تجعل من القرآن ظاهرة لا تفسير لها فيما نعرف من مصادر الكلام المألوف .

إن أقصى ما فى مستطاع مؤلف أو أديب أن يعبر عن نفسه أو يخبرك عن نفسك وعن بيئتك ومجتمعك . . أو يروى لك تاريخ ما حفظه التاريخ . أو يحدس لك المستقبل من شواهد ودلالات الحاضر . . فى عبارة أقصاها أن تكون قصيدة شعر أو مقامة أو قصة أو مسرحية .

أما القرآن فهو يختلف عن كل هذا . . وهو معجزة لأنه يخبرك عن ماض لم يؤرخ ويتنبأ بمستقبل لم يأت ولم تقم عليه الشواهد . . ويدلك على علوم لم تعلم بعد . . وعن غيب محجب مطلسم لم يكشف إلا لقلة

من المخصوصين من أهل التصوف . . فإذا رأى هؤلاء فهم يرون ما يوافق كلمة القرآن وإذا طالعوا فلا يطالعون إلا ما يطابق أسراره .

ثم هو يقدم إليك حكمة الأزل ودستور الحياة الأمثل وفلسفة فى الأخلاق والحكم واللاهوت وما وراء الطبيعة وفى المعاملات وفى الزواج والمعاشرة والحرب والسلم وشرائع العبادات فى أسلوب منفرد وعبارة شامخة وبنيان جمالى وبلاغى هو نسيج وحده لا هو بالشعر ولا بالمقامة المنثورة . . ليس له شبيه سابق ولا تقليد لاحق . . يلقيه الوحى فى تحد باق على الأعصر والدهور .

« وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّار الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ » .

(البقرة – ٢٣ ، ٢٤)

هكذا يتحدانا القرآن أن نقلد ولو سورة ثم يقول لنا يقيناً إننا لن نفعل . . وهو بذلك يورد خبراً صادقت عليه الأيام والسنون . . فلم يحفظ لنا التاريخ على مدى قرابة ألف وأربعمائة سنة تقليداً واحداً للقرآن برغم كثرة حساده وأعدائه وما زال التحدى قائماً – وما زال القرآن يفضى بأسراره ويكشف لنا مكنوناته فيزداد إعجازاً .

« سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » .

(فصلت – ٥٣)

وهو تحد آخر بأن مستقبل الأيام سوف يصادق على آيات ما زلنا نقرؤها على أنها أسرار مطلسمة وغيوب محجبة .

« أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً » . (النساء – ٨٢)

إنه الانضباط والإحكام فى كل لفظة وفى كل حرف . . لا تتقدم كلمة على كلمة إلا بسبب ولا تتأخر كلمة عن كلمة إلا بسبب . . وكمثل بسيط نجد أن القرآن يذكر السمع مقدماً على البصر فى عديد من الآيات . . وهى مسألة يعرف سرها الآن علماء الفسيولوجيا والتشريح فهم وحدهم يدركون أن جهاز السمع أرقى وأعقد وأدق وأرهف من جهاز الإبصار ، ويمتاز عليه بإدراك المجردات كالموسيقى وإدراك التداخل مثل حلول عدة نغمات داخل بعضها بعضاً مع القدرة على تمييز كل نغمة على انفراد كما تميز الأم صوت بكاء ابنها من بين زحام هائل من آلاف الأصوات المتداخلة . . يتم هذا فى لحظة زمن . . أما العين فهى تتوه فى زحام التفاصيل ولا تعثر على ضالتها ، يتوه الابن عن عين أمه فى الزحام ولا يتوه عن سمعها . . وموسى سمع كلام الله ولم يستطع أن يراه .

والعلم يمدنا الآن بألف دليل على تفوق معجزة السمع على معجزة البصر .

ولم يكن هذا العلم موجوداً أيام نزل القرآن .

ومع ذلك يذكر لنا القرآن السمع مقدماً على البصر بطريقة ملفتة فى أكثر من سبعة عشر موضوعاً .

« وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون » .

(النحل – ٧٨)

« أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ » .

(يونس – ٣١)

« وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً » . (الأحقاف – ٢٦)

« حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ » .

(فصلت – ٢٠)

« أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا » . (مريم – ٣٨)

« وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ » .

(المؤمنون – ٧٨)

« إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً » .

(الإسراء – ٣٦)

« وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ » .

(فصلت – ٢٢)

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ » .

(الأنعام – ٤٦)

« وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ » . (البقرة – ٢٠)

« أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ » .

(النحل – ١٠٨)

ويبدو هنا من تقديم القلب أن الترتيب هو ترتيب تفاضل .

« فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ » .

(الأحقاف – ٢٦)

« أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ » .

(محمد – ٢٣)

« إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً » . (النساء – ٥٨)

« إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاه سَمِيعاً بَصِيراً » .
(الإنسان – ٢)

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ » . (الشورى – ١١)

« وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ » (المجادلة – ١)

بهذا التكرار المتعمد يذكر القرآن السمع مقدماً على البصر برغم أن النظرة العامية إلى الأمور تنظر إلى البصر والأبصار بإجلال أكثر . . وبرغم أن علوم التشريح والفسيولوجيا التى اهتدت إلى الحقيقة لم تكن معروفة آنذاك .

وهو حينما يذكر السرقة نراه يورد السارق مقدماً على السارقة . .

« وَالسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيدِيَهُمَا » . (المائدة – ٣٨)

. . . أما فى الزنا فنراه يذكر الزانية مقدمة على الزاني .

« الزَّانِيَةُ والزَّانِي فَاجْلِدُوا كلَّ واحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ » .

(النور – ٢)

. . والحكمة واضحة فالمرأة فى الزنا هى البادئة وهى التى تدعو الرجل بزينتها وتبرجها . . أما فى السرقة فهى أقل جرأة من الرجل .

إننا إذن أمام كلمات مصفوفة بإحكام ودقة وانضباط .

« كِتَابٌ أُحكِمَتْ آيَاتُهُ » لا تتقدم كلمة على كلمة إلا بسبب ولا تتأخر إلا بسبب .

وأحياناً يكون انتقاء الكلمة لتتوافق مع التعبير معجزة بيانية فى ذاتها . .
كما يقول القرآن عن الرياح :

« وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ » .. (الحجر – ٢٢)

هذه الصفة بأن الرياح لواقح تستدعى وقفة تأمل طويلة .

فالرياح الباردة تثير سحاباً . . وهى تدفع السحب المكهربة إلى لقاء بعضها بعضاً . . تلتقى بالسحابة السالبة التكهرب بين أذرع سحابة أخرى موجبة التكهرب فيحدث البرق والرعد ويسقط المطر . وما أشبه ما يحدث بالتلقيح .

فهى تلاقح بين السحب فيكون برق ورعد ومطر .

وينزل المطر على الأرض فيخصبها . . وهو تلقيح من نوع آخر بين الماء والأرض . وتحمل الرياح حبوب اللقاح من زهرة لتلقى بها إلى مبيض زهرة أخرى فيكون تلقيح من نوع ثالث هذه المرة . . تلقيح بالمعنى الحرفى للآية .

فنحن أمام كلمة صادقة مجازاً وصادقة حرفيًّا وعلى أى صورة قلبتها تصدق معك وهى بعد هذا كلمة جديدة وغريبة وصفة مبتكرة حينما توصف بها الرياح وهى من الناحية الجمالية الإيقاعية ذروة . . وفى النطق عذبة : « وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ » . تنطقها وتلوكها فى فمك فتستوقف السمع وتطرب الأذن .

وكل هذا العلم التفصيلى فى تكهرب السحاب وانتقال حبوب اللقاح لم يكن معلوماً أيام نزول الآية .

وحمل المفسرون معنى الكلمة على أنه مجاز . . فالرياح تثير السحاب وتسقط المطر على الأرض فتخصبها . . فهى لواقح بالمعنى المجازى .

ولكن العلم وضع أيدينا على كنوز البيان فى داخل هذه الكلمة فإذا بالصدق فيها مجازى وحرفى وجزئى وكلى . . وإذا بانتقائها فى موضعها معجزة من معجزات الإحكام والدقة فى البيان القرآنى .

ومثل آخر . هذه الآية من سورة العنكبوت :

« مَثَلُ الذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ البيوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » .

(العنكبوت – ٤١)

والحقيقة الملفتة للنظر هى وصف بيت العنكبوت بأنه أوهن البيوت .

ولم يقل القرآن خيط العنكبوت أو نسيج العنكبوت وإنما قال بيت العنكبوت وهى مسألة لها دلالة . . ولها سبب .

والعلم كشف الآن بالقياس أن خيط العنكبوت أقوى من مثيله من الصلب ثلاث مرات . . وأقوى من خيط الحرير وأكثر منه مرونة .

فيكون نسيج العنكبوت بالنسبة لاحتياجات العنكبوت وافياً بالغرض وزيادة . . ويكون بالنسبة له قلعة أمينة حصينة .

فلماذا يقول القرآن : « وَإِنَّ أَوْهَنَ البيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ » . .

ولماذا يختم بكلمة : « لَوْ كَانُوا يَعْلَمُون » .

لا بد أن هناك سرًّا .

والواقع أن هناك سرًّا بيولوجيًّا . . كشف العلم عنه فيما كشف لنا مؤخراً .

فالحقيقة أن بيت العنكبوت هو أبعد البيوت عن صفة البيت بما يلزم البيت من أمان وسكينة وطمأنينة .

فالعنكبوت الأنثى هى التى تبنى البيت وتغزل خيوطه وهى الحاكمة

عليه وهى تقتل ذكرها بعد أن يلقحها وتأكله . . والأبناء يأكل بعضهم بعضاً بعد الخروج من البيض ، ولهذا يعمد الذكر إلى الفرار بجلده بعد أن يلقح أنثاه ولا يحاول أن يضع قدمه فى بيتها .

وتغزل أنثى العنكبوت بيتها ليكون فخًّا وكميناً ومقتلاً لكل حشرة صغيرة تفكر فى أن تقترب منه .

وكل من يدخل البيت من زوار وضيوف يقتل ويلتهم . .

إنه ليس بيتاً إذن ، بل مذبحة يخيم عليها الخوف والتربص ، وإنه لأوهن البيوت لمن يحاول أن يتخذ منه ملجأ . . والوهن هنا كلمة عربية تعبر عن غاية الجهد والمشقة والمعاناة . وهذا شأن من يلجأ لغير الله ليتخذ منه معيناً ونصيراً .

« مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ (أنصاراً) كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ البيوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » .

(العنكبوت — ٤١)

ذروة فى دقة التعبير وخفاء المعانى ومحكم الكلمات وأسرار العلوم مما كان معروفاً أيام النبى ومما لم يعرف إلا بعد موته بألف عام . . إعجاز قطعى لا شك فيه يتحدى العقل أن يجد مصدراً لهذا العلم غير المصدر الإلهى .

وفى سورة الكهف نقرأ مثلاً آخر حينما يروى القرآن عن رقدة أهل الكهف :

« وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلاَثَ مائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً » .

(الكهف — ٢٥)

ونعلم الآن بالحساب الفلكى أن الثلاثمائة سنة بالتقويم الشمسى

تساوى ثلاثمائة وتسعاً بالتقويم القمرى (باليوم والساعة والدقيقة) . . وكان التقويم المتبع أيام نزول الآيات قمرياً فلزم أن يقول القرآن إن السنوات قد ازدادت تسعاً – وهو الفرق بين التقويمين وهذا سر لم يعرف إلا الآن .

ومثل آخر فى سورة القيامة :

« أَيحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّنْ نجْمَعَ عِظَامَهُ . بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّىَ بَنَانَهُ » .

(القيامة – ٣ ، ٤)

يقول الله هذا الكلام فى مقام التحدى مشيراً بأن هناك معجزة كبرى فى تسويته للبنان وبعثه على صورته الأولى أكبر من إحياء العظام ، وهو أمر لم يكشف سره إلا بعد نزول الآية بأكثر من ألف سنة حينما عرف أن لكل إنسان بصمة خاصة به رسمت على بنانه . . لا يتفق اثنان فى بصمة واحدة منذ أيام آدم حتى التوائم .

وفى سورة النازعات الآية ٣٠ .

« وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دحَاهَا » .

ودحاها أى جعلها كالدحية (البيضة) وهو ما يوافق أحدث الآراء الفلكية عن شكل الأرض . . ولفظة دحا تعنى أيضاً البسط . . وهى اللفظة العربية الوحيدة التى تشتمل على البسط والتكوير فى ذات الوقت . . فتكون أدل الألفاظ على الأرض المبسوطة فى الظاهر المكورة فى الحقيقة . . وهذا منتهى الإحكام والخفاء فى اختيار اللفظ الدقيق المبين .

وفى سورة الطارق :

« وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ » .

يصف القرآن السماء فى الآية بأنها ترجع ما يصعد إليها . . (بخار الماء ترجعه إلينا مطراً) . . ونعلم الآن أن الأمواج اللاسلكية والتليفزيونية ترتد هى الأخرى من السماء إذا أرسلت إليها بسبب انعكاسها على الطبقات العليا الأيونية . . ولهذا نستطيع أن نلتقط إذاعات لندن وباريس وجميع المحطات من الأرض بعد انعكاسها ونستمع إليها ونشاهدها ولولا ذلك لضاعت وتشتتت ولم نعثر عليها . . فالسماء أشبه بمرآة عاكسة ترجع ما يبث إليها . . فهى السماء « ذات الرجع » . وهى أيضاً تعكس الأشعة الحرارية تحت الحمراء فترجعها إلى الأرض لتدفئها .

والأرض هى الأخرى « ذات الصدع » أى تنصدع ليخرج منها النبات ونافورات الغاز الطبيعى والبترول وينابيع المياه الكبريتية ونفث البراكين . وتنصدع مع كل هزة زلزالية .

هنا مرة أخرى نجد أنفسنا أمام ألفاظ دقيقة . . جامعة فى معانيها . . مختارة بدقة ومصفوفة بإحكام .

وهى أمثلة من عشرات الأمثلة لا تفسير لها إلا أنها جاءت تنزيلاً وأنها علم إلهى وليست علماً بشريًّا . . فأنت أمام دقة وإعجاز وإحكام وعلم شامل .

ما وقفت أمام كلمة قرآنية وحاولت أن تنقلها من مكانها أو تستبدلها حتى أدركت الاستحالة . . وحتى أدركت أنك أمام طراز من الضرورات اللغوية والعلمية يثير الذهول . . وأنك أمام لون من ألوان الصدق المطلق .

انظر إلى هذه الآية عن الرشوة فى سورة البقرة – ١٨٨ – « ولا تأْكُلُوا أمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالبَاطِلِ وتُدْلُوا بِهَا إلى الحُكَّامِ لِتأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أمْوَال

النَاسِ بِالإِثْمِ وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » كلمة « تدلوا » بالأيدى إلى الحكام مع أن الحاكم هو الأعلى والمحكومين هم الأسفل . . والسر واضح . . إن الحاكم إذا قبل الرشوة أصبح فى الأسفل وأصبحت اليد التى تعطى هى الأعلى . . ومن هنا كانت اللفظة المحكمة الدقيقة « تدلوا » . . ويستحيل عليك أن تتصور لفظة أخرى أدق وأحكم للمناسبة . . والأمثلة لا تنتهى .

وبعض أسرار الكلمات فهمناها . . وكثير من الأسرار ما زالت خافية علينا .

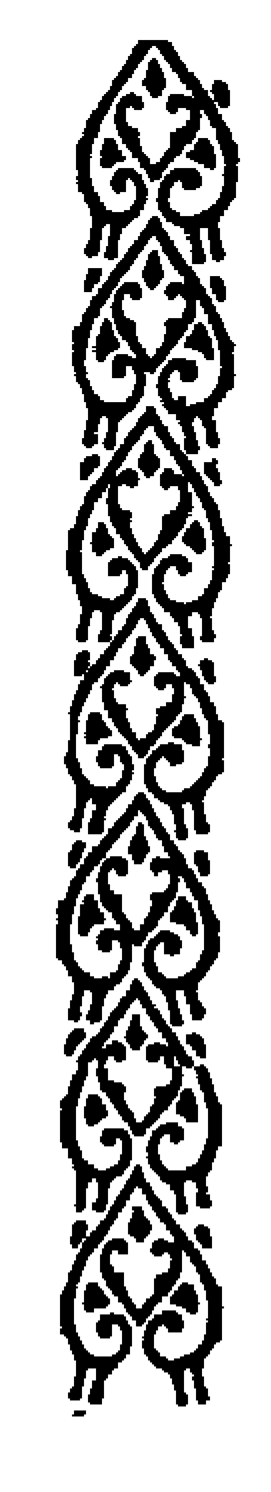
كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وتتسابق العلوم فلا تكاد تلحق بأذياله .

فإذا أضفنا إلى كل هذا أن ذلك القرآن المذهل أتى به رجل أمىّ من قريش لا يعرف القراءة ولا الكتابة . . راعى غنم فى بيئة بدوية من الأعراب البدو فى صحراء جرداء مقطوعة الصلة بالحضارات والعلوم . . فنحن أمام معجزة حقيقية لا يجادل فيها إلا مكابر معاند مستغلق المشاعر معصوب العين والوجدان عاقب نفسه بنفسه إذ حجب عن روحه إشعاع الرحمة والحنان والرأفة الذى يشعه ذلك الكتاب الكريم . . رب فلتكن به رحيماً ولتفتح منه القلب : « فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصّدُور » .

مناقشات





عندما نشر موضوع هذا الكتاب ، أول مرة ، فى هيئة مقالات بإحدى الصحف الأسبوعية فى القاهرة ، أثار نشره اهتماماً بالغاً ولقى إقبالاً منقطع النظير خاصة فى أوساط الشباب . فقد أقبل هؤلاء على قراءته بنهم واستيعاب . واستزادة . . وبعث كثيرون منهم برسائل يناقشون فيها ويستفسرون .

فرأينا أن نضيف هنا إلى موضوع الكتاب مختارات من تلك المناقشات والاستفسارات . . إكمالاً للفائدة المرجوة من الكتاب .

* * *

* محمود الدسوقى من كفر الدوار له عدة أسئلة بريد عنها جواباً شافياً :

أولاً : يذكر لنا أن الله قال فى قرآنه إنه انفرد بعلم ما فى الأرحام ، وإنه اختص نفسه به . . ويسألنا : كيف ذلك والعلم الآن يستطيع أن يعرف جنس الجنين من تحليل البول والدم ومن أخذ عينة من السائل

الأمنيوسى وأحياناً بمجرد صورة أشعة . . يستطيع الطبيب أن يتنبأ على وجه القطع هل الجنين ذكر أو أنثى .

والقارئ يقصد بهذه الآية : « وَيَعْلَمُ مَا فِى الأَرْحَامِ » ويتصور أن معناها علم نوع الجنين هل هو ذكر أو أنثى وهو فهم خاطئ ، وتفسير محدود .

وعلم ما فى الأرحام . . هو أن يعلم الله تاريخك وقدرك وقصة حياتك كلها ، وأنت ما زلت مضغة فى رحم أمك . . وليس أن يعلم جنسك ذكراً أم أنثى . . وكونك ذكراً أو أنثى مسألة جزئية لا أهمية لها ولا يمكن أن تكون المقصودة بالعلم الإلهى لما فى الأرحام . . فعلم الله علم محيط وشامل .

وتستطيع أن تطمئن أن الطبيب الذى يضع سماعته على بطن أمك فيعرف كل يوم من أيام حياتك وأنت ما زلت جنيناً لم ولن يخلق !

والأخ دسوقى ينكر حرية الإنسان ويقول إنه مجبر مسير مقهور على مصيره بالرغم من كل ما كتبت . . وأنا أسوق إليه دليلاً بسيطاً على حريته فأسأله :

ألا تفرق بين يدك تكتب بما تشاء وبين حال يدك أصابتها رعشة الحمى .

ها هنا نوعان من الحركة أنت تفرق بينهما جيداً . . فتقول إن إحداهما حركة حرة والأخرى حركة قهرية . . ولو كنت مجبراً فى الحالين لما فرقت بينهما . . أظن هذا واضح .

ويقول الأستاذ دسوقى فى ختام رسالته إن الغرب تقدم بالكفر وإننا تأخرنا بالتدين . . وإن التدين صفة العاجزين المتأخرين . . ويسألنى من أين نأخذ علومنا . . أليس من الغرب الملحد ؟

وأقول له : أولاً أنت تظلمنا . . إذا تصورت أننا متدينون . . تظلمنا وتظلم الدين وتظلم الواقع . . فالحق أننا كسالى متواكلون مدعون ليس لنا من الدين إلا اسمه . . الدين الذى يأمرنا بالعمل أمراً .

« وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ » (التوبة – ١٠٥)

ويأمرنا بطلب العلم :

« وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً » . (طه – ١١٤)

ويأمرنا بالصدق والإخلاص :

« كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُون » . (الصف – ٣)

ويأمرنا بالكفاح :

« اصْبِروا وَصَابِروا وَرَابِطُوا » . (آل عمران – ٢٠٠)

فأين نحن من هذا . . إننا نصرخ إذا ارتفع سعر المكسرات أو اختفى البندق . . وشهر الصيام عندنا شهر أكل . . والصلاة ميكروفونات و إعلانات . . والحياة تهالك على الدنيا وتكالب على الحطام . . والأمية والجهل والكسل هو القاعدة . . هل تضحك عليّ أم تضحك على نفسك .

نحن متأخرون لأننا لا نعمل بديننا . . وليس لأننا متدينون .

أما « فاترينة » الغرب البراقة ، فهى لا تدل على التقدم .

فى السويد أعلى معدلات للمعيشة والدخل ، وفى الوقت نفسه أعلى إحصاءات للجنون والانتحار . . وفى إنجلترا الشباب الخنافس على الأرصفة يتعاطون المخدرات . . وفى أمريكا الهيبز يؤلفون جمعيات للقتل . . والعقلاء لا يكتفون بالقتل الفردى وإنما يقتلون بالجملة . . ماذا فعل هتلر . . وماذا حدث فى ألمانيا . . قتل وسلخ وحرق الأسرى بالملايين فى معسكرات

الاعتقال . . وأمريكا . . ألقت قنبلتين على هيروشيما وناجازاكى فقتلت أكثر من سبعة ملايين آدمى .

والاحتكارات الرأسمالية تقتل على طريقتها .

والاستعمار يبيد شعوباً فى فيتنام وأفريقيا .

هل هذا هو التقدم ؟ !

صدقنى . . إن التقدم ليس عربة كاديلاك وتليفزيون . . أنت مخدوع مبهور ببريق كاذب .

إن غاندى كان لا يملك إلا مغزل صوف . وكان يسير نصف عار . كل هدفه نشر المحبة . . وكل طعامه التمر واللبن . . لا يعرف الكريم شانتيي ولا البشاميل .

وكان يصلى لله . . فيقرأ آيات من القرآن والإنجيل والتوراة وكتاب بوذا معترفاً بكل ما أنزل الله من هداة ومرسلين .

وغاندى هو رمز التقدم . . وليس العربة الكاديلاك .

لأنه بالمحبة يكون الإنسان إنساناً .

وبالإيمان وبكلمة الحق يكون الإنسان غنيًّا وليس بالمال والأطيان والحطام .

وتقول لى إن العالم المكتشف أفضل من القديس العابد الزاهد .

ومن هو القديس فى نظرك ؟

إن القديس الحقيقى عالم وعارف ومكتشف هو الآخر .

ومندل . . مكتشف علم الوراثة كان راهباً فى دير .

يبدو لى أنك لا تفهم معنى التدين وتتصور أن المتدين هو رجل جالس على رصيف وفى يده مسبحة لا يفعل شيئاً ولا يقرأ كتاباً .

دعني أذكرك أنك لن تكون متديناً إلا إذا أنكرت ذاتك وأصبح كل عملك من أجل الآخرين وأصبحت حياتك محبة وعطاء وعملاً متصلاً بلا طمع في أجر وبلا حقد وبلا حسد وبلا كراهية وبلا تواكل .

لن تكون متديناً إلا بالعلم . . فالله لا يعبد بالجهل .

ولم يكن أينشتين جاهلاً حينما قال إن الله موجود .

* * *

* أما الأخ طه الدسوقي حبيشي الطالب بقسم الفلسفة فله عدة ملاحظات على كلامي في قصة الخلق ، الذي دللت فيه على أن القرآن يقول بالتطور .

يقول الأخ طه إن ما يقوله دارون في هذه القضية لا يقوم عليه دليل فهو إذن لا يرتفع إلى درجة النظرية ، بل هو مجرد فرض ولا يصح لنا أن نسلم به أو نورد له استدلالات قرآنية .

والأخ طه ينسى أني رفضت نظرية دارون كنظرية ولم آخذ منها إلا الحقائق التشريحية المؤكدة التي تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن جميع الكائنات الحية أسرة واحدة بينها وشائج عضوية .

والجانب النظري من الدارونية يفترض أن الارتقاء من أدنى فرع من هذه الأسرة إلى أعلى فرع تم بمقتضى قانون تنازع البقاء . . وهذا الجانب هو الذي يجوز عليه الرفض أو القبول لأنه اجتهاد داروين واستنباطه . . وقد استبعدته وبينت أسباب هذا الاستبعاد . . أما الحقائق التشريحية فهي واقع ويقين ملموس لا يمكن تخطيه .

ويقول الأخ طه إن الآية « وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً » واردة فى مخاطبة نوح لقومه « مَالَكُمْ لاَ تَرْجُونَ للهِ وَقَاراً وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً » وقوم نوح لم يكونوا ليعرفوا شيئاً عن نظرية داروين . . فيكون من الطبيعى إذن أن نفسر الأطوار بأنها أطوار الطفولة والشباب والشيخوخة أو أطوار الجنين فى الرحم على الأكثر .

وردى على هذا أن القرآن نزل لكل العصور والدهور وأن كلماته هى كلمات إلهية وبالتالى غير محددة المعنى فهى تفضى لكل عصر بعمق جديد من أعماقها وهكذا نزداد فهماً لها كلما ازدادت معارفنا .

وهذا هو الفرق بين كلام الله وكلام المناسبات .

ونخطئ أشد الخطأ إذا قصرنا معاني الآيات على حدود مناسباتها .

ويفسر الأخ طه الآية « هَلْ أَتَي عَلَى الإنْسَان حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً » بأنها مرحلة الطين قبل أن يستوى آدم بشراً بالنفخ الإلهى . . وأن آدم ابتداء مطلق لا يمكن أن يكون قد سبقته مرحلة .

وأنا أسأل الأخ طه . . هل أنت متأكد . وكيف تأتّى لك هذا اليقين .

إنه اجتهاد إذن . .

من الجائز أن تكون على صواب ، وأن أكون على خطأ . والعلم عند الله .

* * *

* أما الأخ مصطفى محمود أحمد من حلوان فإنه يلقى علينا خمسة أسئلة . . أو خمسة ألغاز فى الحقيقة .

أولاً : يسألنى عن أهل الجحيم . . وهل يقضى عليهم بالخلود فى العذاب أو يخفف عنهم أو يفرج عنهم ومتى ؟

ثانياً – إذا كان الجحيم فى الآخرة عقاباً طبيعياً على ما سلف من خطايا فى الدنيا . . فهل يكون لعذابنا فى الدنيا أسباب فى سابق العلم الأزلى نعاقب الآن عليها . . وكيف ذلك ؟

ثالثاً – ألمحت فى مقالاتك إلى حياة سابقة لنا فى ملكوت قبل أن نولد ونتزل إلى الأرحام . . فأين يا ترى موضع هذا الملكوت ، وما لون الحياة فيه ؟

رابعاً – إذا كانت آلامنا فى هذه الحياة الدنيا نتيجة أخطاء تورطنا فيها فى حياتنا ، فما تفسيرك للشقاء الذى يضرب على إنسان من يوم ميلاده كالمولود أعمى أو بعاهة وأخوه التوأم فى خير صحة وعافية ؟

خامساً – هل تؤمن بأننا عشنا حيوات سابقة على الأرض فيما يسميه الهنود بالتناسخ .

وجوابى على الأسئلة الخمسة :

الله أعلم . . .

* * *

* وحسين القاضى من المعهد العالى الصناعى بالمنصورة يحاورنى فى موضوع المخير والمسير قائلاً :

أنت تدعى أنك حر مخير وأن دليل ذلك هو المنطقة الحرام فى داخلك التى تسميها النية أو السريرة التى تركها الله حرة بداخلك . . إذا نويت السوء عاقبك وإذا نويت الخير أثابك .

وحسب النية السوداء أو البيضاء يكون مصيرنا .

ولكنى أسألك ومن الذى خلق هذه النية السوداء ؟

أليس هو الله خالق كل شيء ؟

وأنا أجيب على الأخ حسين بالآية القرآنية :

« وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا » .

والآية تقول بصراحة إن كل نفس تلهم بالطريقين فى وقت واحد . . الفجور والتقوى . . ولها أن تختار ، ولو كانت الآية تقصد معنى مختلفاً لجاءت « أو » بدل « واو العطف » . . ولقال الله « فجورها أو تقواها » . ولكن واو العطف أكدت وجود الطريقين معاً تختار بينهما النفس ما تشاء .

والمعنى نفسه وارد فى آية أخرى :

« وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » .

والنجدان هما الطريقان . . طريق الخير وطريق الشر معاً . . ليختار صاحبهما ما يراه .

والله قال لنا فى كتابه إنه لا يخلق الضمير أسود ولا يحض على خطيئة .

« إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ » .

وفى مكان آخر :

« الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً » .

كل هذا كلام واضح لا لبس فيه .

إن الله لا يقهر أحداً على معصية . . وإنما هو يبسط الأسباب ثم يترك لنا الخيرة . . وفى أعماقنا سريرة مبرأة رفع الله عنها الحصار .

* * *

والأخ عصمت يورد تفسيراً للآية :

« اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ » .

يقول فيه إن القمر رمز للذرة التى انشقت بالفعل . . وإن تحطيم الذرة هو إحدى علامات الساعة . . أليست الذرة أشبه ما يكون بالقمر .

وأنا أسأله : لماذا لا يكون القمر هو القمر ؟

إن اللفظ صريح ولا يوجد ما يدعو لتأويله .

فضلاً عن أن الذرة لا تشبه القمر فى أى شىء .

* * *

والمهندس أدهم سليمان من العلاقمة شرقية من أنصار اقتراب الساعة هو الآخر وهو يورد حديثاً نبوياً رواه مسلم عن نزول المسيح فى آخر الزمان « لينزلن ابن مريم حكماً عدلاً » . . ويقول إن إخوة متصوفين موثوق بمشاهداتهم كشف لهم الله تبارك وتعالى عن قرب هذا اليوم وأنه سيأتى عام ١٩٨٠ ميلادية وهو عام نهاية دولة اليهود الظالمة . . ويقول إن هذا الكلام وارد فى كتاب التذكرة بأمور الآخرة .

ولا أدرى هل سيحل أيضاً مشكلة فيتنام ولاوس وكمبوديا . . وهل المفروض أن ننتظر المسيح ليحل لنا مشاكل الأرض .

والكلام كثير عن عودة المسيح . . ولكن لا توجد آيات من صريح القرآن تؤيد هذه العودة .

والقرآن ينفى واقعة قتل المسيح وصلبه ويقول إن اليهود شبه لهم ذلك ولكنه لم يحدث يقيناً

ولكن الله يعود فيقول لعيسى :

« إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ » .

ومؤدى هذا الكلام . . أن الصلب لم يحدث . . ولكن المسيح توفى ورفعه الله بالروح إليه . . وفى تفسير آخر أن كلمة « متوفيك » معناها متوفيك جزاءك . . وأنها لا تعنى الوفاة .

والبعض يقول إن هذه الوفاة هى الوفاة الصغرى (النوم) وإن عيسى فى شبه نومة أهل الكهف وإن له عودة وهو كلام لا دليل عليه . وكل هذا رجم بالغيب لا سند له ولا برهان . ومثل هذا ما يقال عن مجىء المهدى فى آخر الزمان .

وجميعها تدل على أشواق أهل هذا الزمان لأنوار النبوة .

وعلينا أن نقول لهم إن النبوات انتهت . . وإن على كل منا أن يكافح من أجل الخلاص معتمداً على هدى ما نزل من الكتب المقدسة

* * *

* ويقول الزميل الدكتور رشدى البدراوى إنه وقف طويلاً أمام ما كتب فى مقال « الساعة » من أن الله يفضل من عباده « الذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ » والذين يؤمنون بالقلب دون دخول فى لجاجة الجدل والمنطق ودون أن يلحوا فى برهان أو عيان محسوس .

وهو يسألنى : كيف تفسر إذن طلب إبراهيم : « رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى » .

وطلب موسى : « رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ » .

وطلب الحواريين نزول مائدة من السماء وكيف استجاب الله لطلبهم فأنزلها عليهم .

وجوابي على ذلك أنّ مرتبة النبوة لها وضع مختلف .

ومن الطبيعى أن يتزود النبي الذى يحمل عبء رسالة ، وعبء إقامة دين من عدم ، وعبء مواجهة جبروت المخالفين واضطهاد المضطهدين . . مثل هذا النبي لا بد أن يتزود بجرعة زائدة من اليقين . . فهذه الدرجة العالية من اليقين هى سنده الوحيد .

ولم يكن الحواريون أنبياء . . ولكن كان ينتظرهم عذاب أشد من عذاب الأنبياء .

وكلنا نعلم ما جرى للحواريين من اضطهاد وما جرى للمسيحيين الأول من تعذيب على المحارق والمشانق . . وكيف كانوا يلقون إلى الوحوش .

وهذه مخاطر لا نتعرض لها أنا ولا أنت الآن . والإيمان بالنسبة لنا لا يقتضى أية مجازفة .

ومع هذا فقد أدب الله نبيه موسى حين طلب أن يراه فكان ما كان من أمر الصاعقة التي صعقته . . وحينما رد الله له روحه قال له تعالى مؤدباً :

« فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ » .

أى لا تطلب أكثر مما تعطى .

والله يفضل الإيمان بالغيب لطفاً ورحمة بالمؤمن .

إذ أن المؤمن بالغيب له عذره دائماً إذا عصى وأخطأ وله المغفرة إذا تاب ، فهو لا يرى . . وهو يؤمن بما لا يرى .

أما الذى خصّه الله بكشف الحجب وأراه الغيب عياناً . . فإنه لا يعود له عذر فى أية هفوة يهفوها . . ويكون حسابه على كل معصية حساباً شديداً .

ولهذا قال الله للحواريين عند إنزال المائدة من السماء :

« إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ العَالَمِينَ » .

وهو وعيد رهيب لم يلق مثله إلى أحد .

وهذا مصير كل من شاهد وكل من رفعت له الحجب . . وكل من فتح الله عليه بشيء من الغيب .

ولهذا لا يغبط الأولياء على ما هم فيه من قرب . . فهم أشد الناس عذاباً إذا عصوا .

ومن هنا كان أمر الله لعباده بأن يؤمنوا به غيباً . . لطفاً بهم لا ضنًّا عليهم .

أما الذين لا يؤمنون حتى يشاهدوا أشراط الساعة وعلاماتها عياناً بياناً ، فهم آخر من يعتد بإيمانهم لأنهم غفلوا عن آيات القرآن ولم يؤمنوا بآيات الأرض والسماء . . وفى كل خطوة خطوها كانت حولهم آيات وفى أنفسهم آيات . . فإذا غفلوا عن كل هذا واشترطوا على الله أن يشق لهم القمر ويطلق عليهم يأجوج ومأجوج ويخرج لهم الدابة التى تتكلم . . فهم الكفرة المكابرون حقًّا .

* * *

* أما القارئ عبد الفتاح عيسوى من الدقى بالقاهرة فقد كان جريئاً جدًّا وهو يقول لى فى خطابه :

« أنت لم تكتب لنا فى تفسيرك العصرى شيئاً عن ذاتية الله . . وما هو . .

وهل هو كائن حى بمعنى الحياة التى نعرفها . .

فهلا شرحت لنا هذه الألغاز؟ ! » .

وأنا أقول للأخ عبد الفتاح إن أمرك عجيب .

وهل عرفت ما هى ذاتك أولاً . حتى تسأل عن ذات الله .

إنك لا تعرف من نفسك إلا اسمك ومجموعة صفاتك وأفعالك ولكنك تجهل تماماً ذاتك وكنهك .

وبالمثل نحن لا نعرف عن الله إلا أسماءه وصفاته وأفعاله أما ذاته فهى الغيب المطلق . .

وإذا كان إدراكك لذاتك مستحيلاً فإن إدراكك لذات الله هو ذروة المحال وهو إلقاء بنفسك إلى مشقة وعذاب لا قبل لك به ولا يجديك شيئاً

« يُجَادِلُونَ فى اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ المِحَال » . (الرعد – ١٣)

« وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ » بمعنى يحذركم البحث فى ذاته ويحذركم انتقامه . . ويحذركم قوته وجبروته .

والبحث فى ذات الله والإصرار على اجتلاء هذا المحال . . يؤدى حتماً إلى « الجذب » والجنون لأنه محاولة من العقل إلى مناقشة ما لا يناقش وتحليل ما لا يقبل التحليل . . وتنتهى المحاولة إلى أن يمزق العقل نفسه بنفسه .

هل تستطيع أن تحتوى بين ذراعيك ما لا يمكن احتواؤه ؟

وإذا أصررت على هذه الحماقة ألا تتمزق ذراعاك ؟

إن البداهه تنهى عن مثل هذا العمل .

وبالمثل ينهى الدين عن الخوض فى ذات الله وكنه الله حفظاً لنا ولطفاً بنا ورحمة

* * *

* أما القارئة مى الصغيرة من مدينة نصر (ورسالتها لا تدل على أنها صغيرة) فهى تقول عن الله :

أشعر بالله فى عظمة السماوات . . وأحس به فى دفء الشمس ونور القمر وتألق النجوم . . وألمس صفاته فى براعم الورود ورقراق الندى . . واراه فى نور عينى . . وأدركه فى نبض الحنان بين جنبات قلبى .

والصغيرة مى ترى أن مقالى عن الروح لم يكن وافياً ولا كافياً وتقول إنى لم أقل لها ما هى الروح . . وإنى هربت من الإجابة وهى تسألنى :

ما معنى التقاء الأرواح علمياً ؟

وهل للحب علاقة بالأرواح ؟

وهل يمكن أن تقوم صلة بين أرواح الموتى وأرواح الأحياء .

وأين تذهب الأرواح عند النوم ؟ هل تذهب إلى البرزخ نفسه الذى تذهب إليه أرواح الموتى . ؟

هل صعد نبينا فى الإسراء والمعراج بالروح أم صعد صعوداً كاملاً بالروح والجسد ؟

وأسئلة الصغيرة مى أسئلة كبيرة جداً .

والتقاء الأرواح لا يفهم علمياً إلا كما يفهم التقاء موجتين لاسلكيتين ذات طول واحد على مؤشر الراديو فيسمعان معاً حينما نوقف المؤشر . . وهو تشبيه لا يفى بالغرض ولكن لا نجد غيره .

والحب فى نظرى هو صفة الروح ووظيفتها . والمقصود بالحب هنا ليس حب روميو وجولييت . . ولكن الحب الذى كان فى قلب غاندى والمسيح وطاغور نحو الإنسانية والخير والجمال والحق والمثل العليا .

أما غرام روميو وجولييت وحب حسن لنعيمة فهو نشاط الهرمونات الجنسية ونتيجة اكتمال الأنوثة والرجولة ولا دخل للروح فيه .

أما عن الصلة بين أرواح الموتي وأرواح الأحياء فأعتقد أنها يمكن أن تتم فى الرؤى والأحلام بطريقة نجهلها .

وقصة الإسراء والمعراج هى صورة من اتصال روح محمد بأرواح باقى الأنبياء إذ صلى بهم فى المسجد الأقصى والتقى بهم بالفعل وهو يعرج صاعداً فى السماوات .

أما هل صعد بالجسد أم بالروح . . فلا أحد يعلم . . وهو فى نظرى سؤال غير مهم إذا كان المقصود به قدرة الله . . فالله يرفع بقدرته ملايين النجوم ويعلقها فى أفلاكها فى السماء بقوانينه المحكمة . . ولا حاجة بنا إلى معجزات لإثبات قدرة الله فى إصعاد المادة .

فلا غرابة فى أن يصعد محمد عليه الصلاة والسلام بالروح والجسد .

أما أين تذهب الأرواح عند النوم . . فالله يقول لنا إنه يتوفاها كما يتوفى أرواح الموتي . . كل الفارق أنه يردها لنا عند اليقظة . . ويمسك أرواح الموتي فلا يعيدها .

أما أين يبقيها إلى حين يردها باليقظة هل فى برزخ الموتي أم برزخ آخر فهو أمر لا نعلمه . بل إن كلمة برزخ نفسها لغز .

وكما قلت فى مقالاتي إن كلمة برزخ لا تعنى مكاناً – وإنما تعنى الانفصال نتيجة اختلاف القوانين لا أكثر . . فإذا انفصلت الروح عن الجسد بالموت فإن كل طرف لا تعود تحكمه إلا قوانينه الخاصة وهى قوانين مختلفة وهكذا يحدث الانفصال (البرزخ) .

وهو برزخ لا يمكن عبوره إلا بمعجزة أو كرامة أو هبة خاصة أو لطف إلهى . . ولهذا ينفصل الموتى عن الأحياء إلى يوم القيامة .

* * *

* والأخ سيف الله أحمد فاضل له رأى فى الروح . . فهو يقول إن الإنسان لا يملك روحاً وإنما يملك نفساً هى التى تبقى بعد موته . وإن الروح اسم من أسماء جبريل . . فهو الروح القدس وهو الروح الأمين . . أما الإنسان فهو جسد ونفس لا غير . جسد يموت ونفس تبقى . . وأنا أسأل الأخ سيف :

كيف تفسر إذن آية واضحة قاطعة مثل :

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ » .

« وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ » .

« وَمَا كَانَ لِنفسٍ أن تموتَ إلاَّ بِإِذنِ الله كتاباً مؤجلاً » .

ومعناها الصريح أن النفس تموت كما أن الجسد يموت . . وأن ما يبقى بعد الموت هو شىء آخر .

وكلمة « النفس » ترد فى القرآن بمعان متعددة فهى ترد بمعنى النفس الحيوانية الأمّارة ، وأحياناً بمعنى النفس العليا اللّوامة ، وأحياناً بمعنى الروح الباقية ، وأحياناً بمعنى الشخص أو الفرد .

وقد نفخ الله فى آدم من روحه .

والمسيح هو كلمة الله وروح من الله ألقاها إلى مريم . . فالروح هبة الله إلى آدم وأبنائه وهى حقيقة قرآنية لا شك فيها . . وهى غير أسماء « الروح القدس والروح الأمين » التى أطلقت على جبريل . وغير الروح المطلق

الذى يعرج إلى الله مع الملائكة فى اليوم الذى مقداره خمسون ألف سنة .

والروح لغز ولا نعرف عنها سوى أنها من الله وأنها باقية .

والأخ سيف يختم رسالته بكلمة جميلة للسيد المسيح ينتقد فيها الحزن والبكاء على الموت والموتى .

يقول عيسى :

« ما أعظم جنون الإنسان الذى يبكى على الجسد الذى فارقته النفس ولا يبكى على النفس التى فارقتها رحمة الله بسبب الخطيئة . . الحق أقول لكم إن الإنسان يخطئ إذا بكى على أى شىء إلا على خطيئته . . إن كل الم فى الحياة أو الموت هو كفارة يجب أن نتهلل لها فرحاً لأنها تمدنا بوسيلة خلاصنا .

أما الخطيئة فهى السقوط الذى يستحق منا البكاء ندماً إلى آخر الدهر » .

* * *

* ويسأل الأخ الدكتور رشدى البدراوى سؤالاً آخر فى مشكلة الحلال والحرام يقول : لماذا حرم الله على بنى إسرائيل كل ذى ظفر ؟

وما هى المعقولية فى هذا التحريم ؟

والجواب : أن التحريم على بنى إسرائيل كان بمنطق آخر غير التحريم فى الإسلام . . كان التحريم على بنى إسرائيل عقاباً لهم وحرماناً . على حين حرم الله علينا نحن المسلمين الخبائث فقط . . أى كل ما هو ضار . تدل على ذلك الآية الصريحة الواردة عن اليهود :

« فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ » .

(النساء — ١٦٠)

أى أن الله حرم عليها الطيبات عقاباً على ظلمهم .

فنحن هنا أمام منطق مختلف فى التحريم . . تحريم للعقاب . . لا للمعقولية .

ويسأل الدكتور سؤالاً ثالثاً عن قصر الزواج على واحدة للمسيحيين . وإباحة تعدد الزوجات للمسلمين .

والواقع أن تعدد الزوجات للمسلم مشروط بشرط صعب وشاق هو العدل : « فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً » ويؤكد الله استحالة هذا العدل : « وَلَنْ تَسْتَطِيعوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ » .

إنه الأمر الممكن الذى لن يقدر عليه أحد .

إننا ما زلنا فى منطقة الزوجة الواحدة . . والإباحة عليها قيود ثقيلة . . والحكمة فى هذه الإباحة الظاهرة بأربع . . أن الجاهلى كان يتزوج بعشر نساء وعشرين ، فجاءت الآية تحديداً . . لا إطلاقاً وتكثيراً كما يتصور قارئ اليوم .

ويختم الدكتور رسالته بسؤال عن الخمر . . وهل تكون حلالاً إذا اقتضتها ضرورة طبية . . ثم يضرب مثلاً لهذه الضرورة الطبية . . ما يعيشه إنسان هذا العصر من ضغوط عصبية وقلق وهموم تتلف نفسه وحياته .

ويقول ما المانع من كأسين أو ثلاث ما دام الأمر لا يصل إلى سكر وعربدة يستعين بها الواحد منا على هذه الضغوط والمشاكل التى لا حصر لها .

والحقيقة يا دكتور رشدى أن ما ذكرته لا يمثل ضرورة طبية . . والخمر لا تعين على تحمل الضغوط العصبية . . بل العكس . . فهى تضعف من

قدرتنا على هذا التحمل ، لأنها تضعف الإرادة . . بل إن شربها والخضوع لها نوع من ضعف الإرادة ، ويتفاقم هذا الضعف كلما تفاقم الشرب .

ولو اعتبرنا الظرف الذى ذكرته ضرورة تقتضى كأسين أو ثلاثاً قبل النوم . . لوجب أن نكتب الخمر فى بطاقات التموين كالسكر والزيت والكيروسين ونوزعها مثل القوت الضرورى .

لا يا عزيزى . .

أنا لا أوافقك . . وما زلت أعتقد أن تحريم الخمر فى القرآن هو منتهى الرحمة بالإنسان والرفق بالمجتمع .

والضغوط العصبية هى إشعار بأوضاع غير طبيعية فى حاجة إلى حل . . واستعمال كأس أو كأسين للهرب من الموقف معناه أن تبقى جميع المشاكل بلا حل . . وهو أمر لا يرضاه الله ولا يرضاه أحد .

* * *

* والأخ م . ح من سوريا – حلب له آراء جميلة فى الألغاز التى أوردنا ذكرها فى مقال « الغيب » . . وهى القلم واللوح والعرش والكرسى .

يقول الأخ السورى إن الله خلق الإنسان على صورة أسمائه الحسنى « وعلم آدم الأسماء كلها » . . فهو محل لظهور أحكامها . . أحكام هذه الأسماء وصفاتها . . وقابل لتجليات الحضرة الربوبية .

الإنسان هو الكتاب الجامع . . والكون الطبيعى صفحات هذا الكتاب .

الإنسان هو العالم الأصغر الذى فيه انطوى العالم الأكبر . . فهو جامع لكل حقائق الكون .



يقول الله تعالى فى حديث قدسى :

« لم تسعنى أرضى ولا سمائى ووسعنى قلب عبدى المؤمن » .

ويقول لنا القرآن عن الله « وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضَ » .

فيكون « الكرسى » هنا هو العقل .

وهو الذى يسع السماوات والأرض بالفعل .

ألا يتسع عقلنا بالفعل للأرض والسماوات وأفلاكها وهندستها فنضع النظريات والأرقام ثم يطير رواد الفضاء فيؤكدون لنا صدق حساباتنا .

وها هو الله جل شأنه يقول :

« لم تسعنى أرضى ولا سمائى ووسعنى قلب عبدى المؤمن » .

أفلا يكون القلب إذن هو العرش ؟

والعقل هو الكرسى ؟

والجسد هو اللوح الذى يكتب الله عليه (على الجينات الوراثية فى خلية الجنين) ، يكتب قدر المولود وحياته .

ورأى الأخ السورى هو رأى صوفى .

ولكن لا أدرى كيف يكون تفسير الآية :

« وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ » .

إذا كان العرش هو القلب . . فكيف نتصور القلب محمولاً على ثمانية . . (يوم القيامة) . . وثمانية ماذا ؟

أم إنها صورة بلاغية مجازية مؤداها أننا سنرى عياناً ما هو القلب وما شأنه فى ذلك اليوم الجليل يوم القيامة .

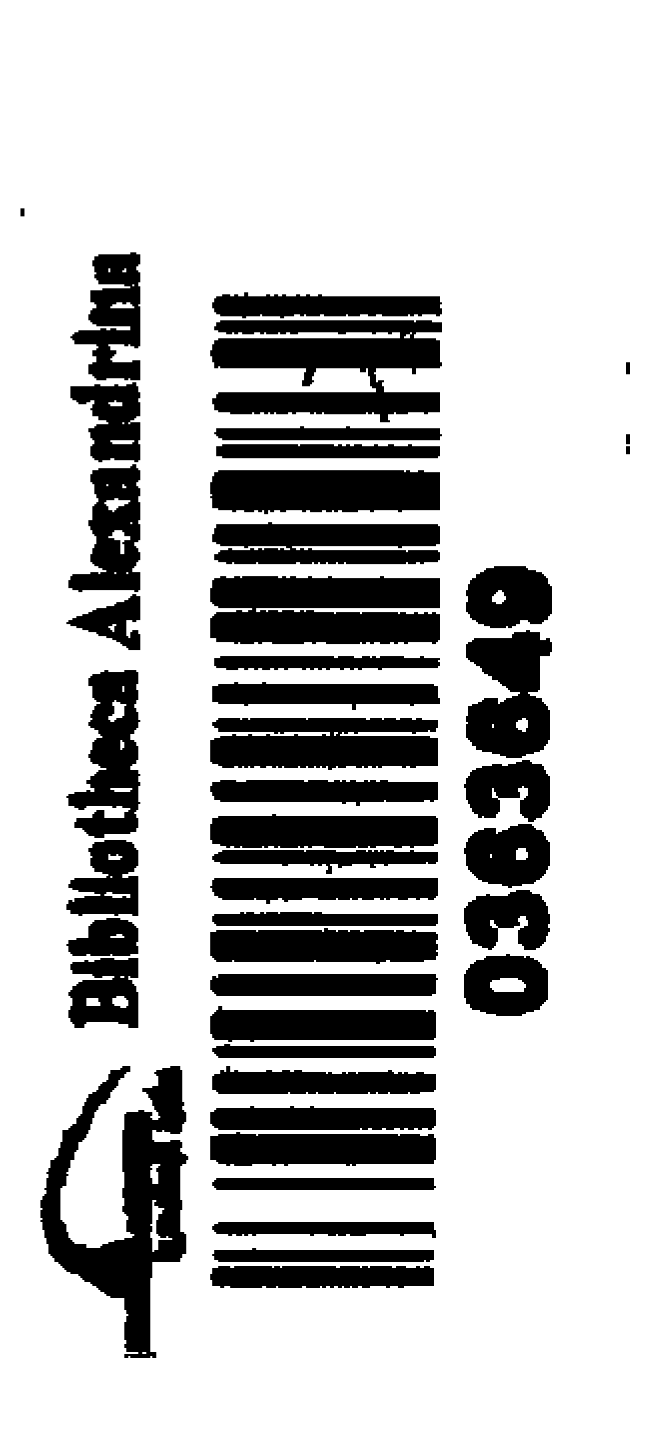
التفسير هو مجرد تفسير ظني لا يرتقي إلى يقين .
وأجمل من ذلك ما يقوله ابن عباس عن كرسي الله : الله كرسيه علمه فجعل من الكرسي كلمة وصفية تعني علم الله الشامل وأفضل من التفسيرين أن نقول . . الله أعلم .

الفهرس

رقم الإيداع		١٩٨٧ / ٥٥٤٥
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٢١٤٧-٣	ISBN

١ / ٨٧ / ١٢٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)


Bibliotheca Alexandrina
03636649